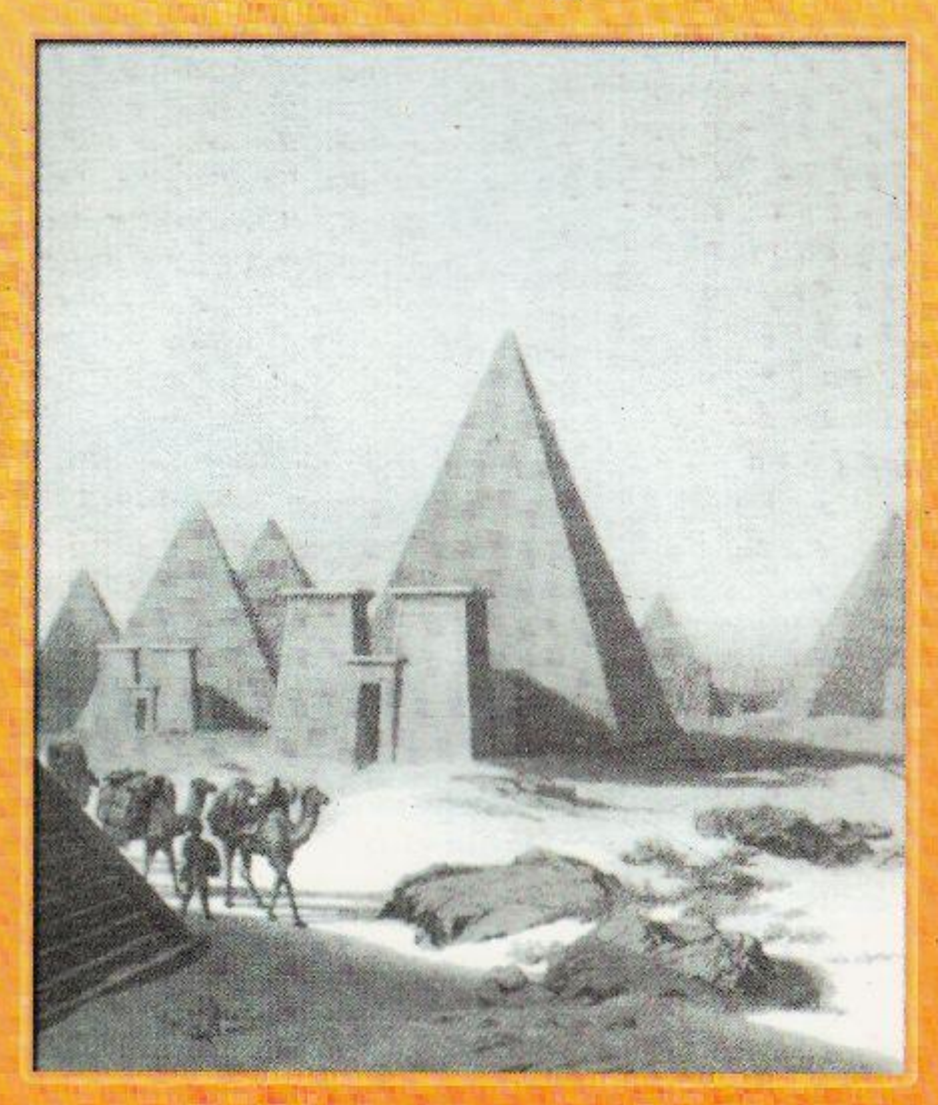
بابلــو دي جيفنــوا

رحلــة إلى السودان



ترجمة

أ.د. علي المنوفي

2010



الدار العربية للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى

بابلـــو دي جيفنـوا

رحـــلة إلى السودان

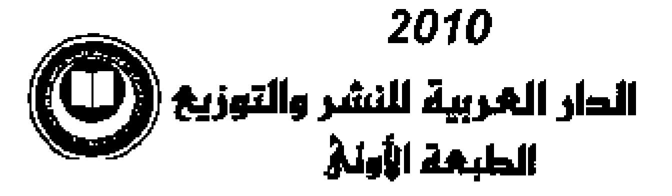
بابلــو دي جيفنــوا

رحـــلة إلى السودان

ترجمة

علــي المنوفــي

2010



الدار العربية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

حقوق النشر

رحلة إلى السودان

رقم الإيداع: 17776/ 2009
I.S.B.N.: 977-258-373-9

32 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: 22753335 فاكس: 22753388

مقدمة الناشر

يتزايد الاهتمام باللغة العربية في بلادنا يومًا بعد يوم. ولاشك أنه في الغد القريب ستستعيد اللغة العربية هيبتها التي طالما امتهنت وأذلت من أبنائها وغير أبنائها. ولا ريب في أن امتهان لغة أية أمة من الأمم هو إذلال ثقافي فكرى للأمة نفسها؛ الأمر الذى يتطلب تضافر جهود أبناء الأمة رجالاً ونساءً: طلابًا وطالبات، علماء ومثقفين: مفكرين وسياسيين في سبيل جعل لغة العروبة تحتل مكانتها اللائقة التي اعترف المجتمع الدولي بها لغة عمل في منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها في أنحاء العالم، لأنها لغة أمة ذات حضارة عريقة استوعبت – فيما مضى – علوم الأمم الأخرى، وصهرتها في بوتقتها اللغوية والفكرية. فكانت لغة العلوم والأدب، ولغة الفكر والكتابة والمخاطبة.

إن الفضل في التقدم العلمى الذى تنعم به أوروبا اليوم يرجع في واقعه إلى الصحوة العلمية فى الترجمة التى عاشتها في القرون الوسطى. فقد كان المرجع الوحيد للعلوم الطبية والعلمية والاجتماعية هو الكتب المترجمة عن اللغة العربية لابن سينا وابن الهيثم والفارابي وابن خلدون وغيرهم من عمالقة العرب. ولم ينكر الأوروبيون ذلك؛ بل يسجل تاريخهم ما ترجموه عن حضارة الفراعنة والعرب والإغريق. وهذا يشهد بأن اللغة العربية كانت مطواعة للعلم والتدريس والتأليف. وأنها قادرة على التعبير عن متطلبات الحياة وما يستجد من علوم، وأن غيرها ليس بأدق منها، ولا أقدر على التعبير.

ولكن ما أصاب الأمة من مصائب وجمود بدأ مع عصر الاستعمار التركى. ثم البريطانى والفرنسى، عاق اللغة عن النمو والتطور. وأبعدها عن العلم والحضارة. ولكن عندما أحس العرب بأن حياتهم لابد من أن تتغير. وأن جمودهم لابد أن تدب فيه الحياة. اندفع الرواد من اللغويين والأدباء، والعلماء في إنماء اللغة وتطويرها. حتى أن مدرسة قصر العينى فى القاهرة: والجامعة الأمريكية في بيروت درستا الطب بالعربية أول إنشائها. ولو تصفحنا الكتب التى ألفت أو تُرجمت يوم كان الطب يدرس فيهما باللغة العربية لوجدناها كتبًا ممتازة لا تقل جودة عن مثيلاتها من كتب الغرب فى ذلك الحين. سواء فى الطبع. أو حسن التعبير. أو براعة الإيضاح. ولكن هذين المعهدين تنكرا للغة العربية فيما بعد. وسادت لغة المستعمر. وفرضت على أبناء الأمة فرضًا، إذ رأى المستعمر فى خنق اللغة العربية مجالاً لعرقلة الأمة العربية.

وبالرغم من المقاومة العنيفة التي قابلها. إلا أنه كان بين المواطنين صنائع سبقوا الأجنبى فيما يتطلع إليه. فتفننوا في أساليب التملق له اكتسابًا لمرضاته، ورجال تأثروا بحملات المستعمر الظالمة، يشككون فى قدرة اللغة على استيعاب الحضارة الجديدة، وغاب عنهم ما قاله الحاكم الفرنسى لجيشه الزاحف إلى الجزائر: "علموا لغتنا وانشروها حتى نحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر. فقد حكمناها حقيقة".

فهل لى أن أوجه نداءً إلى جميع حكومات الدول العربية بأن تبادر – فى أسرع وقت ممكن – إلى اتخاذ التدابير، والوسائل الكفيلة باستعمال اللغة العربية لغة تدريس فى جميع مراحل التعليم العام، والمهنى، والجامعى، مع العناية الكافية باللغات الأجنبية فى مختلف مراحل التعليم لتكون وسيلة الإطلاع على تطور العلم والثقافة والانفتاح على العالم. وكلنا ثقة من إيمان العلماء والأساتذة بالتعريب، نظرًا لأن استعمال اللغة القومية فى التدريس ييسر على الطالب سرعة الفهم دون عائق لغوى، وبذلك تزداد حصيلته الدراسية، ويرتفع بمستواه العلمى، وذلك يعتبر تأصيلاً للفكر العلمى فى البلاد، وتمكينًا للغة القومية من الازدهار والقيام بدورها فى التعبير عن حاجات المجتمع، وألفاظ ومصطلحات الحضارة والعلوم.

ولا يغيب عن حكومتنا العربية أن حركة التعريب تسير متباطئة، أو تكاد تتوقف، بل تحارب أحيانًا ممن يشغلون بعض الوظائف القيادية فى سلك التعليم والجامعات، ممن ترك الإستعمار فى نفوسهم عقدًا وأمراضًا، رغم أنهم يعلمون أن جامعات إسرائيل قد ترجمت العلوم إلى اللغة العبرية، وعدد من يتخاطب بها فى العالم لا يزيد عن خمسة عشر مليون يهوديًا، كما أنه من خلال زياراتى لبعض الدول واطلاعى وجدت كل أمة من الأمم تدرس بلغتها القومية مختلف فروع العلوم والآدب والتقنية، كاليابان، وإسبانيا، وألمانيا، ودول أمريكا اللاتينية، ولم تشك أمة من هذه الأمم فى قدرة لغتها على تغطية العلوم الحديثة، فهل أمة العرب أقل شأنًا من غيرها ؟!.

وأخيرًا .. وتمشيًا مع أهداف الدار العربية للنشر والتوزيع، وتحقيقًا لأغراضها فى تدعيم الإنتاج العلمى، وتشجيع العلماء والباحثين فى إعادة مناهج التفكير العلمى وطرائقه إلى رحاب لغتنا الشريفة، تقوم الدار بنشر هذا الكتاب المتميز الذى يعتبر واحدًا من ضمن ما نشرته – وستقوم بنشره – الدار من الكتب العربية التى قام بتأليفها أو ترجمتها نخبة ممتازة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المختلفة.

وبهذا .. ننفذ عهدًا قطعناه على المضى قدما فيما أردناه من خدمة لغة الوحى، وفيما أرداه الله تعالى لنا من جهاد فيها.

وقد صدق الله العظيم حينما قال فى كتابه الكريم: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

محمد أحمد دربالة

الدار العربية للنشر والتوزيع

تصدير

كان الترحال من أجل المعرفة والرؤية البصرية المباشرة أمرا من الأمور التي يحتفل بها محبو العلم والمعرفة في كل زمان ومكان، والغرض من هذه المعرفة أن يكون المرء أكثر قرباً من بني جلدته من بني الإنسان مع اختلاف الألوان والأجناس والعقائد والظروف، فليس هو وحده الأكثر تقدماً على غيره بل لكل مجموعة بشرية منظومتها التي تواجه بها الحياة في منطقة جغرافية تعيش فيها.

لسنا بحاجة إلى التفكير في نماذج مثل رحلات بن بطوطة وحول العالم التي قام بها أنيس منصور في أيامنا هذه وبين هذه وتلك الآف من التجارب الإنسانية التي أضيفت إليها أبعاد أخرى تجاوزت الكرة الأرضية محاولة التعرف من خلال التقنية الحديثة على ما في الكون، وما في كوكبنا، وأطلقنا عليها خطأ غزو الفضاء إذ أعطيناها المسمى العسكري الذي يغفل أفضل ما فيها من أبعاد إنسانية تحاول معرفة ما يحيط بهذا الكوكب الذي يعيش عليه والمؤثرات التي أتته من الخارج وكذا البحث عن كائنات أخرى تسكن كواكب أخرى ربما تشاركنا التجربة الحياتية نفسها.

على أرض الوطن، وعلى أرض هبة النيل، واهبة حضارة إنسانية رفيعة نمت على ضفاف النيل، وجعلت منه وسيلة للمعرفة، شهدنا الكثير من الرحلات وجاب النيل الكثير من الرحالة الذين أسهمت أعمالهم، أي رحلاتهم في زيادة معرفية بالنيل وأهله ومملكة النبات والحيوان فيه وربما استغل البعض ما تمخض عن هذه الرحلات استغلالاً سيئاً من موجات استعمارية ونهب لثروات الشعوب ... إلخ، إلا أن معرفة الآخر عن قرب لازالت هي الهدف الأسمى لمثل هذه الرحلات.

قصة الرحلة التي بين أيدينا تنطلق من القاهرة المعاصرة لتغوص في أعماق تاريخ مصر القديمة وجذوره التي تغوص في أعماق السودان وتحدثنا عن نوبيين مصريين وسودانيين وعن ثقافة تحدثنا عنها الكثير من الأبحاث العلمية الدقيقة بأنها كانت اللبنة الأولى في سطوع نجم الحضارة المصرية القديمة التي ينظر إليها على أنها شجرة سامقة تضرب بجذورها في أفريقيا السوداء.

كاتبنا هو باحث أسباني ودبلوماسي لازال يعمل فـي سلك وزارة الخارجيـة الأسبانية غير انه شغف حباً بالبحث والتصوير والترحال في مناطق مختلفة وعاش لفترات طويلة في كل من القاهرة (محطة مهمة من محطـات الثقافـة الإسـلامية والقبطية) والإسكندرية (العاصمة الثقافية للبحر المتوسط على مدى قرون عديـدة) وأثينا (عاصمة ميلاد الثقافة اليونانية ودورها في الحضارة الإنسانية الحديثـة) أو جنوب أفريقيا (ذلك البلد الأفريقي الذي يشكل أحد وجهي العملة الثقافية الأفريقية).

أهتم كاتبنا بوادي النيل وعصر ما قبل التاريخ والعصـور التاليـة لـه، وألقـى محاضراته ونشر بعض أبحاثه في الكثير من الدوريات.

هو اليوم يقدم لنا في صفحات هذا الكتاب لمسات إنسانية نرى من خلالها كيـف يرانا الآخر ونحن في بداية القرن الحادي والعشرين . ويعرف من أسلوبه كيف هي ملامحه وخلجاته النفسية والفكرية.

جاء الكتاب في لغة تتسم بالتشويق وجمال العبارة التي نفتقدها في أيامنا هـذه حيث توارى دور الشعر وتقدمت اللغة الوظيفية لتحل محل اللغة الإبداعية.

أدعو القارئ العزيز مرافقة كاتب هذه الرحلة الممتعة من خلال ما سطره.

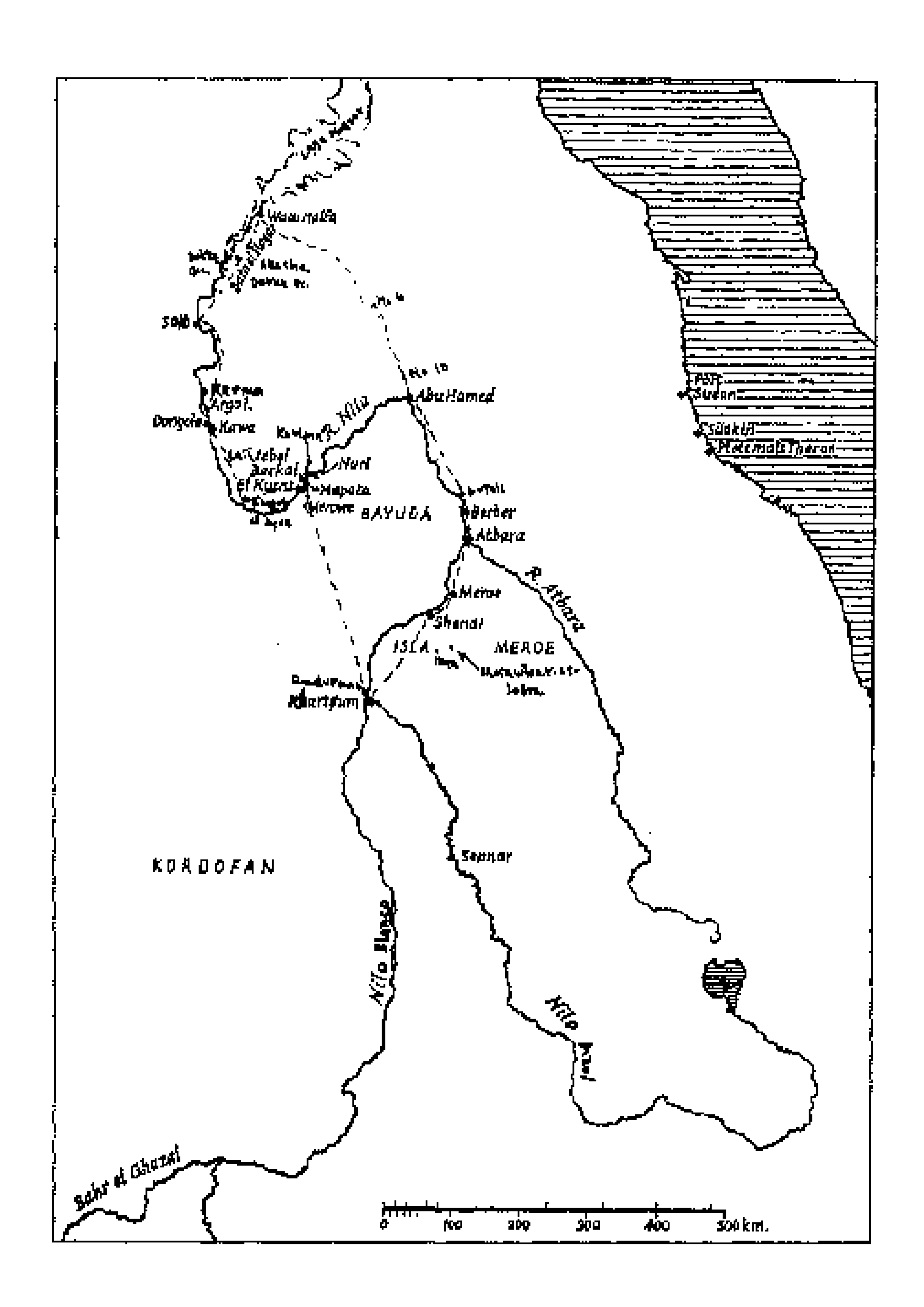
وأخيراً أهدي هذا الجهد المتواضع لزوجتي نادية وأبنائي سمر وكـريم وإلـى الصديق الصدوق الذي تعلمت معه الكثير محمد الحساتين وزوجته الكـريم مـاري سيل.

د. علي المنوفـي

طلب مني والداي أن أقص عليهما أحداث الرحلة، فكان هذا الكتاب، وإليهما أهديه، وكذا لرفاق الطريق ولأسرتي وأصدقائي وصديقاتي وإلى كل هؤلاء القراء الذين يشاركوني هذه التجربة المثيرة.

كيبه تاون 2004/1/14

المحتويات


Abu Hamed
R. Nilo
Argol.
Kawa
Jebel
Barkal
Nuri
BAYUDA
Berber
Atbara
R. Atbara
Meroe
Shendi
ISLA
MEROE
Port
Sudan
KORDOFAN
Nilo Blanco
Nilo Azul
Bahr el Ghazal
0
100
200
300
400
500 km.

كانت السودان تتراءى أمامي كفكرة، وأذهب إلى ما هو أبعد من هذا إلى القول بأنها كانت كحلم؛ كان لكل واحد من ثلاثتنا حلمه الذي يختلف عن الآخر؛ واصلنا كل في طريقه، وفجأة، وبدون مقدمات أو حتى تردد، قررنا القيام برحلة، وكان الارتجال هو سيد الموقف؛ فالحرب في جنوب السودان كانت على وشك الانتهاء وكان شماله – النوبة العليا – مفتوحاً، فهناك للممالك الأفريقية القديمة. العفوية هي الملمح الجوهري في الخطوة الأولى، وكأننا مجذوبون بمغناطيس أو طُعم يقودنا إلى مكان سرّي وأسطوري، كانت الرحلة مليئة بالمفاجآت والتعقيدات.

حدد بير ، رسام وشاعر من جزر البليار، الهدف والغاية، فبعد معرض عن الثقافة السودانية أكد، ونبرة الحماس تسيطر على صوته، أنه يريد أن يرى هذه المشاهد والكنوز، وهنا لم أستغرق ثانية في قراري بالانضمام إلى رحلة كانت تدور بخلدي منذ زمن بعيد وتطوف بأرجاء الحلم منذ أن عثرت على لوحة ترجع إلى القرن التاسع عشر، أتت عليها عوامل الزمن، تظهر فيها أهرامات مروى في الصحراء. وسرعان ما طرحنا الفكرة على صديقنا يحيى ذلك النوبي المصري ذي البشرة السمراء، والفيلسوف على طريقته، فكان رده إيجابياً دون تردد. هو أيضاً حالم، بتلك النوبة التي يرجع تاريخها إلى آلاف السنين، وحالم بالنيل وبقبيلته التي توزع أفرادها بين السودان ومصر طبقاً لتقلبات الدهور والأزمان.

وذات ليلة، بينما كنا نقوم بالإعداد للرحلة، كتبت لوالدي اللذين كان يريدان أن يتابعا، من مدريد، ما أقوم به من خلال المخططات والخرائط، فقلت "أقوم الآن بالإعداد للرحلة إلى السودان رويدا رويدا، وأقوم بذلك مترسماً خطوات هؤلاء الرحالة الرومانسيين خلال القرن التاسع عشر. لدى بعض اللوحات القديمة التي أرى فيها أهرامات مروى وسط الصحراء وأظن أنها ستكون كما

أتخيل، أي يلفها ذلك الجو الأسطوري الذي لا يفصح عن زمن بعينه وذهب بعقول الكثير من الرحَّالة. فأن يدخل المرء إلى بلاد السودان، بلد البشرات السوداء، هو بمثابة الدخول إلى أرض تقع خارج نطاق الزمن، لكن النوبة التي أعرضها وموسيقاها ورقصاتها التي أدتها والجلاليب أو القمصان الطويلة البيضاء والشيلان الكبيرة التي يضعها الجمَّالة فوق رؤوسهم، كلها سوف تكشف عن لمحة من الماضي لم نرها قبل ذلك لكنها ظلت هناك متوارية.

سوف ندخل إلى السودان من جنوب مصر – وادي حلفا – ثم نمر بجنادل النيل ونطوف بأرجاء مملكة نباتة ومروى من خلال المشاهد اللانهائية، وسوف نزور جبل البرقل المقدس لنتضرع لآمون حتى يجعل عودتنا حميداً، وسنعبر النيل على متن قارب لنصل إلى بلدة نوري، ونمشي من الشاطئ صوب أطلال بعض الأهرامات؛ وفوق كل هذا سوف نجلس لنتأمل الأمسيات الذهبية على صفحة المياه ونتقاسم أول لقمة في اليوم، "إفطار رمضان"، مع الفلاحين الذين يصادفوننا فنحن سنكون في شهر رمضان وسنصوم معهم.

سوف يجلجل صوت المؤذن بنبراته الحزينة في قلب النوبة، ثم تأخذ أيدينا الأسماك المشوية والأرز الذي يقدموه لنا ونحن جالسون على الأرض. وسوف تضيء الأنجم ليلنا ونحن نتسامر جالسين على الرمال تصاحبنا أكواب الشاي والنارجيلة المحشوة، وسوف نتأمل كتلة النهر المعتمة، وسوف يتبدى لنا صمت الصحراء الأبدي كأنه غطاء أسطوري؛ وكثيراً ما طفت بقلمي هذا القطاع من النهر، أقتفي خطوات الأجداد، وكثيراً ما عشت الليالي الطوال التي لا تنقضي في النوبة، حيث يبدو أنني كنت هناك.

"ماندا لاي" قسطنطيا، كيب تاون 2003/10/28"

إذن كنت أسير إثر حلم مستحيل أكاد أدرك كنهه ولكن بطريقة غامضة، إنه ضجيج صوب مروى، تلك المملكة الأسطورية على النيل، المختبئة في أحد

منحنياته وكذا في ثنايا التاريخ. هي مملكة من ممالك الجنوب، في السافانا، عاشت حضارة عظيمة وكانت واحدة من أوليات ممالك أفريقيا السوداء على مدار عشرة قرون؛ تقبع مروى في ركن من أركان الذاكرة، وكانت تتبدى بقامتها الخلابة وأهراماتها المدببة والمتدرجة والصغيرة في آن، نراها الواحد تلو الآخر في خط لا ينقطع على كثبان رمال الصحراء.

ورد اسم مروى في كتاب "التاريخ" لهيرودوت، إذ أشار إلى أن المرء في حاجة إلى أكثر من أربعين يوماً ليصل إلى أعالي النهر الصعبة ويبلغ هناك "جزيرة مروى" والبوتانا Butana اللتين تعانقان نهر عطبرة والنيل الأزرق والنيل العظيم. كما ورد ذكرها في كتابات كل من إيراتوستنس وديودور واسترابون وبلينيو العجوز وسنيكا وهليودورو وديون كاسيو وكرستو وكلاوديو البطلمي.

تواجدنا أنا وبير في القاهرة لنبدأ الرحلة والتقينا بصديقنا سامي، وتجولنا في الحي القبطي بمصر العتيقة في حواريه وكنائسه التي ترجع إلى العصور الوسطى، وهي منطقة أطلق عليها الرومان اسم بابيلونيا، "أي بوابة الشمس" على شاكلة عاصمة ما وراء النهرين. وعندما خرجنا وجدنا أنفسنا أمام منطقة خالية، لمحنا عن بعد أطلال الفسطاط أول مدينة إسلامية، تلك الأبهة المدفونة في بحر الرمال؛ هناك تجد أفران حرق الفخار، والعمال العرايا الذين لطخت أجسادهم قطع الطين البيضاء، يقومون بأعمالهم بجد ونشاط وسط أكوام من التراب وسرنا حتى وصلنا إلى جامع عمرو بن العاص، أقدم مسجد في القاهرة، هو مسجد يتلألأ فيه اللون الأبيض، ويتجلى فيه صحنه الجميل وأعمدته الملساء ذات التيجان الكورنثية. جلسنا على السجاد بالقرب من المنبر انتظاراً لسامي وهو يؤدي الصلاة؛ كان نور السكينة يلفنا، وكنا نسمع المسلمين يؤدون الصلاة سيراً على نغمات صوت الإمام.

أخذنا نطوف بأرجاء شوارع بها مباني تعود إلى القرن التاسع عشر وأشجار وارفة، حتى وصلنا إلى ميدان صغير عقدت به احتفالية غريبة؛ أطلت علينا في أحد أركان الميدان، عند أحد أبواب دير قبطي، تيجان ضخمة كورنثية من الرخام ترجع إلى العصر الروماني أو البيزنطي وقد تدحرجت بغير انتظام على الرصيف. إنها تيجان أعمدة كنائس قديمة هي كنيسة القديس هرمس، وكذلك قديس قبطي آخر، لا أصدق أنه هو؛ كانوا يقومون بترميم التيجان. هناك نسمات سلام وسكينة تداعبنا وقد خرجت من كنائس صغيرة ومعتمة مشيدة من الأجر القديم ولها بعض البائكات الصغيرة وقد زخرفت حوائطها بأيقونات غريبة وغامضة كانت إحداها تضم "عين حورس" الذي تحول إلى قديس؛ أصبحت هذه الكنائس ملاذاً مقدساً يرسو على شاطئ الزمان.

ذهبنا في المساء إلى منزل سامي، وهو شقة جديدة في قلب الجيزة؛ لقد اقتربت ساعة الإفطار في رمضان؛ السيارات مسرعة في الشوارع الخالية، وكان سائق التاكسي الذي يحملنا يحاول تفادي الزحام المروري في بعض المناطق، وبالتالي كان طريقه الشوارع الجانبية، فبعد الشارع الرئيسي دخلنا شارعاً ضيقاً على جانبيه عمارات من سبعة طوابق وعشرة؛ لم يكن هناك إلا ممر صغير ورصيف ترابي. كتل أسمنتية تطل علينا من كل صوب وحدب، إنها القاهرة الجديدة. كانت منار الصغيرة أول من خرج لتحيتنا، مكسوفة و"عكروتة" في آن معاً؛ وبعدها أتى أحمد بنظراته الحية والحنونة، جلسنا أمام مائدة عامرة، وكان الأطفال يشاهدون رسوماً متحركة ولكن بدون تلهف، إنها مغامرات الصغير بكّار في النوبة. هذا هو مقصدنا. أخذنا نتفرج نحن أيضاً.

استأجر سامي سيارة التاكسي ليقودنا صاحبها إلى المطار، وقبل ذلك مررنا بالفندق. هلّ علينا بعض الأصدقاء النوبيين لوداعنا وهم إبراهيم وعبد الله وعبد الحارث وآخرون. وبعد أن فقدنا شنطة لناء شنطة بير، التي بها بعض الملابس

والهدايا، في طريق الرحلة من القاهرة إلى أسوان، قضينا الليلة في منزل يحيى. ها هي النوبة تحتضننا؛ على الشاطئ الغربي للنيل، الشاطئ الصحراوي تمتد بلدة غرب سهيل فوق كثبان الرمال التي تمتد حتى مياه النيل؛ ومن الشرفة أخذت أتأمل، تحت ضوء القمر، كيف أن مياه النهر تمضي في طريقها مارة بالصخور التي تحمل نقوشاً هيروغليفية في جزيرة سهيل؛ كانت القرية مستغرقة في النوم بينما كنا نتحدث عن مرحلة الإعداد للرحلة. كنا نسمع همهمة المياه في الجندل الأول، "البوابة الجنوبية"، كما كان الأقدمون يسمونها.

عندما أصبح النهار لم نكن نعرف متى سيبحر المركب التي ستقلنا عبر بحيرة ناصر. معرفة وقت كل شيء أمر مهم عند الإنسان الغربي، غير أن الناس في الشرق كانوا يتوصلون إلى حل لذلك من خلال الخيال والصبر. كنا نعرف أنها سوف تقلع عندما يكتمل عدد الركاب مثلها مثل سيارات الأجرة؛ وعلى هذا فقد قصدنا المركب بعد منتصف النهار خوفاً من عودة بير التفكير في البقاء وانتظار شنطته التي فقدها؛ فلو انتظرنا أكثر فقدنا الرحلة الوحيدة الأسبوعية. كنت أعيره جلاليبي وبعض الملابس الداخلية وبنطلون كاجوال. غير أنه كان يحمل الكثير من الألوان والأوراق في شنط صغيرة وكذلك بعض الأدوات الأخرى الأمر الذي جعله يهدأ رغم عدم وجود توقيت محدد وبرنامج واضح؛ وهذا أمر لم يتوفر في المشرق أبداً فالإنسان هنا يترك نفسه على حسب ما تشاء الأقدار. أبحرت المركب حوالي الخامسة وهي تقطر صندلاً محملاً بالصناديق والسجاد.

كان المركب ممتلئاً عن آخره، فمع بداية شهر رمضان يعود الكثيرون إلى منازلهم؛ هناك شباب كثيرون منتشرون على ظهر المركب، يرقدون على البطاطين والحصر ليقضوا ليلهم في ضوء النجوم، هم خليط، فمنهم طلاب من القاهرة ودمشق ومنهم العمال من أسوان ومنهم المدرسون وتجار الجمال. أما

الأمر فمقر إقامتها هو الكباتن، وبمناسبة الحديث عن الكباتن أقول إن الكابينة الخاصة بنا كانت ملاذاً صغيراً ونظيفاً ومرتباً وبه سريرين ونافذة مستديرة أرى من خلالها ما بقي من النوبة وأنا مضجع على المخدة، أما خارج الكابينة فلم يكن إلا الطرقات وظهر المركب الذي يعج بالناس، ودورات مياه كريهة الرائحة وغير جيدة الصرف الصحي، وصراع على تناول الطعام. كان طاقم المركب يعرف يحيى وبالتالي كان استقباله لنا بحفاوة بالغة؛ كنا نصعد إلى ظهر المركب ونتزل ونتسامر ثم نلتقي في الكابينة لنرتاح بعض الشيء.

كانت المركب تمخر عباب مياه تلك البحيرة التي تمتد على طول خمسمائة كيلو متر، إنها بحيرة ناصر، بمياهها التي أسرت النوبة السفلى وغطتها؛ أخذت الشطآن تتباعد، ثم استقرت بعد ذلك مسافة البعد عنها ولكنها كانت مرئية. مياه زرقاء تحت سماء صافية؛ أما الشطآن فهي منخفضة ومعتمة اللون وذات قمم جبلية وجزر. ولا تلمح أي شجرة في المشهد العام. وسرعان ما حل الظلام وكسا السواد البحيرة؛ غير أن القمر أخذ في الظهور وأضاء ظلمة الليل، وأضفى ظلاله المائلة للزرقة على كافة ما تحته فأصبحت الأشكال كأنها بلا وزن، لم تكن هناك أمواج، فكان المركب ينساب على صفحة كأنها سجادة فضية اللون، وكان انعكاس ضوء القمر هو الدليل الوحيد على أن المركب يواصل مساره؛ أخذت رياح باردة تسوط وجوهنا، بينما تكتشف أعيننا وهي تصف مغمضة الشطآن السوداء التي نمر بها في صمت كامل.

أفصح ضوء الصباح الأبيض والبارد عن المشهد الذي يضم الصخور المطلة على بحيرة ناصر؛ هناك قمم هضاب وجبال النوبة القديمة، ذلك أن المجرى الأصلي للنهر يقع تحت المركب بعمق مائتي متر. وفي هذا العمق أيضاً تركنا التاريخ وأخذنا نعبر تلك الأراضي الحدودية دون أن نعير الأمر انتباهاً؛ وأبرز أحداثه عملية بناء السد العالي في أسوان على زمن ناصر، وبعدها اختفت هذه

الأراضي للأبد، وبدأ نزوح النوبيين المأساوي عام 1964م، حيث أجبر مائة وعشرون ألفاً على النزوح إما إلى مصر أو السودان، وأصبحت خمسين قرية مصرية تحت المياه، وتقطعت السبل بالسكان، فابتعد آلاف النوبيين عن النيل وعن أعمالهم اليومية وغابات النخيل ومنازلها ذات الواجهات الرائعة.

إنه التاريخ الأكثر قدماً، تاريخ إنسان ما قبل التاريخ الذي سار مع النيل وخرج من أفريقيا، هو تاريخ ممالك النوبة الأولى مثل واوات وإيرتجت Irtjet وساتجو Satju ؛ وثقافة تاسيتي أو "أرض القوس" والتماثيل المصرية العملاقة على عصر الفراعنة؛ وثقافة واوات وميام وتحكحت Tehkhet وأقداس الأقداس لآلهة مصر في عصر الدولة الحديثة، ومعابد البطالمة المنتشرة على شطآن النيل، وبلدة أكين التابعة للمرويين؛ وإقليم Dodecaschoenus الحدودي أيام الرومان ونوبلديا النوبيين العيمويين، وممالك نوباديا وماكوريا وماريس المسيحية والإمارات الإسلامية ونوبة كنوز Kunus . غاص هذا الكون الثقافي كله في طمي الأعماق وأصبح كومة؛ ويستثني من كل هذا المعابد الكبرى التي كان يخبو نورها وتم انتزاعها من جذورها. أُنقذت، وهذا هو ما بقي من تاريخ امتد لقرون، وضاعت أغلب مكوناته تحت مياه البحيرة.

عند المساء، وبعد أن عبرنا إلى جوار شباك لصيادين أتوا من السودان ليمكثوا هنا شهوراً، تم تجاوز العوامات التي تدل على منطقة الحدود. أخذنا ندخل الجزء السوداني من البحيرة، البحيرة النوبية، وهي بحيرة أقل اتساعاً وأكثر صخوراً وجبالاً، وكأنها بذلك تعلن عن قرب الالتقاء بمرتفعات وادي حلفا، في منطقة الحدود الأبدية بين مصر والسودان. هناك، في المنطقة، ظهرت أوليات المجموعات البشرية في وادي النيل منذ ما يقرب من مائة ألف عام، وهناك عاشت ونمت العديد من حضارات ما قبل التاريخ، وكان الكثير منها يرجع لعصور الأزمات وكأن وادي حلفا كان الملاذ الدائم.

واصلنا إبحارنا حتى أصاب المركب نوع من الجنوح أمام سهل واسع ومقفر؛ كأنه خلاء مهجور يقع بين جبلين صغيرين لا نبات فيهما ، هناك بعض الوهاد البيضاء التي تبدو لأول وهلة وكأنها موقع حربي؛ تبدو المنازل الصغيرة للقرية عن بعد، وهذا هو ما بقي من مدينة وادي حلفا الحدودية بما كان لها من تاريخ قديم وحياة مرحة، حيث كانت منازلها في قديم الزمان تطل على النيل وقد اكتست باللون الأبيض، وتوّج النخيل طرقاتها الواسعة التي كانت تحف بها بعض المنارات وقباب الكنائس؛ تحولت الحوائط إلى طين وغرقت غابات النخيل دون أن تدري السبب في ذلك. وأجبر ارتفاع المياه في البحيرة وانخفاض المنسوب أحياناً السكان على إقامة منازلهم أكثر من خمس مرات بعد أن يكون المنسوب قد ارتفع وقضى على ما تم بناؤه.

أرخى الليل سدوله بينما نقوم بالمرور بالإجراءات الجمركية الطويلة، غير أننا كنا ملتزمين ولم يكن هناك أي خروج على النظام المعتاد؛ لفنا الظلام في سيارة نقل جماعي قطعت بنا الوادي الرطب وحلت بنا تحت اللمبة الوحيدة المضاءة، نحن أمام فندق النيل، أفضل ما في البلدة. كانت غرفاته مشغولة لكن كانت هناك غرف خالية من العنابر الخشبية، فالناس كانوا ينامون في صحن الفندق، وانتشرت الأسرّة على الرمال؛ كان البعض يتحدثون مع بعضهم يلفهم نور خافت وهم في أسرّتهم. كانت أذرعهم النحيفة وأصابعهم الطويلة تذكرنا بالنقوش البارزة والغائرة في تل العمارنة. كانت الخدمات عبارة عن بطاطين سميكة غير طيبة الرائحة، ومراحيض وأنشاش ذات طشت وناموس وشخير. يمكن أن يغط المرء في نوم عميق في مكان يؤمه من يشرفون على قوافل الجمال!!

وأثناء ذلك كنا، في وادي حلفا، نحن الأصدقاء الثلاثة، في منطقة الحدود المصرية السودانية، بعد رحلة في البحيرة استغرقت أربعة وعشرين ساعة،

أخذنا نبحث في منتصف الليل عن طعام؛ والحمد لله أن يحيى كان يفهم لهجة النوبيين الحلفاويين والفاديشا، وهي لهجة تشبه لهجة قومه، لهجة الكنوز Kunus . هناك كشك خلف حائط من الطوب اللبن، يقدم السمك المقلي، يلف الجو إيقاع موسيقي يدخل إلى الوجدان. جلسنا يحيط بنا ركاب المركب في غدوهم ورواحهم، قامات تتبدى ثم تختفي وقد لفها الظلام والعدم. وفجأة، شعرنا بما ينقص الليل في السودان؛ إنه العنصر الأفضل، الموسيقى، والشاي المخصوص، والدردشة في ظل الهواء الدافيء؛ لكن ينقص أيضاً قعقعة قطع الدومينو والطاولة ورائحة تبغ الشيشة الرطب في المقاهي المصرية.

كانت خطواتنا تتجه صوب الجنوب، نحو مروى التي ضاعت، أخذنا نسير على هدى الرحالة أو المكتشفين القدامى الذين ركبوا النيل مثلنا. كانت مروى في نهاية نفق الزمان، وللوصول إليها كان علينا أيضاً أن نعبر التاريخ السوداني كله، راحلين من الشمال إلى الجنوب، ابتداء من العصر الحجري الحديث ومروراً بالعصر الفرعوني، قوش ونباتة، قبل الوصول إلى هدفنا المنشود؛ كان مسارنا موازياً للنيل؛ كان ذلك التاريخ كأنه بساط مكون من مراحل؛ وهي مراحل تتمايز عن بعضها بالقوة والازدهار كما تكسوها جميعاً مسحة من الأسطورية وأخذت تنتقل مع القرون نحو الجنوب بحثاً عن أفضل دفاعاتها ألا وهو البعد. كانت مروى هي الثمرة الضخمة لهذه المراحل بثقافتها ونقوشها الكتابية الخاصة بها، وكانت خطواتنا دائبة البحث عنها.

كانت مروى حلماً، وغاية محاطة بالإبهار والغموض، لكنها كانت بعيدة، بقيت أمامنا أيام طويلة لبلوغها. قمت من جانبي بتحديد بعض النقاط المهمة على الخريطة اعتماداً على قراءاتي: ها هي دنقلة العاصمة القديمة للنوبة العليا، تقع بين الجندلين الثالث والرابع، حيث يمكن لنا أن نمر بكل من كرمة ومملكة قوش القديمة، الأسطورية كأنها مروى، وأقدم حضارة في السودان؛ وكلما توغلنا

صوب الجنوب، وجدنا إلى جوار الجندل الرابع كريمة وجبل برقل، "الجبل المقدس" حيث نباتة العاصمة التالية لمملكة قوش، مدينة الفرعون طهارقا. ثم تطل علينا شندي صوب الجنوب، بين الجندلين الخامس والسادس، إلى جوار مروى الأسطورية؛ ويتوج كل هذا العاصمة الخرطوم حيث يلتقي النيلين الأزرق والأبيض. كان النهر يربط بين كافة هذه المناطق التي حددناها على خرائطنا الصغيرة، نقاط صغيرة ومتجاورة تكاد تلاصق النيل، ولم نكن نعرف حتى ذلك الحين أن هناك مسافات بين الواحدة والأخرى تقاس ليس فقط بالساعات الطوال بل بالأيام.

وكعادة المكتشفين القدامى، كنا نفتقد للوسائل اللازمة لوضع تلك النقاط على خريطة السودان الضخمة؛ غير أن أحداً منا لم يبد رغبته في ذلك أو في برامج وخرائط لهذا البلد، فعلى رأي رُبّان المركب، عبرنا بحيرة ناصر على هدى النجوم، ويمكن أن نفعل الشيء نفسه في سفرنا إلى السودان، بأن نسأل الرعاة القلائل الذين نجدهم بين الكثبان، أو ننظر في القبة السماوية ومط السهول التي تبدو بلا نهاية.

كانت دنقلة المحطة الأولى، لكن أين كانت؟ إنها بين الجندلين الثالث والرابع، وهذه هي الحقيقة المؤكدة عندنا. والمعلومة الوحيدة عندي أخذتها من وصف الرّحالة الفرنسي ف. كايو F. Cailliaud في كتابه "رحلة إلى مروى والنيل الأبيض" (1827م). وأصبحت المعضلة الأولى التي نواجهها البحث عن مدينة مفقودة. لم تكن معنا خرائط أو كتب لتحديدها، ولم يكن هناك أيضاً أي مؤشر عليها؛ غير أننا نعرف، بطريقة غامضة، أن النيل قديماً كان يجري في بلد به جبال وصحراوات ونخيل، في أماكن يصعب على الإنسان معرفة الكيفية التي يجري عليها؛ لم تكن هناك طرق مرصوفة أو غير مرصوفة، وهذا ما قيل لنا وما تأكدنا منه لاحقاً اللهم إلا دروب في الصحراء وعدم دقة في تحديد ساعات السفر ومراحل

الرحلة التي تعد بالأيام الطوال، حتى نصل إلى مكان ثم ننتقل إلى آخر. أصبحت السودان في أعيننا لغزاً كبيراً ومعضلة عليها ألف إجابة وإجابة.

كان بير يتصرف بغرابة تتجاوز ما هو معتاد في مثل هذه المواقف؛ قرر فجأة واستمر في هذا حتى النهاية، أن يتوجه بالسؤال لكل سوداني باللغة الأسبانية، وكأنه أخطأ الرحلة وأنه في أمريكا الوسطى، واتخذ مع الناس المنهج الإنجليزي الذي كان يكرهه؛ أضف إلى هذا، بدا وكأنه يصارع مفاهيمه وخيالاته ويغضب للتفاهات وضاق صدره وفقد ثقته وأخذ يشعر بأنه ضحية لشيء ما أو أنه تعرض للعدوان؛ كان كل شيء يجعله يفقد صبره؛ وبدأت حالة التوتر مع يحيى، وسرعان ما شاب التوتر علاقته بي.

كانت هناك لحظة مأساوية، هي درجة كبيرة من اللايقين، تتمثل في الرغبة في أن تتتابع الأحداث على شاكلة ما هو قائم في مدينة أوربية، وكأن صورة العالم موضوعة سلفاً؛ كان صاحبنا قد جمع كماً من المعلومات المتنوعة والكثيرة عن السودان من خلال شبكة الإنترنت، ولكن ذلك الذي جمعه ليطمئن ما زاده إلا خوفاً عميقاً؛ ورغم ما جمع من أوراق لا جدوى منها بدا وكأنه فقد الاستمتاع بالرحلة بسبب استحالة تواؤم برنامجه مع الواقع، فهو واقع غير مألوف ومختلف كثيراً عما صوره آخرون دون أن يتمتعوا بالحساسية والإدراك لطبيعة السودان.

كانت الرحلة هي الطريق، فيلم تدور أحداثه بما نخطوه فيه، نتحول أحياناً إلى أبطاله، وأحياناً أخرى نصبح مجرد كومبارس. وحتى يعرف المرء بلداً مختلفاً عليه أن يسبر أغواره، وأن يشارك وأن يترك بصمة، أي أن يدخل مسامك وتأكل وتعيش مثل أهله، وأن تجلس وتتسامر ولو ببضع كلمات أو بالإشارة. والأمر الجوهري هو ألا تشعر أبداً بأنك أعلى من الآخر فأنت الذي تتعلم وأنت على سفر.

اتسم كل شيء بالغرابة رغم أنه معروف سلفاً، فهناك الارتجال والمتاعب والحرّ والصبر والحوار الذي لا ينتهي والفصال والابتسامات والتربيت على الكتف الأيسر، كأنه عناق، والنظرات الودودة والمباشرة؛ ورويداً رويداً سوف نكتشف الأكثر إثارة، إنه الكرم والعطاء بلا حدود والاستقاء والعذوبة والكبرياء والسعادة. هناك جمال هذا البلد. فالنساء عيونهن عيون نمها وذقون ممتدة وقامات ناعمة ولطيفة، غطتها من أخمص القدم إلى أعلى الرأس ألوان زاهية كاشفات الوجه، أما الرجال فالعمامة البيضاء والوجوه المنحوتة والأيادي الطويلة النحيفة. إنه عالم رسا على شاطئ الزمن، لكنه ينبض بالحيوية، عالم تكسوه مسحة من الحزن، مجبر على العزلة، والتأثر بتقلبات السياسة، إيقاعه عتيق، وحاجته ماسة لكنه يتحمل كل ذلك مستكيناً وصابراً على طريقة الرواقيين وهدوء داخلي في العيون إنه المكتوب! المكتوب على الجبين!

ضمت رحلة المركب أيضاً أربعة آخرين من الأوربيين منهم ثلاثة من الشبان الإنجليز الذين لم يلقوا إلينا بالتحية، وامرأة هولندية كبيرة وشجاعة ومفعمة بالحيوية؛ كانت تتنقل في أرجاء المركب وحدها، تريد جمع حكايات نوبية. وفي اليوم الأول من تواجدنا في وادي حلفا ركب الثلاثة الأول قطاراً متجهاً إلى الخرطوم مباشرة حيث يصل إليها بعد ثلاثة أيام، ولن يعود القطار إلا في الأسبوع القادم؛ أما المرأة، عالمة الأنثربولوجيا، فقد انضمت إلى يحيى، الذي كانت تعرفه من أسوان، عندما أدركت أنه يقوم بالتوصل إلى تبسيط الإجراءات مع رجال الأمن ويعرف أماكن تغيير العملة. كانت بها مسحة من أهل بروسيا وكانت تسير على برنامج وضعته لنفسها. وبالنسبة لها انتهت الإجراءات الخاصة بالدخول وكانت أول من قام بتغيير ما لديها من عملة في السوق السوداء التي تتسم بالتقلب والندرة في هذه المدينة، وهو ما تحدثنا عنه في الليلة السابقة مع واحد وعد بالقيام بالأمر. لم تنبس ببنت شفه جريا على عادلتنا اللاتينية وعلى آدابنا وأصبح موقفنا صعباً ودون تغيير عملة.

جاءت مي في الموعد المحدد يصحبها مدرس نوبي، صديقها، كان يعيش على بعد خمسة كيلو مترات، وتركتنا في حيرة، حيث أخذنا نبحث عن عملة محلية في وادي حلفا دون أن نفلح كثيراً؛ وبمجرد عودة المركب إلى مصر، لم يعد أحد يريد عملة مصرية كانت لدى بير بوفرة، كما كانوا يمتنعون عن قبول اليورو وهي العملة الوحيدة معي. استطعنا تغيير بعض المال، وأخذنا تقلل من نفقاتنا إلى أقصى حد، في بداية الرحلة، وهذا ظرف غير ملائم أحدث تأثيره على جزء من النشاط. وكان العزاء الوحيد هو أننا رأينا عالمة الأنثربولوجيا تذهب إلى موعدها وقد ركبت عربة كارّو يجرها حمار تحت شمس تلهب الظهور، فلم يكن هناك تاكسي.

قمنا بتحيتها مبتسمين ونحن جالسين في ظل خيمة Chamya نتناول المرطبات؛ بقي القليل منا، معشر الأجانب، وكان من الصعب مغادرة المكان. خلّفت ورائي أحلامي التي لم أبح بها، الوصول إلى "بلايا نبتا" على ما يزيد على مائة كيلو متر صوب الشمال الغربي، وسط الصحراء، لمشاهدة أول مرقب للنجوم في العالم. إنها كتل حجرية مثبتة في الأرض، على مدار السرطان، أي في مكان يكاد المرء فيه أن يفقد ظله. في النوبة، ظهر أوائل علماء الفلك في العالم، والآلهة الكونية. هناك أيضاً ظهرت أولى الثقافات الكبرى، منذ ثمانية آلاف سنة، إنها اللحظات الأولى التي عاشها وادي النيل، وربما الدنيا بأسرها.

حاولنا الخروج، قبل أن نقضي سبعة أيام قابعين في المكان، وما استطعنا فعله هو الاتصال بواحد يعتبر كثير الكلام، قرصان حقيقي، يبدو جاداً للغاية، لكنه كان يراقبنا عن كثب ويعرف ما في جيوبنا من أوراق العملة، فالعملة المحلية، الدينار، كانت تعد بالملايين. كان علي استعداد لاستنزافنا بعض الشيء بأن قدّم لنا الجزء الخلفي (الصندوق) لسيارة نصف نقل تويوتا بسعر مبالغ فيه، إذ كانت وسيلة النقل الوحيدة الباقية، سوف يحملنا إلى نقطة، على بعد ست

ساعات، في طريق جيد، حسب قوله. انتابتني حالة من الاستنفار عندما قال ذلك وتأكدت من كذبه، غير أنه كان المخرج الوحيد أمامنا، وقبلنا الخروج من المكان في ذلك المساء نفسه. وما بقي هناك من وسائل النقل بعض سيارات النقل الجماعي وسيارات النقل المكتظة بالمسافرين.

توجهت عالمة الأنثربولوجيا، التي تصل دائماً في موعدها، لنا بالرجاء لنحملها إلى منزل صديقها ودعتنا لتناول إفطار رمضان في ذلك اليوم. كانت تعيش في القرية النوبية الجديدة، بعيداً عن السهل، ذات المساكن الطينية المتواضعة، بلون الأرض، تقبع بين أشجار السنط الممتدة. كان كل شيء من الطوب اللبن، الدعامات والجدران وكذلك الأشكال الزخرفية للأبواب. استقبلنا البروفسور محمد طاهر وزوجه الظريفة في صحن المنزل المسقوف جزئياً وذي السقف الذي يقوم على دعامتين؛ وبينما كانوا يقومون بإعداد الطعام ووضعه على المائدة أتى إليَّ بكتاب ووضعه إلى جانبي كأنه كنز ثمين. "الشتات النوبي" هذا هو العنوان، تأليف البروفسور حسن ضيف الله.

إنها نسخة جميلة نفدت من الأسواق؛ يتحدث الكتاب عن الشتات النوبي الدرامي، أمام زحف مياه البحيرة الضخمة على قرى ومدن النوبة، ومن بينها وادي حلفا؛ يضم الكتاب صوراً قديمة للمدينة الجميلة وأطلالها، وللمياه وهي تغمر كل شيء والأسوار التي تتهاوى أمام زحف المياه. ظلت مئذنة تقاوم المياه وتعلو عن سطحها وكأنها صرخة صامتة خرجت من فم المدينة الغارقة. في إحدى لوكاندات البلدة نجد المئذنة مرسومة فوق سطح المياه، في الدهليز، وهذا دليل على أن القلوب لازالت معلقة بذلك الجرح. كانت الرطوبة تعم البلدة، بالقرب من البحيرة يبدو طعم كل شيء كأنه طمي حائط تهاوى؛ كانت المأساة تخيم على المكان. عاد البعض ولا يريد أن ينسى ما حدث. أتى آخرون جدد، لكن المدينة الشبح ظلت قابعة تحت المياه.

أثناء تناول الطعام على المائدة العامرة، وبينما نرتشف عصير ليمون لذيذ حثنا البروفسور على التخلي عن خطتنا في الرحيل هذا المساء وأن نرحل في اليوم التالي، حيث يرافقنا، وصديق معه الكاتبة في سيارة أفضل. المقصد هو دنقلة كما نريد، قبلنا وانتظرنا، ومع هذا فعند حلول المساء لم يقدموا لنا إلا سيارات قديمة ذات مقعد واحد في المقدمة، أما الخلفية فهي في الهواء الطلق، وهو الشيء الذي رفضناه قبل ذلك؛ تضاعف عددها الآن. في نهاية المطاف، أخذنا نبحث عن سيارة في منتصف الليل، وقد أخذ الأمل يخبو؛ وجدنا، صدفة، سيارة جيب في العراء. هل تؤجرها؟ هل أنت ذاهب إلى دنقلة؟ إلى أي مكان تريد. سنرحل غداً صباحاً!

في تلك الليلة، في الظلام، اقترب مني أحدهم وقال لي إن لديه شيء. أخرج من جيبه تعويذتين صغيرتين من الحجر؛ لم أعره اهتماماً حتى قال لي إن إحداها تتحرك بمفردها إذا ما وضعنا فوقها بضع نقاط من عصير الليمون؛ بدا لي أن هذه الكلمات قيلت قبل ذلك، طرت للخلف، لعشر سنوات مضت أو يزيد، وتذكرت ليلة في جزيرة على نيل مصر، حيث كان بعض أصدقائي من النوبيين يشرحون لي بعض قصص بلداتهم؛ قالوا لي: تحتفظ أسرنا ببعض التعويذات المصرية الفرعونية يداوون بها لدغات العقارب. وأخذت الأسر تتناقلها من جيل لآخر، وعندما يوضع فوقها بعض الليمون تتحرك وحدها فوق الرمال، أردت أن أرى الوضع لكنهم لم يعطوني الفرصة.

كانت كلمات ذلك الرجل في تلك الليلة السودانية انعكاساً طريفاً، ربما كانت تحية. أخذت أفكر في إيموحتب، وفي أسرار العلاج الأثيري eterica . وهمس سائلاً ما الذي نبحث عنه في النوبة؟ فأجبت: أبحث عن سرّ. فرد بقوله: خذ هذا وسوف يساعدك على معرفة السرّ. وضع في يدي التعويذة الأكثر تهالكاً واختفى في خضم الظلام. وضعت بندولي على التعويذة القديمة.

أخذ البندول يدور ويدور، كانت التعويذة الصغيرة تصدر إشعاعاً كثيفاً، فوق البنفسجي.

- كان بير قد أعطى كل ما معه من عملة مصرية ليحيى ليقوم بإنفاقها؛ كانت هناك جلسات محاسبة، حيث يحاول يحيى تعليل النفقات بينما يعترض عليه بير على طول الخط. خرجنا لنتسم بعض الرطوبة، وجلسنا هنيهة. التقينا بعالمة الأنثربولوجيا؛ طلبنا جميعاً الشاي والمرطبات؛ غضب يحيى في تلك الليلة من جرّاء كلمات صدرت من بير، علا الصوت لدرجة الصياح؛ كان يطلب منه عدم التدخل، فهو من يقود الفريق؛ لا يريد أن يعرف شيئاً عن النقود، وليقم كلانا بالتصرف؛ فقد فاض الكيل به من كثرة الأرقام. التزمت الصمت، كان المال الذي معنا محفوظاً في جيب في رجل البنطلون الذي أرتديه، وكان الجيب بمثابة البنك طوال الرحلة. والأدهى، أنني لم أخلع البنطلون ولو كنت نائماً.

عندنا، في الصباح، لنرى السيارة التي ركنت أمام باب الفندق؛ وما رآه خيالي كسيارة جديدة ورائعة، لم يكن في واقع الأمر إلا سيارة جيب قديمة ومتهالكة، وبداخلها تنك البنزين في جركن كبير من البلاستيك المتسخ. غير أن ما به هو دكتين ومقعد يصلحان لنا جميعاً. كان القطار قد رحل، ولم يتبق في وادي حلفا إلا القليل من المسافرين، إضافة إلى سائقي النقل الذين يسافرون لأيام، دون راحة، حتى يبلغوا دنقلة والخرطوم؛ قمنا بجولة وصلنا فيها إلى البحيرة النوبية التي تبدو حزينة، وعرجنا على السوق، أخذت أقوم بعملي كمصور مستخدماً كاميرا صغيرة، لا يحدوني إلا القليل من الأمل، يمكن أن يحرق الضوء تلك الصور. غير أن الأمر لم يكن على هذا الوضع، استغربت كثيراً حين ظهرت الصور رائعة.

كان بير يسير دوماً وهو يحمل شنطة كبيرة من البلاستيك، بها كافة أدوات عمله، وزجاجة كبيرة من المياه، والبسكويت وبعض ثمار الفاكهة. كان

يشرب كلما تمكن من ذلك ويشعل سيجارة ويأكل بتعجل يزيد عن المعهود، يعيش شيئاً من الهوس؛ قلت له، لو كنت مكانك لما فعلت هذا على الملأ، احتراماً لهؤلاء الذين يحيطون بنا، وبين الفينة والأخرى كنت أتناول رشفة من الماء. وباستثناء الإفطار - الشاي وقطعتي بسكويت - كنت أحترم مشاعر الصائمين، إذ كنت أعرف، من خلال إقامتي في القاهرة، أنه إذا لم يَصُمْ المرء فلن يعرف معنى صيام رمضان. فإذا ما كنت تأكل وتشرب فلن تفهم شيئاً؛ ما لم أكن أعرفه حتى تلك اللحظة هو أن بير تعرض لموقف إلى جوار مسجد، بالقرب من الجيزة، ونهره الناس لأن دخان السجائر يجعلهم يفطرون دون قصد. لا يبدو أن ذلك الأمر كان يهمه كثيراً، واصل ما يفعل حتى نهاية المغامرة التي نقوم بها.

لهذا كان بير يبتعد عن الناس الذين يتحملون بإيمان وصبر هذه التجربة، تجربة الصوم في هذا القيظ، مثل يحيى، وكأنها تضحية جماعية تقرب إلى الله كل عام. لم يكن لرمضان معنى بدون أن تشعر به في عقلك وتأثيره في جسدك، والهزال خلال الأيام الأولى، والعصبية التي تنتاب المرء قبل الإفطار بساعات، وانعدام القدرة الجسدية بعد بذل الجهد المستمر والضعف والسكينة الداخلية التي تنبع من هذا التقرّب. يتم كسر هذا بالغذاء، كان بير يبعد نفسه عن تلك التجربة الجماعية التي نراها بأعيننا؛ هذه الرغبة العقلية - أكثر من مجرد كونها جسدية - في رشفة مياه، في قضمة من الطعام، في تدخين سيجارة، كلها كانت تبعده عن هذه المعايشة وعن مشاعر الناس، حيث يصطدم بشدة بالحالة الهادئة التي عليها الجميع أثناء النهار، مع الإرهاق الشديد، ونداء المعدة والشعور بالغثيان.

قمنا بجولة أخرى، في المساء، في السوق وتزودنا بالمشروبات وغيرها وركبنا السيارة. شحنّاها بالشنط والطعام والصُرر. كنا تسعة: في المقدمة السائق والبروفسور وصديق، ثم عالمة الأنثربولوجيا وثلاثتنا في الخلف إضافة إلى

اثنين من الشباب من الميكانيكيين، هما أخوان يركبان فوق السقف، مع الشنط. أدركنا أن الطريق صعب، لكن لم ندرك أنه إلى هذا الحد.

حل الظلام عندما خرجنا، أخذت أضواء وادي حلفا تخبو رويداً رويداً كلما ابتعدنا عنها، كما أخذ الأثر يضيع كلما ابتعدنا عن أعمدة النور، كنا نسير بسرعة في طريق معبد لعجلات سيارات النقل المتجهة إلى دنقلة. كانت محملة بالبضاعة التي ترتفع بضعة أمتار ومجموعة من الرجال فوق الحمولة. كنا نصعد ونهبط في مقاعدنا من جرّاء المطبات والمرتفعات، كان مشهد الهضاب الصخرية الشديدة الوعورة والمتكسرة يتوه في هواء دافيء ويلفه ضوء القمر، أما الصخور السوداء فتبدو كأنها مارد عملاق، يجلس وسط مشهد متموّج، كان ضوء القمر يضفي على المشهد الثبات وشبه الأسطورية، يشمل ذلك الوديان التي نمر بها، والكتل الجبلية التي تبدو وكأنها غرّت في جنح الظلام؛ مررنا ببعض الطرق المليئة بالمطبات أو الغارقة في الرمال؛ توقفنا عند مقهى من مقاهي الطريق به عشرات من سائقي النقل والمسافرين الذين يجلسون على حصير قديم، الشيشة في الفم والشاي في اليد.

في لحظة معينة خرجنا من الطريق الرئيسي واتجهنا غرباً بحثاً عن مجرى النيل؛ فقدنا الأثر، ولم يعد أمامنا إلا الحصى وكثبان الرمال كانت السيارة تغرق في منحدرات ثم تصعد مرتفعات وترتعش مع الحجارة، تميل بينما تحيط بها كتل سوداء تمر مسرعة تحت ذلك الضوء الغامض الذي نعكس على الرمال. توزعنا داخل السيارة بمعدل ثلاثة في كل كنبة، وكأننا أمام كراسي لتعذيب من زاد عن الحد المطلوب؛ لست أدري لماذا نصرّ على أن يكون رابعنا في الجزء الخلفي يرقد فوق بطانية ومحاط بالشنط والزجاجات والأغذية التي تتقافز في كل مطب ومنحنى، والغاية أن نكون أكثر راحة. نسينا بدرجة ما هذين للميكانيكيين المظلومين. فكرنا في أن ذلك هو التقليد المتبع.

في الثانية فجراً، وبعد ست ساعات من السفر، وصلنا إلى عقبة وهناك توقفنا، كانت الليلة صافية، شهدنا وادياً واسعاً تحيط به المرتفعات في أحد الأطراف، ومفتوحاً من الطرف الآخر، يمتد حتى مجرى النهر الذي يكسوه الظلام، كانت هناك مجموعة من التكوينات الصخرية ترسم شرفات أو مصاطب نازلة وغير منتظمة، وعلى بعد كيلو متر واحد تلوح منازل بلدة كبيرة تغط في نوم عميق، لا نلمح حتى نقطة ضوء. كانت هناك جدران ممتدة مشكلة نماذج تكاد تكون هندسية، تقع على مسافات شبه ثابتة فيما بينها. ساعدنا ضوء القمر على تدلف بعض الشيء إلى كتل من الأحجار المتفرقة، وبعد هنيهة قرعنا على أحد الأبواب. صمْت. أعدنا المحاولة مرتين أخريين. وبعد أن دخلنا، عرفونا بالمنزل الذي كان يبحث عنه البروفيسور، قد واصلنا رحلتنا الليلية. باب آخر، كان هذه المرة باب المنزل الذي كنا نتلمس مكانه.

رحّب بناء أصدقاء البروفيسرو، وهم شبه نائمين، كان الباب يؤدي إلى منزل من المنازل التقليدية في النوبة العليا، هناك صحن كبير يحيط به ما يشبه البائكة الوطنية التي يتكئ سقفها على عقود وتقوم على دعامات ذات لون أبيض. تحتها كان لكل واحد منا سريره ومخدته والبطانية. كان هناك ما يزيد على عشرة. قدموا لنا آخر طعام أعدوه أثناء النهار. استلقيت واستغرقت في حوار بصوت خفيض، لا يكاد النوم يداعب جفوني، كانت عيوني تحاول أن تشرب ذلك الضوء الفضي الذي يتخذ من خلال البوائك.

عندما أصبح الصباح، عرفنا أين نحن. كنا في أكاشا Akasha، بلدة نوبية على شاطئ البحيرة؛ لقد انسحبت القرية الجديدة إلى أعلى بمبعدة عن تقلبات مستوى مياه البحيرة النوبية التي تُرى شطآنها. كان يستعصي على أي مهندس معماري معاصر أن يتخيل بلدة مكتملة التكوين الهندسي، هناك الأبهة والسعة في المساحات، هناك التوازي والغموض الذي يشبه تصميمات المهندس

الأسباني الشهير إيرّيرا Herra ، هناك النسق الأفقي والفراغات التكعيبية الممتدة، والموزعة على المنحدرات، الأمر الذي يجعل المنزل في توائم كامل مع التضاريس الرمادية التي تحيط به، وتناغم مع المشهد العام والفضاء. تتسم المنازل كلها بالبساطة، يكسوها اللون الرمادي يطوقها شريط أبيض في الأركان؛ لتبدو من بعيد وكأنها رسائل ضخمة جرى وضعها فوق الصخور السوداء. مشهد ثابت لا حراك فيه، من البازلت الذي يحيط بالمنازل، به مسحة من المأساة والكثير من الحزن.

هرولنا في الصباح في الصحراء، وأخذنا نتزحلق على المنحدرات وكثبان الرمال والصخور، كنا نتجه صوب النيل، حيث كان بعض الفلاحين يقومون بالعناية بحقولهم التي يظللها النخيل. لم يبد هؤلاء الفلاحين مجموعة من الأغراب دفعة واحدة إلا نادراً، كانوا يبتسمون ويتعاملون معنا بلطف، دلّونا على الطريق، رسموا بعصا بعض الخطوط على الرمال، إنها أول خريطة. كان يتحتم علينا أن نسير في خط مستقيم حتى نصل إلى دائرة. كان هذا كل شيء. كان الهواء المحيط بالمكان يحمل تلك الرائحة النفاذة لأعماق البحيرة. انغلق المكان على نفسه، غزته نباتات طويلة السيقان، جميلة المنظر، تتدلى منها كرات ضخمة ذات لون أخضر قاتم، تبدو خاوية من الداخل؛ تشتهر بأنها سامة، غير أن الفلاحين قالوا لنا إنها تستخدم لعلاج بعض الأوجاع.

وصلنا إلى بلدة أخرى، هي دكا الشرقية، بمنازلها النوبية المبعثرة وسط الرمال، لم تكن على ذلك الجمال السحرّي الذي عليه أكاشا؛ كانت الحوائط تكتسي باللون الأصفر والبني، وحقولها أكثر نضرة وجمالاً، إذ تطل مباشرة على النيل قبل أن تبتلعه مياه البحيرة. وصلنا إلى الشاطئ؛ لنعبر النهر على متن قارب هش، كان المكان قريباً من الجندل الثاني. فالمراكب الجميلة بأشرعتها في النوبة السفلى كانت غير معروفة هنا؛ كان التيار قوياً، وبدا القارب المصنوع

من شرائح معدنية ملحومة إلى بعضها البعض هشاً في نظرنا ونظر المراكبية. بقي السائق والميكانيكيان؛ تزحلقت على الطين بجلابيتي البيضاء، وسرعان ما وجدنا أنفسنا مهددين بتيار شديد يصارعه فتى بمجدافين من خشب غير مهيأ.

وضعت يدي في مياه النيل العظيم، النيل القديم، نيل الفيضانات، وأتاني إحساس غريب، هو أن عمق القرون ينساب بين يدي. إنه النيل الأفريقي، هو النيل نفسه الذي كنا نتأمله في القاهرة ونحن على شطآنه، عندما يتغير لون مياهه. يعلو منسوب مياهه ويصبح لونها مائل للحمرة، تحمل جزراً كبيرة طافية من النباتات، كانت تمر بسرعة. لقد انتزعها النيل الكبير من مناطق بعيدة، معلناً بذلك بدء الفيضان، وبذلك تتصل مباشرة بقلب أفريقيا.

استطعنا أن نصل إلى الشاطئ الآخر رغم كل شيء، وقفزنا وسط نباتات منتشرة بين أطلال حصن صغير؛ يطلقون عليه دكا الغربية؛ هي عبارة عن بلدة نائية، كانت أول قرية نوبية قديمة وجدناها، تقع في واد صغير، تتأمل النهر، تسيطر مبانيها المنتشرة على مصاطب متدرجة، على الحقول الخضراء المحيطة بالشطآن. النخيل يكسو كل مكان؛ استقبلنا مدرس آخر صديق للبروفيسور الذي يرافقنا، وأحد أقرباء يحيى من بعيد، دعانا إلى منزله. على مدخل المنزل هناك رأس تمساح الأمر الذي يذكرنا بطول التعايش بين النيل وأهل النوبة. كان للصحن الداخلي عبارة عن صخور سوداء وبوائك غير منتظمة وكثيرة الأمر الذي أضفى عليها طابع القدم.

عرجنا على الحصن الذي يقال عنه أنه المكان الذي شيدت فيه أول كنيسة مسيحية في النوبة، ومن هناك كان المكان يطل على الحقول وبها بعض الفلاحين، وعلى النيل والمنازل. هكذا كانت النوبة القديمة، وكانت تلك الأرض، الفردوس عند أهل النوبة، كان صورة النخيل والحقول والمنازل تنعكس على صفحة النيل، معزولة لكن لديها مؤونتها، هناك عمارة المكعبات والأرض

البيضاء alberos والل‍ونان الرمادي والأبيض على الحوائط، لم تكن هناك رسوم، كان كل شيء يتسم بالبساطة الهندسية. كانت الواجهات فقط هي التي تضم أنماطاً مختلفة من الطوب اللبن.

عندما رجعنا إلى النيل، ألقى يحيى بنفسه في المياه، وسرنا على هديه كل منا نحن الثلاثة، البروفسور والمراكبي وأنا. كنت أرتدي لباساً داخلياً ذا لون أبيض يميل إلى الوردية عندما يكون بجوار هذه الكتل السوداء، ونزلت حتى وصلت المياه إلى ركبتي في طين الشاطئ، كان تيار المياه رطباً ومفعماً بالحيوية؛ فكرت في التماسيح هنيهة، غير أن الجسد انصاع لمياه النيل القديمة، كنت أرقص في هذه المياه المعتمة التي تنساب بين ذراعي.

أخذنا القارب لنصل إلى الشاطئ الآخر. تمكن يحيى في نهاية المطاف من العثور على المرأة التي كان يبحث عنها، وهي من عائلة صهره وابنة قريبه؛ كانت قد تزوجت منذ عشرين عاماً ولم تعد أبداً إلى مصر ولم تر أحداً من أفراد أسرتها. دلف يحيى إلى منزلها، وقد أحاطت به صيحات الفرح. مكثنا فترة طويلة ننتظر. ثم خرج علينا في النهاية وقد أحاطت به ثلة من النساء والأطفال يطالبونه بالبقاء معهم. كانت أول مرة يرى فيها أحدهما الآخر بعد مرور سنوات عديدة. إنها كل الأخبار وكافة الذكريات، هذه نتفة من النوبة، نتفة عودة اللقاء.

كان يحيى يود لو بقي، والاستمتاع بتلك اللحظات التي تحول فيها إلى ساعي البريد بين عالمين منفصلين؛ وحدّ بوجوده النوبتين اللتين كانتا منفصلتين حتى ذلك الحين واكتشف أن هؤلاء الناس كانوا جزءاً من قبائله التي تتحدث لغات متشابهة، إنهم هم. هذا اليقين لم يكن بالمتوقع، فمن ناحية هناك الكثير الذين يتحدثون عن النوبة السودانية في مصر إلا أن القليل منهم سافر إلى هناك. كانت النوبة العليا مجرد ذكرى غير واضحة الملامح في ذاكرة أهل سهيل وإليفانتين وأسوان ودراو وكوم أمبو.

أضف إلى ما سبق، أن القليل من أهل النوبة في السودان كان يظن أن يحيى هو واحد منهم، كما لم يروا أبداً أي نوبي مصري يشبههم كثيراً. كان يحيى يتعرف على نفسه فيهم ويكتشف أن النوبة هي نفسها سواء العليا أو السفلى. هذا الاكتشاف جعله يعيش الحيرة، وكان يريد أن يتمثل الأمر داخلياً بتؤدة. لم يكن هناك وقت، رأيته حزيناً ومستغرقاً في التفكير، ترتسم على وجهه بعض سمات الحسرة. كان هذا الموقف هو أحد الأسباب القوية التي دفعته للقيام بهذه الرحلة، عودة اللقاء مع النوبة التي كثيراً ما تخيلها، إنها نوبة الصبا وبلدان النوبة المصرية قبل حلول الكارثة، هي النوبة التي عاد لاكتشافها من جديد وهو يعيش حالة الاستغراب عندما اكتشفها في النوبة السودانية.

تلا ذلك مباشرة رحيلنا تحت شمس حارقة لمدة عشر ساعات مررنا فيها بالصحراوات القاحلة والموحشة التي لا تدانيها أية صحراوات في الدنيا في هذا. كان قدماء النوبيين يطلقون عليها "كتين تو Kidin tu" أي "بطن الصخور" أو "بطن الحجر" عند العرب. تكسرت قشرة الأرض منذ زمن، وأطلقت حممها، صخوراً بركانية وأحجاراً سوداء، إنها ندبة مفتوحة لم تستطع الرمال أن تغطيها رغم مرور آلاف السنين؛ كتل من الصخور، والهضاب ذات القمم المدببة وملايين كتل الحجارة ومنخفضات وقطع من البازلت في كل مكان. كان كل شيء يوحي بوجود احتفالية فظيعة، الجمال فيه قوي؛ كان الضوء الرهيب يبدو وكأنه ينزل بشكل رأسي على الرمال البيضاء التي تعمي الأبصار. وفي الغروب يكتسي كل شيء باللون الأحمر ويتحول إلى جمرات. كان الأفق شاهداً على عصر تلك الهزة الكونية، التي اختطت لنفسها طريقاً مقفراً وسط النيل، وفصلت السودان عن مصر إلى الأبد، من خلال قطاع من الصخور والتي تحول دون مرور مياه النهر. النوبيون فقط هم الذين استطاعوا أن يتأقلموا على تلك الأرض المأساوية بالبقاء إلى جوار النهر في هذه الصحراء، واستطاعوا زراعة مساحات من الأرض بالنباتات والنخيل.

كانت الموسيقى رائعة، تملأ جنبات السيارة بهذا النغم الإيقاعي السوداني "سلام، سلام، ويتناغم مع الإيقاع الكورس النسائي، مع صوت المغني الشعبي متقطع الصوت، لكنه يكاد يكون غير واقعي، ويصعب تحديد ما إذا كان نسوياً أم صوت رجل، مع إيقاعات مكتومة وأخرى عميقة ورنانة. لم يكن هناك إلا شريطا كاسيت، وعندما يتكرر الشريط عشرات المرات يتحول إلى شيء مهيمن mantra، فأحياناً يتحرك الجسد كله وأحياناً أخرى لا تتحرك إلا الأيدي والأقدام، فمن خلال الموسيقى، يصبح المشهد المحيط أكثر إنسانية، ونراه بشكل آخر حيث تتراقص الصخور والهضاب وأشجار النخيل القليلة على تلك الإيقاعات التي تتحدث عن عشق نوبي وعن الأفيال والكفاح والعدل، هواؤها عميق الأفريقية وعلى وقعها كنا نسير شبه منوّمين.

جعلت الموسيقى كل شيء ممكناً وجميلاً، تقي من أية مخاطر، يبدو أنها تدفعنا إلى إيقاع القفزات، تختلط بالرياح وتعطينا اليقين بأننا نتقدم بسرعة كبيرة، نحو المجهول، نحو عالم جديد، مفعم بالنور، والقوة، والأشكال، يفتح صفحاته أمام أعيننا. تحركه الموسيقى عقولنا ورؤوسنا بينما نمر مرّ السحاب بحوائط إحدى القرى وبالرعاة وسياط البلح. في هذا السهل الذي ينزلق حتى قاع اليم، إنها جبال متباعدة، تكاد تكون بنفسجية على شكل أهرامات، تظهر بين الفينة والأخرى. كانت الموسيقى تلف المكان وتوحد بين الصور والأصوات، حتى المطبات تصبح إيقاعاً رغم أن الضربات اللاحقة ليست ذات صلة بالإيقاع.

شعرنا بالإجهاد، توقفنا عند قرية كبيرة، كان يوم جمعة وكان يجب أداء صلاة الجمعة، تزودنا بالخبز الساخن الذي خرج للتو من فرن محلي، أما يحيى والبروفيسور والآخرون فقد دخلوا المسجد للصلاة. جلس كلانا أنا وبير على حاجز. كانت الشمس حارقة، كنا سعداء، كان بير متحمساً وأشركني في حماسه لهذا العالم الذي كان يذكره بمرحلة طفولته؛ أما بير الآخر الذي أعرفه والذي

كان يتحفنا كثيراً بحكايات الطفولة فقد عاد من جديد. كان يرتدي جلابية بيضاء وجبهته منفرجة وعيونه حالمة، كل ذلك يتناغم مع الجو المحيط. لم يبد أنه بعيد عن ذلك العالم الريفي والإسلامي، فقد ترك العرب، لحسن الحظ، الكثير على أرضنا، ولم نفقد منه كل شيء، وهذا ما تؤكده عاداتنا وتقاليدنا وملامحنا.

سرعان ما أحاط بنا الأطفال الذين خرجوا من المدرسة وهم يرتدون جلاليبهم ويحملون شنطهم المدرسية على ظهورهم، الجميع يبتسمون يريدون مصافحتنا؛ ها هو بير في عالمه؛ كان عظيماً أن نراه هادئاً، فعندما يبتسم يصبح التواصل معه بلا مشاكل؛ لكن الأمر كان مكلفاً بالنسبة لي. كان رائعاً أن أراهم وهم يتحلقون حوله بينما يقوم بتدريبهم على بعض الحيل باستخدام اليد وكانوا جميعاً يحاولون تقليده. وأفضل تلك الحيل كانت تلك التي تبدو فيها اليد مقطوعة أحد الأصابع من منتصفه؛ كنت أشعر بالمفاجأة عندما يفعلها، تبدو المسألة وكأنها حدثت بالفعل؛ كان الأطفال يضحكون. قمنا بجولة وتوقفنا عند مبنى مهجور، به عقد عربي رائع في المدخل، وصحن به بوائك، غزته الرمال، إنها المدرسة القديمة التي حلت محلها مدرسة جديدة.

وعندما عدنا إلى السيارة، بين القفزات والمنحدرات، كنا نتسامر، وسألني بير، من أين هم أهل النوبة؟ إنه السؤال "في الصميم، فحدثته عن هجرات ما قبل التاريخ وكيف قامت قبائل صغيرة منذ ما يقرب من مائة وعشرة آلاف عام، بالاتجاه صوب المكان قادمة من إثيوبيا هرباً من التغيرات المناخية الضخمة، وبذلك نشهد عملية الهجرة الأكثر أهمية في التاريخ، "الخروج من أفريقيا"، وهبطت القبائل إلى وادي النيل، وهناك ظلت تعيش على مدى خمسين ألف عام قبل أن تواصل رحلتها صوب آسيا وأوربا؛ كانت هذه القبائل تمثل الأصول الأولى للعصر النيلي. ومن بين هؤلاء ولد أول الرجال المحدثون في منطقة ما بين النيل الأوسط ومصر العليا.

قلت له: انظر إلى يحيى، هو نوبي قح، ودائماً ما اعتقدت أن ملامحه قديمة للغاية. حسن، نعم، يبدو أن يحيى والطاعنين في السن من النوبيين من الذين ينسبون إلى إثنيات مماثلة لإثنية سان San التي لا تزال تعيش في إثيوبيا حتى الآن، وقلب إفريقيا، وفي كلهاري. إنهم البشر الأقدم في الدنيا، لغتهم تختلف عن لغات الآخرين، هم الأوائل، يطلق عليهم كليك Click وذلك من خلال فرقعة في اللسان Chasquido. في النوبة العليا أيضاً يصدر عنهم "كليك" عندما يتحدثون، عثر في صنجا Singa، على النيل الأزرق، على أول إنسان في السودان يرجع عمره إلى عشرين ألف عام؛ هو من سلالة San مثل يحيى، وهنا يمكن القول بأن أهل النوبة يمكن أن يكونوا أحفاد السكان الأوائل لوادي النيل، ثم اختلطوا بعد ذلك مع الأثيوبيين، وكانت الثمرة هؤلاء السود ذوو القامة الممشوقة والبروفيل الناعم واشتهروا بالوسامة والجمال مثل إبراهيم، وغيره كثر. كان المصريين يطلقون عليهم مسمى "نهسي" Nehesi، هم الرجال السمر، السود في المقام الأول، وبعد هذه العجالة التبس الأمر على بير ولزم الصمت، كانت المعلومات كثيرة في ظل هذا الجو، كان ينتظر أن يكون ذلك أكثر إيجازاً.

في المساء، بعد هذه الساعات الطوال من السفر، وصلنا إلى شاطيء النيل؛ إلى حقول يانعة ومنازل مدهونة بالجير الأبيض، نبع وغابات من النخيل. تركنا السيارة تحت شجرة سنط وارفة واقتربنا رويداً رويداً من الشاطئ، كان هناك قارب من الصفيح سوف يحملنا إلى الشاطئ الآخر. كان مجرى النهر عريضاً جداً لكنه أكثر هدوءاً، كنا جنوب الجندل الثالث بقليل إنها الدال Dal أرض النوبيين المنكوت Sukkot ، وعلى شاطئ النيل رأينا معبداً كبيراً، كان معبد سولب Soleb ، أقامه أمنوفيس الثالث، الأسرة الثامنة عشرة، وكرسه لنفسه كملك إله؛ كان "سيد أرض القوس" أي النوبة وكان "أسد بلاد الجنوب".

كان معبد سولب أكبر المعابد التي أقامها الفراعنة في النوبة العليا على مرتفع من الأرض محاطاً بالنخيل، تيجانه على شكل براعم نبات اللوتس، وكانوا يربطون بينه وبين معبد الإله آمون في الأقصر؛ كان المعبد، أثناء الفيضان، يبدو كأنه مركب يمخر عباب الماء الأحمر. كانت بنيته القوية والناعمة في آن، معبرة عن تحذير قاس للسكان المحليين؛ تضم الكثير من أعمدته مزينة بالنقش الغائر عبارة عن أسرى نوبيين مقيدين بالسلاسل وراكعين، مثلما نرى في معبد أبو سمبل، وجوههم سمراء يكسوها انطباع بالانصياع والمرارة.

وفي بلدة سيدنجا Sedeinga أقام لزوجته تي معبداً آخر. تسير هذه الملكة، التي حصلت على معبد لها في قلب النوبة، على التقاليد القديمة لمدار السرطان في أفريقيا، أي تقاليد الملكات السوداوات القويات اللاتي ظهرن المرة تلو الأخرى في النيل الأوسط. وابتداء من نفرتاري، الملكة النوبية، التي استطاعت أن تدفع رمسيس الثاني أن يقيم أعظم معبد في مصر، معبد أبو سمبل، على الأرض التي تعشقها، وحتى ملكات مملكة مروى، ملكات الكانداك Kandake، ذات السلطان مثل تي، كن جميعهن على الدرجة نفسها التي عليها الملوك.

عدنا إلى مكاننا دون أية حوادث غير عادية، كان الليل قد أخذ يرخي سدوله، انطلق يحيى من جديد إلى المياه، مولعاً بمياه النيل، وإنعاش نفسه بعد ذلك اليوم المضني. في هذا الركن الجميل من المتوقع فترة راحة مستحقة. أثناء العودة بين حقول قصب السكر عرض عليّ البروفيسور أن نمكث الليلة ثم نسافر في الصباح الباكر؛ قبلت العرض على الفور، كنت على استعداد للاستمتاع بتلك الوقفة، أتمشى في هذا المكان الهادئ والمريح. ليذهب كل إلى ما يريد حسب السياق القائم فالكل متعب. أخذ السائق قسطه من النوم، وقام الميكانيكيون بتنظيف السيارة، كان هناك نبع وأشجار وارفة وحصائر مفروشة ومكان يبدو جميلاً.

بينما كنا نتناول الطعام، كل على راحته، ونحن مستلقون على الأرض نأخذ باليد ما يقدمه لنا الناس، خطر لي أن أقصّ الأمر على عالمة الأنثريولوجيا، حيث كنا. أخذت المرأة في الصياح غاضبة أمام دهشة الجميع، قالت: أنا لست مستعدة لتغيير خططي التي تتمثل في أن نصل إلى دنقلة قبل أي شيء وربما إلى كريمة Karima ! كان هذا هو ما تم الاتفاق عليه مع البروفيسور، ولقد ضاع مني الكثير من الوقت!. شعر البروفيسور بالحيرة وحاول تهدئتها. عرضت عليها وجهة نظري ببساطة قائلاً: يا سيدتي، في أوربا وفي بلدك من غير المشروع أن يقود السائق السيارة لأكثر من ثماني ساعات، وهذا الفتى قاد السيارة لست عشرة ساعة متواصلة في يوم واحد، ونحن نعرف أنه لم يَنَمْ منذ يومين! واصلت عالمة الأنثربولوجيا صياحها: ليس لدي وقت! لقد وعدتني سيادتك... وعلى ذلك فأنا آخر من يعلم!

بدا البروفيسور مفزوعاً، أما نحن الذين لم نكن نعرف درجة الصداقة التي تربط بينهما فقد لزمنا الصمت، كنت أريد أن أعبر عن عظيم احترامي للبروفيسور، وأترك له حرية القرار. وفي لحظة واحدة صدرت الأوامر اللازمة، واتفقنا على أن نلتقي هناك في التاسعة مساءاً، ثمانية رجال وهذه الحرباء، ركبنا السيارة التي أخذت تهدهدنا فوق الحجارة. كان القمر رفيق هذه الرحلة التي شارك فيها أناس صامتون وآخرون يشعرون بالهزيمة. هكذا فقدنا هذا المكان الجميل وذهب عن بصرنا، وأخذنا نصعد مرتفعات ومطبات في الطريق أثناء الليل. كان الطريق مستحيلاً، هضاب موحشة ومنحدرات غير طبيعية وآلاف من الصخور. كنا نسير بالقرب من النيل، كنا نتخيل المنظر على شاكلة ما رأيناه في وضح النهار؛ الأمر عبارة عن أماكن جميلة لا تنسى وقرى نائمة وأخرى مهجورة بالكامل ونخيل وحدائق ورمال؛ كان كل شيء يذوب وتضيع معالمه في الذاكرة كأنه ضباب يتردد فيه صدى النوبة النائمة.

توقفنا في منتصف الليل هنيهة في قرية من تلك القرى المجهولة بمنازلها البيضاء التي تطل من فوق هضبة؛ في العتمة وتحت شجرة ضخمة كان هناك مكان به نارجيلة في الوسط. قررنا أنا ويحيى المشاركة، ها قد خلفنا وراءنا أرض النوبة، التي سوف نعود إليها في دنقلة. كنا في أراضي تابعة لقبائل أخرى، كان يحيى يتحدث معهم بالعربية، فقد كانوا يتحدثون بلهجة مختلفة، إنها لهجة المهاس Mahas، لم يكونوا نوبيين، لكنهم، مع هذا، من القدماء، ترجع أصولهم إلى ميدجاي Medjay وأوشك Aushek وبجا بالبحر الأحمر. هم من أحفاد المرتزقة من البدو الذين ساعدوا المصريين في غزو النوبة العليا. كانت ملامحهم أكثر كلاسيكية، الأنف مستقيم والسحنة اليونانية (البروفيل) سواد بشرتهم قاتم، وربما كانوا أقل إسرافاً في التعبير عن مشاعرهم.

وبعد ست ساعات، وصلنا، وقد أصابنا الإعياء في نهاية الرحلة الليلية، بل أقول في نهاية الكابوس، إلى قرية وسط قفر محيط؛ استقبلونا هناك في الثالثة صباحاً، في منزل ذي صحن كبير به شجرتا برتقال وأرنبان أبيضان كبيران، كانت الأسرّة مبعثرة في الهواء الطلق. جلست الكاتبة دون أن تقول شيئاً وجهها ينطق بمزاج عكر، شكَت من أننا شربنا المياه الخاصة بها؛ لم تعتذر عن أنها أفقدتنا ليلة في النوبة العليا، وعرضت حياتنا للخطر. اعترف السائق أنه كان على وشك النوم أثناء القيادة أكثر من مرة، لكن هذا لم يقلقها ولو للحظة.

لم تلق بتحية الصباح على أحد، وتوجهت كملكة جريحة لقضاء حاجتها خلف بعض الحوائط وسط الحقول؛ واصلت إصدار أوامرها للبروفيسور، ولزمت الصمت وكسا فمها ابتسامة غير حقيقية، كانت هي الأقوى، يتوفر لديها المال والأدوات والبروفيسور الذي يرافقها مدفوعاً بالالتزام والخوف؛ لم تكن تفهم ما عليه صديقها من رقة، بسبب أنانيتها الصبيانية؛ كان الصديق غاية في الأدب والكرم أكثر منها، ولم تحفل حتى باحترامنا لها. غير أن تلك الابتسامة

المتسلطة كانت التحدي الكامل، فأثناء الرحلة أدركنا أنها كانت تقوم ببرمجة الوقت المتاح، استولت لنفسها على واحدة من نوافذ السيارة، وعندما كنا نتوقف، وندرك ما كانت تريده، كانت تصعد مباشرة على الجانب الذي به الظل. كنا نبتسم داخلياً عندما تخطيء في تقديراتها وتغير مقعدها، كان الطريق يتغير بالكامل، وتضربها الشمس وتشويها كأنها بيضة.

كانت تضع من الداخل قوطاً، وتشرب المياه من زجاجة صغيرة مليئة، رشفة رشفة. أما نحن فقد كان سلوكنا أكثر مباشرة وكنا نشرب من الزجاجات الكبرى الخاصة بها. كانت شكواها عن حق؛ لكن بعد ذلك الغضب وضرب الأرض بالأقدام ستأتي الحرب؛ عم التوتر الجميع حتى الثمالة؛ قررنا إيقاف عملية التعذيب وأن نجلس نحن الأربعة في المقعد الثاني، حيث طلبنا من الميكانيكيين أن يهبطا من على ظهر السيارة، حيث كانا بين الموز والزجاجات، المكان أكثر أماناً من كونهم بين الشنط. كنا أيضاً نتجادل معها في حقها في النافذة؛ كان يحيى ذاهلاً عنها، ولم أعرها اهتماماً، أما بير فكان يحدثها بين الفينة والأخرى، وابتداء من تلك اللحظة أصبحت تسمى "رابطة الجأش غير الكاملة".

كنا قد تجاوزنا الجندل الثالث، وتغير المشهد العام فجأة. ظهرت أمامنا وديان ضخمة دون أن تكون هناك أحجار البازلت والجبال التي تظهر بين الحين والآخر التي كانت تثير استغراب يحيى. أنا أعرف الآن من أين نقل المصريون فكرة الأهرامات!. كانت الجبال أهرامات ضخمة– معزولة وسط المشهد العام، ولم تكن هذه أول مرة نراها فيها، كانت تشكل جزءاً أساسياً من المشهد في كافة أرجاء النوبة العليا؛ كانت هناك جبال أخرى قممها مسطحة وثابتة، اقتربنا من شاطئ النيل بين أشجار السنط والنخيل، كانت القرى النوبية تتتابع الواحدة تلو الأخرى، الحوائط المنتظمة، اللون الواحد، الانتظام في صف، أسوار بيضاء

alberos . كانت بعض القرى ذات لون بني مذهب، يكاد يلمع، تبدو وكأنها جص من نوع فاخر، اللون الأصفر الذهبي، بانعكاساته ووميضه، كان يكسو المنازل بالبذخ المعقد، لم يحظ بهذا إلا بعض القرى، كانت رمالها تبدو ذات لمعان أكثر من المعتاد. هذا كان يذكرنا أننا نعبر "واوات" "بلد الذهب" كما أطلقه عليها المصريون القدماء.

كنا قد توقفنا في أماكن كثيرة وقرى عدة، كلها منتظمة وجميلة، المداخل وواجهاتها جميلة قديمة ورفيعة الشأن ذات هندسة جميلة من الطوب القديم، نجدها دائماً في المنازل القديمة والمهجورة، أما الميادين ففيها أشجار السنط والمساجد والجدران ذات الألوان المتعددة والنخيل، هناك حمير وأطفال يلعبون ويلهون ويجرون خلفنا؛ نساء رشيقات يحملن طشتاً ورجال يحملون الفأس منحنو الظهور يعملون في الحقل، الجميع كان يحيينا بيده، الجميع يرحب بنا مثل الرعاة في الصحراء. إنه عالم قديم وهادئ، حيث يبدو أن الانسجام هو الملمح المسيطر، كان الفلاحون يحيوننا وهم يمتطون ظهور الحمير، كذلك من كانوا يمارسون أعمالهم الحقلية. سلام! كلمة يبدو أنهم يقولونها بينما تسير السيارة بسرعة.

شكت أجسادنا من مشقة السفر وعدم وجود مراحيض، لم يكن هناك مرحاض إلا العراء وكانت المياه للشرب أكثر منها لغسل الفم أو الاستنجاء. كان يحيى يؤكد أن البدويين يستنجون باستخدام رمال الصحراء؛ لم تكن الفكرة مثيرة؛ أما حلاقة الذقن فكانت على الناشف، والدش لم يكن إلا حنفية في الأرض أو جركن مياه. كان جسدي يعبر عن هذا كله رغم أنني أرغمته ألا يشكو فلم يكن هناك وقت إلا لنعرف كيف نصل إلى المحطة أو المرحلة الثانية. وكانت إجابته هي بعض البواسير الحميدة وبعض المتاعب في اللثة؛ كانت معدة بير مقلوبة ورغم أنه كان يحمل كافة الأدوية المطلوبة في شنطة صغيرة، لكن بعض

المتاعب كانت غير متوقعة. كان أفضل شيء هو مضاد الناموس والـــ aloe . يا له من اختراع.

كانت لديّ شنطة الأدوية الخاصة بي، إنها يداي، حيث أفعل كما يفعل القدماء، أقترب بها حتى تصبح على بعد مليمترات من مكان الألم، ولم تخطئ مرة واحدة، كانت تمتص الألم وتعالجني شيئاً فشيئاً وتملؤني بالطاقة. إنها واحدة من وسائل العلاج الأكثر قدماً وفعالية لدى البشرية منذ نشأتها؛ ليس من الضروري أن يكون المرء ملكاً أو عالماً أو غير ذلك للقيام بالأمر؛ يمكن لأي فرد ممارسته، الهدوء هو كل ما هو مطلوب ومعه المعرفة والصبر، أما الأيادي فهي من عندنا. وبالنسبة ليحيى، الأمر غاية في الصعوبة، فقد ظل يصوم رمضان، وكان يشعر بالوهن في أجزاء شتى من جسده. كان صوم رمضان غاية في الصعوبة عند المسافر، بدا جسده الناحل كأنه جسد مصغّر لفقير محتاج، أما المرأة فبدت كأنها مصفحة، إذ تبدو ظاهرياً أنها لم تعاني شيئاً لا روحياً ولا جسدياً.

وصلنا كرمة Kerma ظهراً، هي مدينة جميلة تطل على النيل، بها أشجار سامقة ذوات جذوع ضخمة، مدينة مفعمة بالحياة، كان هناك سوق عبارة عن مجموعة محلات تطل على النهر، هو نهر يعبر المكان بعظمته وضخامته وهدوئه. كانت المدينة مزدهرة وتمتد الحقول بزراعاتها إلى العمق. أخذنا نتمشى فترة من الوقت تحت الظلال الوارفة لهذه الأشجار العتيقة، كانت المتاجر نصف مغلقة والناس قد وافاها النعاس. عندما أخذنا نصوّر مجموعة متراكمة من الأزيار الفخارية. نبهنا البوليس؛ لابد أنهم ظنوا أن هؤلاء "الحاجاوات" haguayat (الخواجات) هم أناس شديدو الغرابة، إي يعجبون بأواني متهالكة يشرب منها الناس، وعلى أية حال كانت الأزيار طريفة. هنا كان يسكن النوبيون الدنقليون وتمتد رقعة المسكن حتى دنقلة، وكانوا يتحدثون بلهجة كنوز kunus مثل يحيى رغم أنهم يطلقون عليها دنقلاوية.

أخذنا نسير هنا وهناك في تلك الأرجاء من الحقول المليئة بالأشجار والنخيل حتى وصلنا، خارج البلدة، إلى حيث أطلال العاصمة القديمة لقوش، تلك المملكة الأسطورية السوداء أكثر الممالك قدماً وواحدة من الممالك القوية في أفريقيا، تكاد تكون معاصرة لمصر القديمة، مصر الأهرامات. هناك معابد وقصور ملكية ومنازل وجبانات وأسوار. كانت آنذاك في قمة مجدها عندما خرج العبرانيون من مصر. تحدث الكتاب المقدس عن قوش غير أن البيانات كانت متداخلة ببعضها، يؤكد الكتاب المقدس أن حام ابن نوح وابن ذلك الآخر، الملقب بقوش، هما أصل الشعوب الأفريقية بعد الطوفان. إنه تأكيد غامض وغير متسق، وحول هذه النقطة جرت أقلام كثيرة ونشرت أبحاث شتى في الغرب، وكأننا أمام التاريخ أو معالجة أحد العلوم. كان الأمر بالنسبة للمتخصصين في الكتاب المقدس يتسم بأنه جيد، حيث كانت هناك مملكة قوية مثل قوش في إثيوبيا البعيدة بلاد السود، ويستخدمون هذا الأمر لشرح أصول الأجناس البشرية، وبذلك يدافعون عن فكرة خاطئة تقول بأن السلالات الأفريقية ترجع إلى أصول سامية بينما هي في واقع الأمر على العكس تماماً.

كان النوبيون يطلقون على الأطلال المهمة في قوش مسمى "دفوفا" أي "الأطلال من الآجر" وكانت، في زمانها عبارة عن جبال اصطناعية، ومجموعة من مكعبات الآجر المجفف بحرارة الشمس، تشكل جزءاً من حوائط صلدة تقوم عليها المعابد؛ كانت عبارة عن ناطحات سحاب من طابق واحد يوجد أعلى المبنى، صعدنا جميعاً حتى أعلى "الدفوفا" الغربية، أي المكان الأعلى في المبنى، وأخذنا نتأمل من هناك الوادي الأخضر الذي يمتد حتى نهر النيل.

نظرا للثروة التي توجد في هذا المكان، تحولت قوش إلى أول مملكة في أفريقيا السوداء، كانت حدودها مترامية حتى وصلت إلى "أبو" (إليفانتين، بأسوان) وذاع صيتها في كل أنحاء آسيا والبحر المتوسط. كانت كرمة، عاصمة

قوش، قائمة قبل ذلك بكثير، أي قبل أن تصبح عام 1600 ق.م. المدينة الأولى الأكبر في أفريقيا السوداء، كان المبنى الرئيسي للمقر الملكي، عبارة عن "دهليز لإقامة الشعائر"، مجرد خُصّ مستدير له سقف من القش. إنه عبارة عن كرال kraal أفريقي فج؛ بينما المنازل العامة على شاكلة المنازل النوبية المعاصرة، أي من الطوب، والفراغات المنعزلة عن بعضها والصحن الذي يجمع بينها.

أطلق المصريون الأول على قوش مسمى "يَمّ" وكانت قوافل الحمير تقطع المسافة بين "أبو" وهذه المملكة البعيدة في سبعة شهور، تعبر المكان عبر الصحراء وليس من خلال التيارات السريعة لمياه النيل. كان التجار المصريون يحصلون من هناك على المنتجات النادرة من بخور ومن فيل وأبنوس وجلود الفهود وبيض النعام وريش الطيور النادرة والذهب والعبيد، وربما كان هؤلاء هم الأقزام، لإدخال السرور على البلاط الفرعوني، ربما كان المكان حلقة الوصل بين أعماق أو قلب أفريقيا ومصر الدولة القديمة، إنه سوق ضخم يضم الناس على مختلف ألوانهم وقبائلهم الأفريقية، كما كانت مركزاً للحجيج الذين يريدون الذهاب إلى الجبل الاصطناعي "الدفوفا"، الهضبة المقدسة، الرمز الأساسي لأصول العالم والسلطة وملوك القوش. هناك كان تقديم القرابين بذبح بعض الآدميين تقرباً للآلهة النيلية.

كان السائق ينادينا بصفيره، كان الجو حاراً والوقت يمضي؛ أسرعنا جميعاً، ماعدا هذه المرأة. فقد ابتعدت عنا، ولم تكن متواصلة معنا وأخذت تفتش في الآثار. انتظرنا، كان البروفيسور حائراً. لست أدري ماذا أفعل! يا لها من امرأة عجيبة! أعتقد أنه قد حانت ساعة الحديث عن مقابل مادي لجهودي ومساعدتي. فكرت في أنه سيكون موقفاً صعباً. أخذت تتهاوى إرادته في تقديم معونة بلا مقابل، من هي تلك المرأة التي تُقَرِّع رجلاً على الملأ في السودان؟ وهو الإنسان الذي كان يساعدها.

رحلنا وكانت مسيرتنا بمحاذاة النيل كانت كرمة بلدة ضخمة، وحرارة الشمس تطغى؛ بالقرب من المكان كانت بنوبس Pnubs ، على " دقيّ جل Duakki Gel ، أي "الهضبة الحمراء" حيث أقام المصريون رقعة عمرانية جديدة مكرّسة للعبادة، وبالتحديد للإله آمون، فهناك المعبد الأكبر في النوبة قاطبة. أقيمت هناك تماثيل رائعة لملوك نباتة، مخبأة في مخزن طقسي؛ كان ينظر إليها على أنها مسحورة، مثلها مثل كافة التماثيل الفرعونية التي خبأها أهل قوش على مدى قرون طويلة.

وبعد فترة من الوقت ونحن نسير وسط النخيل عبرنا ترعة ووصلنا إلى العوّامة التي ستقلنا إلى الشاطئ الآخر. هناك توقفنا، فقد كان علينا الانتظار حتى تجمع المزيد من الركّاب وتمتلئ عن آخرها. هنا أدركت أننا في جزيرة أرجو Argo ، على مسافة بسيطة من المكان الذي عثر فيه على تمثالين كبيرين متدحرجين على الأرض، أمام أطلال معبد كبير يرجع للعصر المروي، كنت أود أن أراه، وأن أذهب إلى طابو Tabo ، لكن لم يكن هناك متسع من الوقت؛ لم أتذكر لحظتها أن مفهوم الوقت في السودان هو في أغلب الأحيان مفهوم نسبي.

كانت السيارة فوق العبّارة، غير أن كل الناس، أي المسافرين الافتراضيين، كانوا على الشاطئ، كانوا يستحمون، ويتزلجون على شاطئ طيني ليهبطوا إلى مياه النيل. تمكن يحيى من تجاوز منطقة بها تيار شديد واتجه صوب جزيرة بها نخيل. كان بعض الفتية يلقي إليّ بالتحية وهم في الماء ويدعونني إلى مشاركتهم في الاستحمام، انهما الميكانيكيان؛ أخذا يغسلان جسديهما وملابسهما بالصابون والمياه. أجسادهما تقطر مياها، شبه عاريين. غير أن ذلك التل وقف حائلاً بين الدعوة والرجاء، كان من المستحيل الوصول إلى ذلك المنحدر دون أن يكون المرء قد تمرغ في التراب. انتابني شعور

بالإحباط، فاخترت أن أصعد إلى سقف السيارة وأتأمل مشهد النيل، تحت هذه الشمس الحارقة. يقول الناس إن مياهه ممغنطة، تضفي الحيوية والصحة على شعوب النيل. كم أود أن ألقي بنفسي في حضنه!.

عبرنا نحو الضفة الغربية، أي اجتزنا مسافة تصل إلى كيلو مترين من المياه، كان هذا القطاع من النيل هادئاً، التيار فيه من أسفل يتجه صوب الجندل الثالث، نزلت من سقف السيارة عندما وصلنا إلى الشاطئ الآخر، كنت على وشك أن أطير في الهواء من جراء الوثبات التي فعلتها سيارة الجيب وهي تنزل إلى الشاطئ الطيني. أخذنا نسير بمحاذاة النيل الذي كان يتبدى بين الفينة والأخرى إلى يسارنا، وهناك مجموعات من النخيل تذكرنا بأننا قريبين منه، تمتد السهول دون أية هضاب أو مرتفعات مثل تلك التي تطل على شاطئ نيل مصر، لم نتوقف عند العديد من القرى النوبية التي مررنا بها، هي قرى لها جدرانها وحدائقها، قرى منتظمة، مبانيها نظيفة، كنا نسير على أثر سيارات مرت، بإيقاع كأنه إيقاع موسيقى.

كنت سعيداً لموضعي في وسط السيارة، إذ كان الظل دائماً إلى جانبي وكنت أجلس على مقعد جيد، كان المشهد عندي أقل، لم تكن إلا صوراً أراها من خلال النوافذ مربعة وكأننا نشهد شريطاً سينمائياً ولو أنه أضخم، أي سينما سكوب. هناك فلاحون يمتطون ظهور الحمير، أطفال يصيحون "حاجوايات haguayat وهم فرحون بما اكتشفوه، ونساء يرتدين ملابس زاهية ملونة تملأ الابتسامة وجوههن، كان الجميع يحيينا. كانت هناك مجموعات من النخيل تشكل ما يمكن أن ينظر إليه على أنه واحة صغيرة، تتتابع القرى على مسافات منتظمة تتخللها مناطق صحراوية.

كان يحيى نائماً، أما أنا وبير فقد كنا في دردشة مستمرة، انظر، يا لها من واجهة باب! وهذا الآخر، وذلك اللون، والنخلة. كنا راغبين في البقاء

والتمشي في المكان كله، كان المشهد يطير، أين سنكون؟ كان بير يقول: وأنا الذي كنت أريد أن أرى بورسودان! ثم نضحك. أمضينا ساعات ونحن مسافرون، إنها ساعات مرهقة، تحرقنا الشمس فيها. كانت الشمس قد هبطت من كبد السماء لكنها كانت قوية. انتاب بير الملل للحظة، لماذا كل هذا؟ من هو القائد هنا؟ من الذي استأجر السيارة؟، لنتوقف قليلاً. وبعد نصف ساعة توقفنا على جانب الطريق الذي كان في هذا القطاع، عبارة عن طريق تحف به الأشجار، أي أنه شارع رئيسي لبلدة صغيرة.

جلسنا على الأرض. كان الظل وارفاً وإلى جوارنا أزيار قديمة مليئة بالمياه، جرذان وأبواب منازل ذات لون أبيض، وفي المواجهة، مسجد وحديقة بها نخيل وزهرة الجهنمية. اقترب منا بعض الأطفال، أخذت الكوز مثل أي مسافر وشربت من الزير الذي أشار عليّ به الميكانيكيان، الماء بارد ومنعش، ثم استأنفنا الرحلة بعد أقل من نصف ساعة، أي حوالي الرابعة، وصلنا إلى مدينة حديثة، تقع في منطقة سهلية، بعيدة عن النهر، إنها دنقلة!.

دنقلة! لكن هذه مدينة بها منازل وطيئة وشوارع مستقيمة تحفها الأشجار في مشهد ليس به هضاب أو مرتفعات. هل هذه هي المنطقة الجديدة في المدينة؟! وهل نحن في الأرباض منها؟! كنت أعبر بهذه الكلمات عن استغرابي؛ لكن، يا يحيى، أين المدينة القديمة؟ قرأت في كتاب قديم أنها على مرتفع يطل على النيل والمنازل القديمة تعتلي الهضبة. لماذا إذن لا نذهب إلى الحي القديم للبحث عن مُقام ونتأمل النيل من هناك؟ ماذا؟ ألا يوجد ذلك؟ هذا مستحيل. كانت المدينة موجودة منذ مائة وثمانين عاماً!... يا له من أمر عجيب، مدينة زالت من الوجود، بما في ذلك الهضبة التي كانت عليها... لماذا نحن في دنقلة؟ أخذ يحيى يتحدث ويتحدث. وفي النهاية بصيص من الأمل. دنقلة العجوز! دنقلة القديمة، إنها أمام كليوا Khilewa ، نعم، إنها نحو الجنوب، لازلنا بعيدين عنها. بدت

صورة دنقلة مستعصية على التحقق فلكما حاولنا الاقتراب منها تنقلت أمام نواظرنا، دنقلة، لم تكن دنقلة، يا للغرابة. إنها بلاد السراب، ودنقلة هي السراب.

أول شيء قدموه لنا في دنقلة مكثنا فيه، هو عبارة عن فندق صغير على الطراز الكولونيالي، له فرندة تطل على الشارع ودرّاجة ملونة على الباب وصحن داخلي به أشجار فواكه وفي وسطه نافورة، كان هذا يذكرنا بصحون البيوت في سوريا، في دمشق. في دنقلة انتهت قصة رحلتنا مع السيارة الجيب. كان الموقف غريباً، فدنقلة هذه ليست هي التي نبحث عنها، غير أننا كنا نشعر بالسعادة. ها نحن في فندق به دُش ودورات مياه. سوف نودع رفاق الرحلة ونودع "رابطة الجأش الناقصة"، عالمة الأنثربولوجيا. شعرنا بالألم لفراق الباقين، وتعجلنا القيام بجولة في انتظار موعد الإفطار. لم نفز بشيء من جرّاء السرعة والاستعجال في الوصول، فهنا لا يوجد ما يمكن للمرء أن يراه، وكان من الأجدر أن نصل في ساعة متأخرة.

قالوا لنا إن علينا أن تذهب لتسجيل أسمائنا في مخفر الشرطة، هناك فنادق لم تكن تقبل الأجانب. أثناء وجودنا في الغرفة اكتشف بير أنه فقد نظّارته. كانت نظارة جميلة على الموضة ماركة (Paston). قمنا بمراجعة خطواتنا، من المؤكد أننا نسيناها في هذه المحطة على قارعة الطريق. دلفنا إلى السيارة وجاءت بعدنا عالمة الأنثربولوجيا والميكانيكي، وسرعان ما وصلنا إلى المكان الذي فيه الأزيار، لم نعثر للنظارة على أثر؛ استسلمنا للأمر؛ وفي هذه اللحظة ظهر على باب المنزل رجل يقول لنا بأنه عثر على النظّارة وأنها لديه غير أن زوجته معها مفتاح الدولاب، وهي في هذه اللحظات تؤدي الصلاة في المسجد.

كان علينا الانتظار. جلسنا على الأرض، غمرنا جميعاً الصبر المشرقي، ليس هناك أفضل من الراحة بعض الوقت، مرّ وقت طويل ولم تعد المرأة، لابد أنها من الزاهدات، وفجأة قفزت "رابطة الجأش الناقصة"، كسرت جمود

صورتها، وأخذت تصيح، وقالت إنها ستذهب إلى مخفر البوليس، وما الذي ننتظره. لم أتمكن وأنا أنعم بهذه الهنيهة أن أقصّ عليها ما أنا فيه، شرحت لها أننا في انتظار استعادة النظّارة وأن الذهاب إلى مخفر البوليس هو أمر سوف نفعله جميعاً وكذلك السيارة. فقالت، وأنا هنا لا أدري ما الذي يحدث! أتى لنا فتى صغير بالنظارة، وودعنا الوالد وهو يشعر بالرضا لما فعله نحونا، ورفض تقبل أي شيء، لكننا استطعنا أن نعطي شيئاً للطفل.

كانت الزيارة سريعة للمخفر، عوملنا بلطف والابتسامات تكسو الوجوه؛ تحول يحيى إلى مشحوذ، لفت ظرفه انتباه الضباط، وسرّع من الإجراءات والأختام والأسئلة، إنه وسط أهله، وهذا أكبر سند للمسافر في ذلك البلد الذي نجهله. حاول يحيى أثناء تناول إفطار رمضان ونحن جالسون على الحصيرة أن يتسامر بعض الوقت مع "رابطة الجأش"، فحسب ما قال لي حتى لا تصورك في سردها لوقائع الرحلة على أنك نذب كابير ونئيتا المفترس، إنها لم تكن حتى ترمقني ولو بنظرة، أما بير فكانت تقدره، لابد أنها سوف تصوّره على أنه أحد الرعاة.

حدث ما لم يكن في الحسبان في صحن الفندق بعد ذلك. فقد أدركت "رابطة الجأش" الناقصة أن دنقلة التي نحن فيها هي آخر مطاف رحلتها، فأخذت تصيح وتصرخ؛ كنت أسمع الصرخات وكان المدرس يتلقى كل ذلك، غير أنه تغير مزاجه. أدرك من هو أمامه، وكنت ألاحظ غيظه الداخلي الذي كان يتجلى على تقاسيم وجهه ويديه وكلماته القليلة. ترك المكان وتركها وحدها؛ كانت لديه أمور عليه القيام بها، من بينها البحث عن محل النظارات لابتياع نظارة تهديها له، وبعد ذلك بيومين يعود أدراجه صوب وادي حلفا حيث على "رابطة الجأش الناقصة" أن تأخذ المركب.

كانت صورة دنقلة في الليل أفضل فقد كان الطريق الرئيسي بها يتحول إلى سوق فيه حياة مليء بالمقاهي ومحلات الملابس والأحذية، اكتشفنا كشكاً به

عشرات من الطواقي من تلك التي يستخدمها أهل العلايو، وهي برانيط مطرزة بمهارة ورقة؛ كان الاختيار صعباً، كان مصدرها بنجلاديش وباكستان والسعودية واليمن. البلاستيك في كل مكان، عبارة عن أواني وزهور من الصين، الكثير من الوحدات الصحية والمستشفيات والصيدليات توجد في هذا الطريق، وكلها مكرّسة، أو معظمها، لاحتياجات الأمهات والأطفال؛ كان الناس يتمشون في هدوء، يدخلون محلات الملابس، أو يأكلون وهم جالسون تحت الأشجار.

لاحظنا أثناء الرحلة أن الميكانيكيين لم يكونا يأكلان اللهم إلا الخبز والبصل، لكن ابتسامتهم دائمة ونظراتهم وديعة. كان بير هو من أدرك ذلك. هنا قمنا بالانقلاب على عادة سيئة وطلبنا أن يشاركوننا الطعام، كما كنا نشتري لهم بعض الأطعمة. انطلقنا إلى السوق في دنقلة يرافقنا أحدثهم سناً، كان يريد شراء بعض الملابس وصندل من البلاستيك على أحدث صيحة. وفي منتصف الليل، جلسنا لنأكل في أحد الأخصاص، على الرصيف. واكتشفنا البيبسي الأبيض، ها هم هناك يبيعونه في عبوات أعيد استخدامها، إنه اللبن المسكّر. كان رائعاً.

كان بير يريد الاتصال بزوجته بأي شكل، حتى يهدئ من قلقها عليه؛ كان قد اتصل بها قبل لحظات من دخولنا المركب في أسوان، وما مضى من الوقت بدا وكأنه دهر، رأينا الكثير من مراكز الاتصالات ذات الألوان المختلفة، وتوجهنا نحو واحد منها يقع في شارع جانبي صغير. قابلتنا امرأة شابة غاية في الجمال ترتدي الساري الملون ولبّت طلبنا؛ كانت هناك صور ضخمة لبحيرات في جبال الألب وحدائق غناء مرتبة ترتيباً جميلاً لقصور أوربية؛ إنها صور كثيرة الشيوع في وادي النيل الذي هو واحة خضراء وسط الصحراء؛ كان الاتصال سريعاً، قال بير لزوجه: نعم، هذا غاية في الروعة؛ أنا كنت أفكر في والديّ وفي تلك الفتاة اليونانية ذات العيون الجميلة التي طال انتظارها لي،

فكرت في أصدقائي. لم أشأ أن أكسر الإيقاع، ولم أرد أن أعرف أية أخبار، طلبت منها الاتصال بوالديّ اللذين تركتهما وليس في أيديهما إلا خريطة قديمة وإشارة وردت في كتاب هيرودوت.

في الصباح كانت "رابطة الجأش الناقصة" غاية في الغيظ من العالم، لم تلق بالتحية، كانت في ركن قصيّ من الصحن ومعها كتاباتها؛ أما بير فقد جلس على الطرف المقابل؛ وبعد هنيهة من انتظار الشاي الذي طلبه من النادل، رأى بير ذلك الرجل وهو يحمل فنجانين، وضع أحدهما على مائدة عالمة الأنثربولوجيا، وعندما أخذ يبتعد ومعه ذلك الفنجان الآخر صاحت "رابطة الجأش الناقصة": لقد طلبت منك فنجاني شاي، ثم إن هذا الفنجان هو فنجاني! وتركت بير في دهشة مثله مثل الكاماريرو، الذي لابد أنه فكر أن "الحاجوايات" قوم غرباء، تطلب هي فنجاني شاي ويبقى بير بلا أي شيء. أعتقد أنها ستصفنا بالكثير وهي تتحدث عن رحلتها، ربما أننا جمع من الذئاب.

وبعد هذه الاحتفاليات التي أضفت على الصباح لوناً معيناً، انطلقنا إلى السوق بحثاً عن بنك لتغيير العملة دخلنا أحدها، وهناك قوبلنا بما أذهلنا، البنك لا يغير فقط إلا الدولارات؛ ربما تجد غير ذلك في البنك المقابل. وهذا ما حدث، فعلى الرصيف المقابل كان هناك بنك، هنا لا يقبلون إلا اليورو، لا يقبلون حتى مجرد رؤية الجنيه المصري؛ قالوا لنا: ربما تجدون ذلك في الخرطوم. وهنا تَسَمّر بير في مكانه وأخذ يتحسس جيوبه الممتلئة بالجنيهات المصرية. خرجنا إلى الشارع المكتظ بالناس. كانت المتاجر كلها مفتوحة، والأكشاك والبضاعة معروضة على الأرض من ملابس وبلاستيك زخرفي وفواكه، وخبز وخضروات، كان هناك بيض غريب الشكل يتناقله الناس. هناك تروسيكلات ذات موتورات، بدون أبواب، سقفها مقوس، تقوم بدور التاكسي (التك تك)، بدت وكأنها لعب مسلية. ضحك كلانا أنا ويحيى وقررنا أن نركب

أحدها، لكن بير الذي بدا عصبياً غاب عن نواظرنا بحثاً عن مياه، عن فاكهة، عن أي شيء.

وفي منتصف النهار، في الفندق، ودعنا الجميع، ورافقونا حتى شاطئ النيل، وقفنا خارج الفندق وقتاً، في شارع رملي به بيوت من الطين، وقفنا تحت ظل شجرة صغيرة، بينما كان يحيى يبحث عن شيء. مرّ بنا الأطفال وهم خارجون من المدارس، يحملون كتبهم في أيديهم؛ وكالعادة اقتربوا منا، وانتهى بهم الأمر إلى قهقهة جماعية أمام ألعاب بير، اقتربت من الباب الذي دخل منه يحيى. خرجت امرأة شابة تحمل ابنها الصغير على يديها؛ كان الجو خانقاً. قدمت لي مشروباً مثلجاً وهي تبتسم. قلت: لا، أنا صائم. هل أنت مؤمن؟ فهززت رأسي بالإيجاب، نعم، – فكرت – أؤمن بالطبيعة غير المرئية التي بين أيدينا واتصالها بكون لا نستطيع أن نلمسه مع أنه قريب، أؤمن باحترام العقائد الأخرى لأن الأسئلة واحدة بالنسبة للجميع.

عبرنا النهر مرة أخرى في مركب من الصفيح مليئة عن آخرها بالناس؛ على الشاطئ الآخر صعدنا بأطراف أقدامنا منحدراً طينياً وكل منا يحمل حاجياته؛ وهنا أدركنا أن حياة البذخ قد خلفناها وراءنا في سيارة الجيب المتهالكة. كانت الشنط تزداد ثقلاً كلما مرّ الوقت، كما كنا نجر أيضاً شنط بلاستيك كبيرة بها المشروبات والأغذية، فقد أخبرونا بأننا لن نجد شيئاً لنشتريه خلال الأربعة وعشرين ساعة القادمة. كانت حرارة الجو لا تطاق، وعندما وصلنا إلى أعلى الهضبة ارتمينا ونحن منهكون على بعض أجولة الدقيق المرصوصة إلى جوار حائط. كان مسجداً في الهواء الطلق تكاد تغطيه شجرة وارفة كأنها قبة المسجد؛ كان هذا هو الظل الوحيد في هذا الخلاء، الضخم، الذي توجد به بعض الأماكن التي تضم محلات ومشروبات. هناك الكثير من سيارات النقل الصغيرة متوقفة، تبحث عن زبائن يكسو وجوههم الهدوء، أخذت

تمتلئ، تخرج من العبّارة (العوّامة) سيارات النقل المحملة، الكثير من السيارات، والناس للسائرين الذين يجرون "بقجاً" كبيرة. أخذت الساعات تمضي وسط قيظ المساء.

أخذ يحيى في البحث عن سيارة، وهنا قمت أنا وبير بعرض شروطنا بشأن السيارة. نريد سيارة أفضل من سيارة الجيب السابقة، هذا كحد أدنى، لما لم أرَ إلا تلك نصف النقل، وبدا الأمر صعباً بعض الشيء؛ كان بير عصبياً، كان يصر على أن يحيى ومعه الجميع قد أخطأوا، وأنهم تركونا في مكان غير ملائم، وكان من الأفضل أن نبحث عن سيارة ونحن في دنقلة. لا، يا بير، هذا المكان هو محطة السيارات المتوجهة إلىْ كريمة Karima. الأمر في دنقلة مماثل لما هو هنا، لا يوجد إلا سيارات نصف النقل، أخرج بير كراسته وأخذ يرسم؛ كانت هذه لمحة سحرية هيأتها تلك اللحظات التي عشناها أحاط بنا الأطفال الذين في المكان، كان الجميع يريد أن ينظر إلينا ويسألنا، ويضحكون، كانوا جميعاً يريدون أن يتم تصويرهم.

كان إلى جوارنا الكثير من الفلاحين ينتظرون، يضحكون هم الآخرون، وسيارة دفع رباعي بها اثنين من الأوربيين المحبوسين داخلها، يبدوان كأنهما قطان في قفص. لم يكلفوا أنفسهم عناء التحية أو الخروج، اللهم إلا إذا طلبنا منهم شيئاً. كان هو ينظر إلى اللانهائي، أما هي فتنظر بطرف عينها. ظلوا على هذا الحال وقتاً طويلاً، حتى تحركوا. وضعوا السيارة في العبارة، وظلوا فيها! إنها قفص مكيف وربما كانت هناك موسيقى كلاسيك، والكثير من الأنانية والمفاهيم المسبقة. صحيح، أنا كنت أرتدي جلابيتي البيضاء، ويحيى نوبي أسمر البشرة، إلا أن بير وأنا بدونا خاجوايات بما لا يدع مجالاً للشك، وهذا ما لم يتوقف الأطفال في القرى عن الصياح به، كنا خواجات جداً مثل القطط التي تنظر إلينا من وراء الزجاج.

في تلك الأونة كان يحيى قد تحدث واتفق مع صاحب سيارة نصف نقل خلفيتها بدون سقف، وهي السيارة الوحيدة التي تمكن منها بسعر جيد، سوف أركب أنا وبير في المقاعد الأمامية وتذهب بنا السيارة إلى دنقلة العجوز. خرجنا بعد ساعة، أي في الثانية بعد الظهر. وضعنا "البقج"، ربطوا الشنط في الجوانب، وأخذنا ننتظر. اختفى يحيى دون أن نعثر له على أثر وأخذ الفضاء يتسع، ورويداً رويداً أصبحت سيارتنا وحدها. وفجأة أتت امرأتان ومعهما الأطفال وركبتا في كابينة السيارة. اغتصبنا مقاعدنا. أغلقنا الباب بقوة، وحدثت مشادة كلامية داخل السيارة، وبعد لحظات قليلة استولى عشرون فرداً على السيارة وهم يحملون أمتعتهم وجلسوا.

فكرت أن كل هذا سوء حظ وأمر يثير الضيق. ظل يحيى مختفياً، وشعرت أنا وبير بأننا غير قادرين على أن نوضح لهم أننا استأجرنا السيارة. وصل السائق وحدثت صيحات ونقاشات. كانوا يطلبون منا أن نركب لأن السيارة سوف تتحرك. لكن، أين؟ نحن في المقدمة، أشرت بإصبعي، وأنا غير مقتنع بما فيه الكفاية، أشاروا هم إلى السيدات. إنها لعبة كش ملك. كان الأمر إذن هجومًا مباغتًا بالمعنى الحقيقي للكلمة. لقد استولوا على السيارة ولن يتركوها. أخذت السيارة تتحرك وهي تحمل أمتعتنا ولكن دون أن نركب. دفعتني الفلسفة الشرقية فهرولت ولحقت بالسيارة وعدنا. بغيظ شديد أنزلنا أمتعتنا، ورحلوا هم. لم يعد هناك أحد في الموقف.

وبعد فترة انتظار خلا منها الأمل وبدت كأنها دهر، عاد يحيى للظهور من جديد؛ شرح لنا الأمر ونحن في حالة غيظ وغضب. خلال ساعات قليلة سوف يحين موعد الإفطار، وهؤلاء الناس يريدون العودة إلى قراهم قبل الإفطار. وهذه السيارة التي استأجرناها كانت آخر أمل لهم للوصول في الوقت المناسب، ولم يكن هناك مناص إلا هذا الحل، سواء بالحاجوايات أو بدونهم.

كانوا يقولون لنا، السيارة تسعنا جميعاً، ثم رحلوا. رحلة البحث من جديد. سرعان ما أتى يحيى ومعه رجل طيب، هادئ سمح، عرض علينا أن يأخذنا إلى كريمة Karima ولكن بسعر مرتفع جداً، فكان ردّ يحيى هو التأفف من العرض، ومع هذا فالقدر - كما يقول يحيى - أحياناً ما يكون غريباً؛ كان عليه أن يعود ويطلب منه أن يحملنا إلى هناك؛ لم يكن هناك أحد، وكان حظنا جيداً أن كان هذا السائق من كريمة، البعيدة عن نقلة العجوز، ويعود إلى منزله، وإلا فلن يرحل بنا أحد. كان السيارة اقل شأناً من الأولى، فالجزء الخلفي بدون سقف، ولم يكن هناك مقاعد ذات مراتب، ليس إلا، اللهم إلا أعواد من الحديد وبعض الكاوتش فوقها.

أخذنا نقفز نحو الصحراء، ها هو شريط كاسيت آخر، وأصوات أخرى، الإيقاع نفسه المتكرر الرتيب. كنا في "منحنى دنقلة" التي تنتهي عند "جبل البرقل"، كان قلب النوبة، ذلك الإقليم البعيد، الذي احتفظ بعاداته واستقلاله الذاتي، حتى تحت الحكم المصري، وظلت الثقافة النوبية سليمة لا تمس في هذا المكان. ذهب بنا لنشاهد الأطلال القريبة من مدينة قديمة "جم أتن Gem-Aten أو كاوا Kawa ، عاشت قوش، في العصر الفرعوني، فترة من الازدهار والسلطان الأفريقي وتجلى ذلك في المعابد والقصور، كانت على صلة مباشرة بمعابد جبل البرقل، كل شيء تغطيه حتى الآن كثبان الرمال؛ كان النيل يسيطر على المشهد، إذ يمرّ مجراه إلى جوار تلك الأطلال، هادئاً ومسيطراً.

كان في كاوا Kawa المليئة بمعابد الدولة الحديثة، معبد شيده توت عنخ آمون، ومن هذا المكان استخرج الكميات اللازمة لصنع قناعه الذهبي وباقي الأثاث الجنائزي. كان للملك ألارا Alara ، مؤسس المملكة القوشية الجديدة في نباتة، مقراً دائماً، خلال القرن الثامن قبل الميلاد. ولم يتبق من أكبر المعابد المكرسة لأمون التي شيدها طهارقة إلا بعض الكتل الحجرية، وقواعد الأعمدة

التي تغير لونها واضمحلت بسبب الرياح والرمال، ضمت النقوش الكتابية هناك الإشارة الأولى لمروى. فن في الطريق الصحيح.

كان الوقت قد تأخر، واصلنا الطريق؛ وعند العودة إلى السيارة صعد يحيى وبير إلى الجزء الخلفي، أما أنا ففي الدرجة الأولى، في الكابينة؛ أخذت سكة المحايلة Sekat el-Miheila تظهر أمامنا؛ هي نفس الطريق الصحراوي، بعد تجاوز المنحنى الضخم للنيل والوصول إلى ما وراء الجندل الرابع، أي إلى جبل البرقل. وسرعان ما دخلنا الصحراء؛ السهل ممتد إلى ما لا نهاية، هناك هضاب مرتفعة على البعد، وبعض النخيل، تتوه الآثار في الكثبان الرملية، فالسيارة بعجلاتها التي خلت من الهواء كانت تسير بقوة؛ كانت تنزلق فوق المنحدر، بشكل جانبي، وتصعد متباطئة. وتنطلق في اللانهائي كان هناك شعور بالنشوة التي تضبط هذا الإيقاع وهذه الموسيقى والسيارة وهي تنزلق فوق الرمال وتكاد تتفسخ وهي تسير فوق الأرض الطينية التي جفت وبها آثار سيارات أخرى.

وأحياناً ما نجد الطريق عريضاً لدرجة تصل إلى ما يزيد على مائة متر، وتزداد السيارة سرعة، ويمكن لها أن تسير حيث تشاء في هذا الطريق الفسيح. في هذه التجربة الجديدة نجد أن أبعد نقطتين هو ما بين صخرتين في الجزء العلوي من الهضاب، ثم يعقب ذلك تغير مفاجئ في الاتجاه، كنا نصعد على الساتر الترابي لننزلق من الجهة الأخرى، غير أن السيطرة على عجلة القيادة هي الأساس كأنها مقود الحصان؛ من هنا يقال إن أفضل السائقين هم السودانيون؛ لم نعان أية أعطال أو مشاكل تتعلق بكاوتش السيارة.

لم نعرف أين نحن فوقفنا وسط العدم، السهول بلا حدود والفراغ في الجهات الأربع في دائرة قطرها مائة كيلو متر؛ كنا نسأل بعض الرعاة الذي يرعى عدد صغيراً من الماعز ويستظل بنخلة، ونسأل بعض الجمالة. كانوا

يشيرون إلى أفق يتوالى وراءه أفق آخر ويمتد أمامنا كأنه نقطة أبدية وبعيدة. عندما تسرع السيارة، نبدو وكأننا نطير ونقفز فوق الصحراء، وينقلت منا نغم موسيقى كأنه طيّارة تشق الفضاء. كان القليل ممن يصادفوننا يحيوننا بأيديهم، كنا نرد التحية؛ أتمسك بمقعدي، بدون حزام أمانٍ تنقبض معدتي، كان الأدرينالين يلف رأسي، لم أرد التفكير، وكان السائق يضحك ويضرب بأصابعه على المقود على إيقاع الموسيقى.

وبعد ثلاث ساعات، بدأ يظهر في الأفق خط أخضر، وسرعان ما وصلنا إلى واحة، كان النخيل قليلاً عند المدخل، ثم تحول إلى غابة حولنا، غابة ممتدة، تتبدى منها مئذنة بيضاء؛ كانت السيارة تنزلق فوق الكثبان العالية الصفراء التي كانت تهبط ثم تتداخل مع غابة النخيل. عند المدخل هناك شجرة كبيرة تمتد أغصانها كأنها مروحة. في الجزء العلوي هناك نسر بنى عشه؛ طار النسر عندما مررنا.

سرعان ما دخلنا في مخاضة رملية، نزلنا. كان هناك الكثير من المنازل، من الجدران المستطيلة الممتدة تحت النخيل، الحوائط مدهونة بالجير الأبيض تمتد فوق الكثبان. كان بير يشعر بمرح بالغ، استعاد الروح السعيدة المرحة؛ بقي مع يحيى في الجزء الخلفي منذ أن تركنا بلدة كيوا Kawa وصل وهو يشعر بطرب داخلي مما رأى من الصحراء، والسماء بقيتها والسهول التي تمتد بلا نهاية والإحساس باللانهائي، وأخذ يتجدد عنده ذلك الشعور بالخوف من الأماكن المرتفعة. سألنا، إنها واحة لاتي Lati الرائعة، كان السائق يبحث عن صديق، وكانت الشمس على وشك المغيب وربما نقضي الليلة هنا.

استقبلونا في منزل يقع أعلى الكثبان الرملية، كنا محاطين بالكثير من المنازل والنخيل، هناك عدد كبير من الأولاد، وبعض البالغين، يبدون وكأنهم عائلة كبيرة، تحركات الجميع قليلة وخاصة من ثلاثة منهم يبدون كأنهم أخوة،

وجوههم مليحة ومختلفون عن كافة من رأينا حتى الآن، كانوا من القبائل العربية. المدخل مغطى وكأنه مرآب سيارة مليء بالأسرّة، ها هو المأوى لنا. وضعوا السجاد فوق الرمال وجلسنا، أتوا بالتمر في صينيات كبيرة، خبز ممتاز، أطباق من الخضر واللحم، وبعض الأطعمة البدوية الرائعة، أما الشراب فكان ماء التمر (عصير التمر) والشاي وقهوة رائعة. انتهوا ثم بدأوا الصلاة، كان القمر مرتفعاً، قررنا القيام بجولة.

كانت صفوف الجدران تسير على إيقاع الكثبان، المنازل صامتة، الفراغات واضحة، والنخيل يؤكد على دخول الليل بظله، كانت غلالة ضوء القمر تغمر المكان بإحساس يذوب فيه معنى الزمن، كان يأتي كأنه من وجود غير واضح، من تلك الغابة التي ينعكس شعاعها الفضي على الرمال. سمعنا موسيقى تأتي من بعيد، أسرعنا الخطا وأخذت أرجلنا تغرق في الرمل في صمت في كل حركة، اقتربنا من إحدى الجدران البيضاء اللون حيث هناك أربعة فتية؛ لم نكد نراهم بوضوح، كل يرتدي جلبابه الأبيض، كانوا يجلسون عند مدخل منزل ويدندنون. يصطحبون عوداً بدائياً مصنوعاً من الأغصان والأوتار، وآلة إيقاع عبارة عن إناء من البلاستيك، كانت الليلة ساحرة، تتصاعد الأنغام من تلك الأوتار تصحبها الإيقاعات الصماء والصوت الأجش، كلها في الهواء اللاواقعي، تداعب ظلال البحيرة وصمتها. وسرعان ما انضم البعض منا بصوته إلى الأنغام المغناة.

لجأت إلى مكان مظلم، كانت الأنغام الصادرة عن العود يجعل الليلة مفعمة بالعذوبة، كنت بجلابيتي الزرقاء الداكنة ظلاً مثل كل الظلال؛ نظرت إلى القمر، وإلى أشكال النخيل وصعدت الكثبان. كان الضوء الأزرق يبدو كأنه قطعة شاش ضخمة تلف كل شيء. كنت أخمن أكثر من أرى. كنت وحدي، شعرت بأنني ذبت وسط ضباب أثيري، كانت الموسيقى تأتي من بعيد، وصمت

غريب ذلك الذي يلفني، شعرت أنني يمكن أن أكون من ذلك المكان وهذا الفضاء. كانت الواحة تحتضنني بسلام لم أعهد قبل ذلك هو شعور بالحب والسعادة وهدوء النفس. كل شيء: صوت العود من بعيد، الأشكال الصامتة وغير واضحة الملامح الدور النائمة وكثبان الرمال الباردة وحلكة ظلام غابة النخيل. لاحظت ذلك السلام الذي يغزو جسدي، أيمكن أن أطير؟ هل يمكن أن أصعد إلى النجوم صوب الجوزاء Orion النجم الثابت هناك في السماء؟ أو هل يمكن أن ألمس قمم النخيل وأقطع الهواء فوق الواحة النائمة؟ يمكن أن ترافقني في هذه الرحلة أنغام العود التي لا تسمع عن بعد.

عدت إلى المجموعة إلى جوار الجدار، كانوا يترنمون بأغاني قديمة من أغاني الواحة. لم يكن الصوت واضحاً فيما إذا كان لذكور أو إناث، فالأصوات كأنما خرجت من فلاوت ثم تصعد وتهبط وتبدو النغمات كأنها أصداء. تحدد آلة الإيقاع من البلاستيك الإيقاع للموسيقى، بدا العود أنه جوهرة من جواهر أحد المتاحف يعزف عليها أناس ينتمون لعصور أخرى، الجميع كان يغني، كنا ما يقرب من اثني عشر فرداً، وفي الظلام ظهر آخرون وهم يحملون البطاريات (الكشافات) الليلة رائعة، ولم نكن نريد لها أن تنتهي، المزيد من الأغاني والأنغام التي تدفع بالليلة إلى الحكايات القديمة للواحة، وحالات العشق وأسرارها ومخاوفها وطموحاتها. كم قرن مضى على الصور التي كنا نعيشها؟ كان لليلة مذاق قديم، مغرق في القديم، إنه نبض زمن لا بداية له؛ منذ ألف عام كان هناك فتية يعزفون على العود في تلك الواحة، يرنو إليهم القمر، لم نكن نحن قد أتينا بعد، لكن الشيء نفسه حدث. أغاني تبعثرت وسط الظلال المائلة للزرقة للنخيل.

عدنا إلى أماكننا غير راغبين، إلى أعلى الكثبان، قدموا لنا العشاء، في منتصف الليل، تحت ضوء النجوم، تحدثنا نحن الثلاثة، كنا على اتفاق فيما نقول: لماذا لا نظل هنا؟ بعد عدة ساعات أتى الجميع وقالوا بأنهم سيأخذوننا إلى

كازينو البلدة حيث يلتقي هناك السهارى، كانوا أكثر من عشرين فرداً، كلهم من الفتية، بعد مسار اتخذناه وسط النخيل انتهى بنا الأمر للجلوس على قمة جزء مرتفع من الكثبان يتجاوز ارتفاع الواحة؛ كان ذلك هو الكازينو، غاية في البساطة على شاكلة النماذج الأخرى، لكنه رائع. جلسنا حسبما اتفق على الرمال حتى لا ننزلق، أثناء الليل كنا نرى قمم النخيل تحتنا، كان المشهد يمتد في القبة السماوية، المترعة بالنجوم المتلألئة، تبدو وكأنها شديدة القرب منا، تشكل سقفاً مكوراً يبدو كأنه قطعة زجاج تتلألأ.

علا صوت الموسيقى من جديد، كانوا يتراقصون، البداية في صف وعلى الإيقاع، على طريقة النوبيين، وبعد ذلك قفزات غريبة، الجسد كله إلى الأمام، القدمان معاً متخذين أشكالاً تذكرنا ببعض الحيوانات، ربما كان ذلك نوعاً من تقليد لمحاربين قدماء، أو رقصات قديمة اعتادها الصيادون.يحنون أجسادهم، ويرفعون أذرعهم على الإيقاع الموسيقي، دعوني فلحقت بهم وأسلمت نفسي لهذه الحركة المتموجة؛ في هذه المنطقة المرتفعة، فوق الكثبان يمرّ النسيم ويسطع ضوء القمر، والأصوات القديمة في مسامعي، وأنين العود يدغدغني من الداخل. رقصت، في قلب النوبة، مثلما رقصت كثيراً في مصر. الإيقاعات نفسها، والتعبير عن الأسى على ما فات.

امتدت الجلسة طويلاً، أخذوا يغنون أغاني قديمة، كان نغمات العود تنتشر ومعها الإيقاع، كل ذلك يثري ساعات الليل. انخفضت الحرارة، شعرنا بالبرد، أخذنا نذهب وتواعدنا على أن يأتي كل واحد بأصدقائه في البلدة، وبعد فترة وجيزة أصبحنا وحدنا أنا والموسيقيين الاثنين، ظلا يعزفان ويغنيان حتى مطلع الفجر .تقريباً؛ نمت القليل من الوقت لكنه كان نوماً عميقاً. كان الناس جميعاً في ذهاب وإياب قبل أن تطلع الشمس. أخذ الضوء البارد ينقشع وسرعان ما أذاب سحر الليل؛ لا يمكن أن يكون هنا أكبر تقابل بين الليل والنهار أكثر من

ذلك. كل شيء واضح ومحدد؛ صنبور واحد، ودورة مياه واحدة، عبارة عن حفرة في الأرض. كان ذلك هو ما حصل عليه السائق لنا. كنا راحلين صوب دنقلة العجوز، لم يكن أهل الواحة يعرفون جيداً أين هي، فلم يذهب إليها أحد أبداً!، كانوا يقولون: نحو الجنوب.

ركبت في الجزء الخلفي، مع يحيى، لم أكن مهيأ لهذه الجلسة، طارت الطاقية مني وطلبت من السائق أن يقلل السرعة؛ لم يجد ذلك، كانت السيارة تندفع على الكثبان متجهة إلى أسفل، تتقافز بين المخاضات، تمتد الواحة، تتخللها قنوات ونخيل عال وقصير، ومنازل بيضاء اللون على الأرض. كانت تشبه الفردوس؛ سرعان ما خرجنا إلى الصحراء، وأخذنا نسير في العدم بسرعة عالية، كان يحيى راقداً على فرد كاوتش، متكوراً كأنه شكل اسطواني، يحتفظ بتوازنه ويبدو أنه نائم؛ أمر غريب كنت أمسك أعواد الحديد بقوة، أجلس على كنبة حديدية فوقها بطانية متهالكة. كانت الزجاجات تقعقع خلفي، وتصب الشمس حممها فوق رأسي، جسدي متصلب ويداي تمسكان بأعواد الحديد؛ كنت أنظر إلى الخلف أغطي وجهي حتى لا تؤثر فيه الرياح والرمل كثيراً. إنه الإحساس بأننا نعيش الانخفاض والارتفاع كأننا نلعب لعبة "الجبل الروسي" التي تزداد قوة وحدة.

كنا نتقافز بالسيارة، وكدنا أن نطير جميعاً من السيارة في إحدى هذه القفزات. لم أتمكن من الاستمتاع بالمشهد وأخذت أفكر. كيف تمكن بير من الاستمتاع به في المرحلة السابقة؟ كنت أقول إنه كان هادئاً ويغلب عليه التأمل عندما كانت السيارة مسرعة؛ حقاً، عندما دخلنا الواحة كانت الأرض ناعمة والشمس آخذة في المغيب. لم تكن تلك حالتي. إنها مسألة البقاء، كنت أنظر إلى الصحراء وكيف أنها تفرّ وتتفلت بينما أقبض بيدي على الحديد. أين منتهانا؟ سوف يكون الهلاك بالاصطدام بصخرة أو أي نخلة. ولن يعثر علينا أحد؛ هذا ما كنت

أفكر فيه، تركت كل شيء لعناية السماء، كانت السيارة تدور وتقفز وتنزلق، لم أتمكن من تناول شيء لأنني ممسك بيدي لأحافظ على توازني، ربما بلغت الحرارة 50 درجة، أشعر بأنني أنصهر، لكن التوتر كان كبيراً. ذاب دماغي ثم أخذ يسيل.

أخذت أفكر في ذلك الثنائي الأسباني الذي أجّر جملاً للوصول إلى وادي حلفا، لاشك أنهم تائهون مثلنا، استغرقا أحد عشر يوماً من دنقلة حتى المحطة التالية، يا لها من علقة! وبعد فترة كدت أشعر أنها دهر؛ توقفت السيارة ونزل بير. مضت عدة ساعات من السفر، كنت أشعر بشيء من الخوف دعاني للجلوس في الكابينة، كان قد خمّن صرخاتي الذهبية التي أطلقها في الفضاء وطالباً النجدة، ظل يحيى على حاله متكوراً في المؤخرة. تحسن المشهد كثيراً وأنا في الكابينة، الموسيقى العالية، هناك مقعد وسقف، تفتح الصحراء أبوابها لكن كنا هناك. إنه اتجاهنا، البحث عن مدينة مفقودة لا يعرفها أحد؛ نحن بين يدي سائق رابع، دائم الابتسامة ينقل إيقاع الموسيقى إلى المقود، يظهر السراب في الأفق، يغمز لنا ببحيراته الضخمة المتلألئة، ثم يذوب فجأة في جبال من الرمال كل شيء لا واقعي، كل شيء حقيقي.

بعد وقت طويل ونحن نرحل عبر الصحراء لمحنا، عند بعد، بعض الأطلال السوداء التي تعلو كثباناً مرتفعة من الرمال، وعندما اقتربنا اتضح أنها غابة من القباب المدببة تبدون كأنها أهرامات، تقطعها الروابي؛ كان ذلك جبانة إسلامية قديمة؛ تذكرنا القباب المفتوحة بخلايا النحل، كأنها غرف صغيرة من آجر أحمر علاه السواد، وفي الجزء العلوي للهضبة هناك مبنى كبير يبدو أنه قصر قديم، هو مسجد قديم. وفي المنطقة المحيطة، خاصة في الجزء السفلي، اكتشفنا تيجان أعمدة بيزنطية، والبازليكا ذات الأعمدة، وأبدان أعمدة من الرخام الرمادي تحيط بها الرمال من كل جانب؛ ظلت على حالها لم يمسسها أحد، كما كانت حوائط أديرة كبيرة وقديمة.

في الجزء العلوي، المطل على النهر، عثرنا على أطلال مدينة مهجورة، إنها دنقلة العجوز العاصمة القديمة للنوبة! لكن أين هي المدينة الفخورة بنفسها التي تقع على هضبة عالية تطل على النيل؟ وأين هو بحر النخيل الذي كان يحيط بها؟، أين هي الأبراج العالية التي شاهدها كيلود Cailliaud ، بأبوابها الضيقة التي تؤدي إلى دهاليز، ثم أين الكثير من المنازل؟ أين هي الشوارع في الأجزاء العليا التي تصفر فيها الرياح حاملة الرمال؟ لم يعد هناك شيء من دنقلة، أصبحت مهجورة تماماً؛ عبارة عن ذكرى دفنتها الرمال، لازالت حتى الآن حية بعد مأساة شنيعة. لقد قضوا عليها في الحروب الاستعمارية، في نهاية القرن التاسع عشر، لازالت هناك حيطان المنازل والأبواب، والنوافذ شبه مفتوحة، وصوامع الغلال والمطابخ. غزت الرمال كل شيء وإسودّ لون الدعامات الخشبية من جرّاء الحريق، وتهاوت الحيطان.

كان من البدهي أن تطوف الأشباح ليلاً بالمكان، بهذه المنازل والشوارع، بسكانها وصالاتها، لابد أن الرياح كانت تضرب بأعقاب الأبواب وبالضبّات، وتئن كمرات السقف الخشبية كأنها تتعرض لأقدام من يمرّ، وترسم الرمال ظلالاً ثم تتوه بين أطلال الأبراج والكنائس. تبدو خطواتي وكأنها ترنّ في الواجهات القديمة، أين هي تلك النظرات النسوية التي تطل من وراء النوافذ، وأين هم أهلها من الرجال من ذوي الشأن والفلاحين والرهبان، وثروتها الحيوانية؟ كنت أدخل عَبر الأبواب المفتوحة وأتأمل الأشكال المرسومة التي تتسم بالبساطة، على الحوائط؛ كانت أشعة الشمس تعبر من خلال الكمرات المكسورة، بينما هناك جبل من الرمال يغطي نصف المكان، في الطابق السفلي كانت "الزواليع" مرصوصة، في انتظار الحصاد التالي، لكنها لا تعرف أن قد اختفت صيحات الأطفال والخطوات المتسارعة على الرمال. دنقلة التي نبحث عنها لم تعد موجودة.

تذكرني كل هذا بأبراج ماني Mani المهجورة جنوب بيلو بونيسو Peloponeso في اليونان. بعد دنقلة التي لم يعد لها وجود خرجنا إلى الصحراء مرة أخرى، كان النيل يبتعد، عن يميننا، عبارة عن خط من النخيل؛ كانت هناك مزارع أيضاً؛ نلمح بين النخيل كثرة من أضرحة الأولياء، إنها المقامات أو "قبة الفقير" حسب التسمية الشائعة، هناك أبراج ضخمة من الطوب ذات أشكال مرتجلة كأنها هياكل كتلك التي توجد في شرق آسيا تقطن ذلك المشهد النيلي، لمحنا أحدها، يتسم بالضخامة مكون من عدة أدوار بالقرب من كرمة؛ لابد أنه كان مقصد الحجيج الذي يفد إليه بالآلاف؛ ولابد أنهم كانوا ينامون تحت غابة النخيل المحيطة به، وهو مولد ينبض بالحياة. في إطار البساطة التي هي طابع النوبة العليا، نجد بساطة حياة الفلاحين؛ المشهد المكشوف، وتلك الأضرحة الرائعة كانت عبارة عن زخارف رائعة، إنها لمحة فريدة في ذلك العالم، جوهرية في أبعادها وبسيطة التنوع الزخرفي.

توقفنا في الطريق دون أن نتشاور، شعرنا بالراحة لما فعلنا ونزلنا؛ كنا في قرية، المنازل قليلة في وسط قاحل، إلى جوار فرندة رطبة، كان بالقرب من المكان هرم صغير شهدناه في قرى أخرى، إنها مباني إنجليزية لازالت قائمة في مكانها. عبارة عن بناء أسمنتي به زيران، سبيل للمسافرين. اقتربت. على أحد جوانب، المدخل رسم أحدهم برصاص أسود أروع نمط من الجرافيت عرفته في حياتي، يبدو كأنه واحدة من المنمنمات الفارسية. هناك عصفوران يزقزقان داخل قفص مفتوح. من رسم المنظر؟ إنه شاب مجهول مرّ من هنا ذات يوم.

كان هذا المبنى غرفة مريحة ورطبة وملونة، بها مروحة سقف، مدهونة باللون الأخضر، ومبطنة بعلب الصفيح المتعددة الألوان. كانت هناك أجولة، وخلف بنك المحل هناك رجل ذو شعر مجعد يعلو ملامحه البشر. نظر إليّ مبتسماً؛ ملامحك تقول إنك عربي؛ ظللت أرمقه محدقاً فيه وأنا أشعر بالرضا. لم

يسبق أن قال لي أحد هذا، عربي، يا للفرحة عربي، نعم، وزميلك لبناني، هذا أكيد. شكراً يا صديقي؛ أما يحيى فلا يمكن أن يصدق أنه ليس نوبياً من خلفاء. كانوا يتحدثون اللهجة نفسها، لهجة كنوز بأسوان وكوم أمبو وسهيل، حيث يطلقون عليها متوكي Matoqui .

خرجت وقصصت ذلك، فرحاً، على بير الذي كان يأكل ويشرب ويدخن بلا توقف ويشعر بالرضا، يجلس على سرير في الفراندة تحيط به مجموعة من الفلاحين الذين تعلو الابتسامة وجوههم. أشار أحدهم إلى يحيى، ونظر إليّ قائلاً: لكن هذا بلون بشرته الشاحب لا يمكن أن يكون عربياً إنه رمادي. لا يهم. تذكرت أن قصص الأطفال التي كانت تقدمها لي والدتي الرحيمة بعنوان "البلاد البعيدة" كنت أنظر إلى نفسي على أنني ابن المفتي وليس ابن القسّ المبشرّ. تمكن صاحب المحل من أن يكشف في داخلي ماضياً كنت أشعر أنه يسيل في مسامّي، ها هو واحد آخر، حلقة في سلسلة هؤلاء، لكنه ربما كان أكثرهم شاعرية، وعميق الإنسانية.

عند مخرج القرية تركنا السيارة ودخلنا منطقة خالية، كانت هناك أطلال منتشرة على الرمال ومداخل لمقابر تحت الأرض محفورة في الصخر. وما بقي من تلك الآثار الضخمة هو هذه الأكوام من الحجارة؛ كانت عبارة عن مصاطب كبيرة لتلك الأجيال التالية في كل من قوش وكاوا Kawa ، أي مؤسسي المملكة القوشية الجديدة، وبعض الأطلال المتهالكة لهرم عبارة عن كتلة صمّاء، إنه أقدم هرم في النوبة، هرم بيانكي Pianky أو بيي Piye ، نباتي (من نباتة) المصريين، السيد الجديد "الأراضي الجنوب" من غزا مصر، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين،-الأسرة السوداء خلال الفترة بين القرن الثامن والسابع ق.م. وهي أسرة مكونة من خمسة فراعين وعاصمتها نباتة.

كنا في كورّو Kurru، الجبانة القديمة لمملكة قوش، حيث تولى فراعنة

آخرون من السود هم شاباكو Shabaqo، وشيبيكو، وآخرهم تانوت أمون Tanutamun. ومن بقى كان طهارقة الذي ذهب للإقامة على الشاطئ المقابل. هناك أيضاً تم دفن ملكات مثل كالحاتا ، وملوك آخرين من قوش، وكذلك خيل من خيول العربات الحربية، في أربعة وعشرين مقبرة، كان الملوك يحبون اقتناءها، استأنسوها في "منحنى دنقلة" لتقديمها كقرابين وتصديرها. فتحوا لنا المقبرة الصخرية لتانوت آمون، بها نقوش زخرفية جنائزية رائعة الألوان، عبارة عن نساء يرتدين أزياء الأبهة، وأشخاص ملونين بألوان غريبة، وأسّرة فوقها الموتى، وهذا ملمح غير مسبوق في الثقافة النوبية القوشية التي لازال يهتدي البدو بهديها.

عندما خرجنا قدم لنا الحارس كراسة، هي كتاب تسجيل الزائرين، فتح الكراسة ودعانا إلى الكتابة، قرأنا الإهداء الوحيد في ذلك اليوم "نحن أسبان نقوم بزيارة السودان..." عندئذ تذكرنا أن دنقلة العجوز كانت مقصد بعض السيارات القادمة من الصحراء، إنها سيارات دفع رباعي لها زجاج معتم، منها نزل عدد كبير من السائحين؛ على البعد، لم ندرك أنهم مواطنون منا من ذوي الطبقة العالية.

واصلنا الرحلة، اتخذنا طريقنا بالقرب من النهر، هو طريق تحف به الأشجار والمزارع في الجانب الأيسر، وغابة من النخيل على الجانب الأيمن، بمحاذاة النيل. عندما انتصف النهار ونحن سائرون، أخذت القرى التي نمر بها تفقد جمالها. لمحنا الجبل المقدس عن بعد. إنه جبل البرقل، كان جبلاً وحيداً في عمق السهل، له نتوء عجيب في ذلك الطرف المطل على النيل، عبارة عن شبه عصا؛ وأصلنا السير على هدى الأثر حتى دخلنا فيما يبدو أنه قرية كبيرة. إنها كريمة، لم يكن هناك بها إلا فندقان، لا خيار بينهما في السوء، لكن المشهد هو الذي يجذبنا؛ لابد أن سحنتنا خانت أفكارنا. كان السائق قد دعانا إلى منزله في

تلك الليلة وكان يلح في هذا، ثم يستأجر لنا مكاناً في اليوم التالي، وسوف يدخل السرور على قلوبنا ويقيم حفلاً موسيقياً حتى ننسى الواحة بعض الشيء.

عبرنا البلدة، صعوداً على المنحدر حتى وصلنا إلى منطقة خالية كأنها ميدان، هناك كان منزله، به شجر وصحنان ومساحات كبيرة، سقطنا من الإعياء على سريرين في الهواء الطلق، انطلقت إلى المرحاض، فلم أذهب لقضاء حاجتي منذ أن كنا في دنقلة الجديدة. رحب بنا سائقنا الكريم في منزله، جلسنا تحت شجرة فاكهة، أتوا لنا بالحصر البلاستيك وإفطار غني، له عائلة كبيرة، فكان كل الشباب يساعدون في أعمال المنزل.

كنا مرهقين لدرجة أننا قررنا مواصلة ما نحن عليه، لم نخرج ولا للحظات، تذكرنا لاتي Lati بحنين، يا لها من ليالي مختلفة عن بعضها، تحيط بنا الجدران من كل جانب، لم نر إلا القليل من النجوم. نام يحيى، لابد أنه كان مرهقاً بعد هذه الرحلة المضنية، فقد ظل في خلفية السيارة راقداً من دنقلة حتى كريمة. قلت لنفسي: لن يفعل ذلك إلا فيلسوف شديد الزهد دون أن ينبس بكلمة. شعرت أنه ضحى كثيراً من أجلنا هو وأصدقاءه. أعجبت بجرأته وشجاعته وهدوئه ونظراته الحزينة الهادئة، بدا أنه منصاع لأقداره، كأنه يعرف ما يحدث، كل شيء.

حل الظلام، وبعد تناول الشاي قررنا الاستسلام للنوم. كان هذا مبكراً على وقت النوم الذي اعتدناه وهو الثالثة فجراً. كان يحيى قد استيقظ وأخذ ينظر حوله ساهماً، لا تعجبني هذه البطانية، تبدو لزجة فقلت له: عندي واحدة أيضاً على نفس الشاكلة لكني لا أشكو منها. آه، وهذه الأخرى، الحمراء، التي تبدو جديدة؟ شدها بير نحوه وهو يبتسم، وقال: هذه بطانيتي، لقد أتى إليّ بها ابن صاحب الدار وأعتقد أنهم اشتروها للتوّ، فلم تكن لديهم بطاطين بما فيه الكفاية. آه يا بير، إن أخاك الصغير على استعداد لمبادلة تلك البطانية معك لينام ملتحفاً

بهذه البطانية النظيفة والناعمة. أعتقد أنك سوف تتمسك ببطانيتك. هكذا بدأ مشهد البطانيات، ودار نقاش كثير.

في الصباح حملنا حاجياتنا مرة أخرى إلى السيارة، وركبنا وبينما نسير في شوارع البلدة خرجنا على منطقة خالية تبرز فيها كتل الحجارة، هي أطلال مقابر نوبية. اتضح لنا أن كانت دارنا الجديدة هنا، إنها فيلا تعود إلى الخمسينيات من القرن العشرين؛ كان السائق نفسه من الصحبة الغريبة الذين يرافقوننا. كان هناك صحنان بهما حوض وخزان مياه في الأعلى، وصالات كبيرة ومرحاض ومطبخ. إنه الترف الآسيوي. كان بير مستغرقاً في التفكير، أخذ يغسل كافة ملابسه في الطشت الوحيد الموجود؛ كان متوتراً، وصامتاً، ومنغلقاً على نفسه، كانت مياه الغسيل عكرة جداً مليئة بالتراب. قمنا بترتيب المنزل وخرجنا جميعاً، ولكن ليس قبل أن أقدم ليحيى بطانيتي.

طفنا بكريمة متجهين أسفل المنحدر حتى وصلنا إلى منطقة خالية إلى جوار خط السكك الحديدية، وعندما تجاوزناها، وجدنا السوق الذي يعج بالناس، ليس بعيداً عن النهر؛ شهدنا من جديد المنازل التي رأيناها قبل ذلك. تختلف عن باقي القرى النوبية، فقدت جمالها الهادئ وأشكالها الرقيقة والمنتظمة وتلك الألوان الزاهية والنظيفة، أي تلك التعبير عن ثقافة مشتركة. في كريمة، ذابت النوبة. الطريق مستقيمة، ترابية، تتقاطع بزوايا قائمة، المنازل كلها صغيرة، من الأسمنت أو المكعبات الرمادية أو الباهتة، لا توحي بأي طرافة. القليل من الأشجار، قاحلة وخاوية على عروشها؛ لا تبدو أنها شديدة النظافة؛ هناك الكثير من الأنقاض، جرداء، يبدو كل شيء كأنه قديم. هرولنا للبحث عن بنك، فهم على وشك أن يغلقوا، كانوا يغيرون اليورو دون مشاكل. لا يقبلون الجنيه المصري. كان بير يشكو من أنه مغلول اليد، فليس في يده شيء. أخذنا نتقاسم ما معي من نقود. قلت مازحاً: ها أنت تائه وكنت تفكر في المجيء إلى السودان

حاملاً معك "الفيزا الذهبية" وحذرتك من هذا. فقال: هذا ليس صحيحاً! لقد حملت معي الكثير من النقود لكن سامي هو الذي جعلني أقوم بتغيير كل ما معي. لابد أن آذان سامي تطن من هذا الاتهام الرخيص والذي لا معنى له.



"Tenía el encanto de una miniatura persa..."

شكل رقم 2

كان السوق في كريمة كبيراً، به التندات وتحتها الكثير من الملابس والأثاث والسلع الغذائية، وتحت كان الظل منعشاً، بينما كنا نبحث عما نريد. الحرارة كانت مرتفعة، تحت وهج الشمس؛ فكر يحي وبير في طهي طعام بالمنزل. كانت الشمس حارقة في كريمة، تكاد تصهر المرء حياً، والهواء ذا طعم ترابي تجف منه الأفواه. اتجهنا نحو التندات التي تحتل وسط الساحة؛ في هذا السوق، المقام في الهواء الطلق، كان البائعون يتمشون أمام طاولات كبيرة تحت ظل سقف كبير، يقدمون شرائح لحم وخضار وفواكه وأسماك. كل شيء حقيقي بما في ذلك الذباب. كان البائعون لطفاء، يبتسمون، لا يحبون التقاط الصور. غضبت امرأتان من بير لمجرد المحاولة. خرجنا من السوق ونحن نحمل ما اشترينا، نسير تحت وهج شمس حارقة.

عدنا بالكنوز وضعناها في الثلاجة، واصل بير الغسيل. خرج كلانا، يحيى وأنا، إلى الأرض الخالية التي تضم الكثيرين تحت ثراها، واتجهنا بالسيارة صوب جبل برقل حيث سنحصل على تصريح بزيارة الأطلال. كانت الرابعة بعد الظهر، وأخذت تخف حدة وهج الشمس. صعدنا تل الرمال، درنا حول سور من الطوب. كان ظل الجبل علامة على ضخامته وقربه وقوته؛ عبارة عن كتلة رأسية ضخمة، تبدو أمامنا بالضبط. إنها العصا. على اليمين، ظهر مبنى كأنه قصر كبير من الطوب، له بوابة ضخمة مزخرفة، جدران ممتدة شديدة البياض بها أشرطة تضم أشكالاً زخرفية على امتدادها. وفي الداخل نرى قباباً تبدو كأنها هندية، إنه هذيان الخيال الشرقي، واحة لعلماء الآثار الإيطاليين.

اتضح أنها محاكاة للمنازل النوبية القديمة، بواجهاتها الرائعة، غير أن الأسلوب المبالغ فيه يتناقض مع كل ما شهدناه. فقدت النوبة العليا ذلك الميل إلى الزخارف، ولم تعد النموة ترسمن على الواجهة، وعادت الجدران النوبية لتكون هندسية الشكل وبسيطة، ألوانها رمادية وبيضاء وناصعة البياض، دون أية

نقوش. ومن جهة أخرى، خرجنا من النوبة، وكان لمنازل كريمة شكل شديد الاختلاف. هذا الخيال النوبي في كريمة كان خارج السياق، رغم أنه كان كأنه إصيص ورد يزين الطريق صوب جبل برقل.

لم يكن المدير موجوداً، وجهونا نحو منزله، عدنا من جديد صوب الجبانة، الغناء، ثم توجهنا على عجل إلى المنزل بحثاً عن بير. لم يكن يريد الخروج، وعدنا. في الشارع كان ينتظرنا رجل شاب، طويل القامة وجاد الملامح، نظراته ودودة وبشرته سمراء، كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً. صعدنا إلى مكتبه في منطقة مرتفعة إلى جوار الأطلال، دخلنا عبر دهليز، وأمام أحد الأبواب فتح قفلاً ضخماً. دخلنا غرفة خالية سقفها مرتفع، بها دولاب خاوٍ على عروشه، وترابيزة نظيفة وكرسيان. السقف به لمبة. أخرج بعض الأوراق وقلم رصاص وكرّاسة. كان هذا هو كل ما لديه. بينما كان يحيى يشرح له ما نريده، وكم حجراً وكم معبداً لاحظت أن نظراته ثابتة. كنت قد غرقت في كرسي وطيء مستغرقاً في هذه البساطة التي عليها هذا المشهد الإداري. كان ينظر إليّ بفضول فيه رأفة، لست أدري ما الذي يقوله يحيى له. هل تريد أن أشرح لك الأطلال في الجبل؟ – قالها لي بصوت ناعم. قبلت ذلك شاكراً.

أخذ يحيى السيارة، كان يريد أن يساعد في إعداد العشاء، أما أنا فقد سرت متحمساً مع ذلك الفتى، أخذ يشرح لي قصص معبد آمون بينما نسير مسرعين حول الجبل. كان الفراعنة يطلقون عليه "الجبل المقدس"، "الجبل المحض". شرح لي أن آمون نباتة كان ذا رأس كبش، بينما كان آمون طيبة إنساناً له رأس كبش على أنه حيوان مقدس. كان هناك وحي آمون، الذي يشرف عليه الكهنة المصريون. إنه المكان المقدس الأكثر أهمية سواء خلال الإمبراطورية القوشية أو المملكة المروية. الذروة التي تبدو وحدها أمام الجبل، وكانت – طبقاً لقوله – صورة حية على رأسها التاج الأبيض رمز مصر العليا،

خادمة آمون الذي يقيم داخل الجبل، كما توضح ذلك النقوش في "أبو سمبل" وهناك صور أخرى ترجع إلى الدولة الحديثة.

أخذني إلى أسفل هذه الصخرة الرأسية، وفتح باباً يؤدي إلى معبد صغير منحوت في الصخرة. ربما كان كفاً قديماً؛ كان هذا ما يطلق عليه تيفونيوم Typhonium، مقدساً عند طهارقة على أساس أنه مقام الآلهة موت، زوج آمون؛ غير أن هذه النسبة غير المنطقية لم تنس أحداً الحماة الإلهيين الحقيقيين، فهناك نقوش، تغمر المكان، على الحوائط حيث تظهر الآلهة حتحور وآلهة أخرى قدامى وعمالة؛ هناك الإله ست على شكل أسد، وكلها يرفقها الإله القزم بس Bes. خرجنا.

كانت هناك أعمدة صغيرة وتيجانها رؤوس بقرة مقدسة، تحيط بفراغ مكشوف تحت الكتلة الصخرية. أخذنا نقفز من صخرة إلى كتل حجرية، اتجهنا نحو سلسلة من الأهرامات الصغيرة، تبرز بقممها بين الرمال. كانت مثلثات كاملة تتبدى معتمة في الصحراء. كانت تشكل منظراً يكاد يكون شاعرياً، تقبع أسفل ذلك الجبل المتوحش الذي يطل بقوة إلى جوارها.

قال لي: لا توجد هنا أهرامات للملوك، فكلها قائمة في كورّو Kurru وخاصة في نوري Nuri. أما أنا فقلت: وفي مروى القديمة إلى أين نحن ذاهبون؟ قلتها وأنا أتحذلق لغوياً في نطق الكلمة هل هي مروى Marawi ؟ نعم، يبدو أنهم يسمونها الآن هكذا، Marawi ؟. إنها هناك على الشاطئ الآخر للنهر، ليس بها أهرامات. هناك فقط بعض القصور والمعابد، لم أكن أريد أن أفهم شيئاً. الغموض يطل برأسه من جديد، هناك مدينة أخرى لا ندري عنها شيئاً؛ غير أنني هذه المرة لن أتراجع. لا، لا مروى Mirawi ! – قالها وهو يضحك، إن ميراوي Mirawi بعيدة عن المكان، عند منحنى شندي، وهذه بها أهرامات جميلة. كل هذا خرج عن إمكانياتي، ما أسيطر عليه معلوماتياً هو ابتداء من

وادي حلفا حتى هنا. فقط؟ – فكرت – لكن كيف؟ لم أعد أتذكر جيداً هل هي Marawi ؟ أو Mirawi ؟ الأمر سواء. وجدتها؛ غير أن كل هذا جعل البلد وقد أحاطت به مجموعة من الألغاز. المرء هنا يجمع البراهين، كانت مروى Meroe هي الهدف.

تذكر أن القدماء يحكون أن للنيل كان يعبر إقليماً غامضاً، فيه تحول مساره وأخذ يسير في اتجاه عكسي. شك الكثيرون في هذه الرواية. فأجاب؛ هذا صحيح، إن المكان الذي جرى عنه الحديث هو هذا. ففي منطقة جبل برقل يرسم مسار النيل حرف S أي أنه يتجه إلى الجنوب بدلاً من مواصلة السير شمالاً وهو المسار الطبيعي. هكذا أخذ قطعة من الخشب ورسم على الرمال منحنى النيل الذي يتحدث عنه. وقال: هناك ظاهرة غريبة تمخضت عن ذلك في كلا شاطئ النهر. أخذ يضع نقاطاً بالخشبة على الأرض؛ الشرق والغرب يغيران مواضعهما في علاقاتهما بالنيل. وبالتحديد نجد أن الشاطئ الشرقي للنهر يقع في الجهة الغربية، مع جبل البرقل، أما الشاطئ الغربي فهو إلى جهة الشرق، حيث نباتة، وهذه حالة فريدة في مسار النيل بالكامل؛ فكرت، يا له من كلام مستغلق. لابد أن الأمر بدا للناس المقيمين هنا على أنه سحري وأسطوري.

أخذ يتجه نحو الجبل، أخذنا نصعد جبل البرقل رويداً رويداً، تزداد الوعورة كلما صعدنا، علينا أن نمسك بالصخور حتى نتزحلق في الرمال، فهذا أمر يسهل وقوعه والمرء يرتدي الجلابية، كان الجبل يأخذ في لحظة ما شكل الرأسية المقلقة، بينما أصعد، لاهثاً، أمسك بيدي وقدماي حسبما اتفق. أما رفيقي فقد كان أكثر سرعة وخفة في الحركة، كان ينتظرني بين الحين والآخر. كانت قمة الجبل مسطحة بالكامل، خليط من الصخور وكتل الحجارة، كانت الأراضي ترتفع قليلاً، هناك طفرة في الوسط ثم تستمر. يبدو المكان وكأنه ظهر مركب عابر للمحيطات يتجه من الصحراء صوب غابات النخيل والنيل.

وصلنا إلى المقدمة، أسفل كان وادي النيل يمتد، يبدو صغيراً. في الجهة اليسرى، كريمة، عبارة عن منازل وطينة وصحون من الرمال وأشجار. أما في المقابل فهناك الواحة التي وصلنا إليها في اليوم السابق، موازية للنيل. وبعيداً، نجد الشريط الأزرق للنيل، واضحاً وبعيداً. على اليمين وفي العمق نجد الصحراء، وفي الأسفل تبرز كتلة القمة، تكاد تصل إلى حيث نحن واقفون على الأرض، هناك أطلال المعابد التي تحيط "بالجبل المحض" أي معابد آمون وحتحور، تبدو وكأنها مدهوسة، تتوافق أفقياً مع آخر خيوط ضوء النهار.

اقتربت من الحافة وأنا أحبو، ونظرت، إنها هوة سحيقة، الحمد لله على أنني لا أعاني الخوف من الأماكن العالية، تجولنا في الواجهة حتى شهدنا فتحتين اسطوانيتين، غير عميقتين، إحداهما إلى جوار الأخرى، أعلى الجبل، تتوافق مع الكتلة الخاصة بالقمة. شرح لي: نعم هذه القمة تمثل الحية المقدسة عند المصريين من أهل طيبة، أي Uraeus ؛ هذه الفتحات هي، طبقاً للآثاري د./ كندال – الدليل على أنهم أقاموا هنا "شادوفاً" يساعد على الصعود حتى هذه القمة، حيث عثر هنا على تمثال ذهبي صغير لطهارقة، وسجل اسمه بحروف مذهبة، بدا الشرح غير متوائم مع قدسية الجبل.

شمرت عن ساعدي. هذا الجبل هو أقدم بكثير من طهارقة وحكام طيبة من المصريين؛ كان هذا الجبل مقدساً على زمن ما قبل التاريخ. وعلى بعد أقل من متر من الهوّة أشرت إلى النيل، كنت أشعر بالهواء. كان المدير يرمقني باهتمام خوفاً من اصطدامي بشيء وأنا متحمس... لكن من هنا مرت أكبر عملية تهجير في التاريخ، "الخروج من أفريقيا"، ربما كان جماعها من بقي من قبيلة سان San أو القبائل الأفريقية الأخرى العريقة، ثم أتى كثيرون بعد هؤلاء وهم الصحراويون – السودانيون. وبعد كارثة طبيعية كبرى، وقعت منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام، ظهر في وادي النيل الأوسط من يطلق عليهم المتوسطيون

الأريتريون والأثيوبيون، صوب مصر، أرضهم الجديدة؛ توجه من يسمون Proto-capsienses نحو المغرب (الشمال الأفريقي) و Proto-semitas نحو الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية. "الجبل المحض" كان موجوداً في تلك الأزمنة، كان المركز المقدس في وادي النيل. للجميع مرّ من هنا.

على زمن ما قبل التاريخ كان كل جبل أنثوي، يحمل في داخله الحية، سيدة الزلزال ومبدعة الأشكال الأولية؛ غير أن هذا الجبل مختلف، كان ذكراً وأنثى hermafrodite مثل الآلهة القدامى في هذا الكوكب. فمن أحشائه خرجت هذه الصخرة الضخمة على شكل عضو ذكري واضح، ولاشك أنه كان الرمز المقدس للخصوبة منذ أزمنة بعيدة، لأسباب بدهية، كما كان رمزاً للفيضان، عندما استقرت هنا أوائل قبائل الرعاة في بداية العصر الحجري الحديث شعرت بهذه المسحة السحرية السائدة في هذا المكان وهي أن مياه النيل تأخذ اتجاهاً معاكساً، وأخذت تتأمل جبل البرقل، وكرست الجبل لآلهة الخصوبة.

عندما وصل المصريون إلى هذا المكان أثناء الدولة الحديثة لم يتمكنوا من القضاء على المفاهيم الدينية القديمة السائدة، عندئذ ربطوا بينها وبين آمون طيبة "أبي المختبئ" إله الخصوبة. انظر إلى هذه المساحة المستوية أعلى الجبل والفتحات الغريبة، يمكن أن تكون هذه تمثيلاً رمزياً للعينين الأسطوانيتين والمتجاورتين اللتين ينبع منهما – من الأرض –، هنا في أثيوبيا، النيل الأزرق، بمياهه الغزيرة والضرورية لحدوث الفيضان. إلى هنا كان يصعد الكهنة المكلفون بالطقوس، كانوا يأخذون مياه الأمطار التي تجمعت في هاتين الفتحتين، وهذه المياه دليل على درجة الفيضان، ثم يلمسون من أعلى مقدمة الكتل الصخرية الشبيهة بالعضو الذكري، ثم يرقصون، يرجون النيل فيضاناً مسخاً غدقاً، أما باقي المتعبدين، فيقفون ويرقصون في أسفل الجبل في معبد الإله بس، الكبير ومعبد الآلهة حتحور، سيدة الحب والعشق والمرح، وهي أيضاً سيدة

الموالد، بينما يقوم المتعبدون بالحضور إلى قدس الأقداس حتى يهبهم الكبش القدرة على إنجاب الأبناء ووفرة في المحصول.

هكذا ظلت قوة جبل برقل كما هي، هي الرمز المقدس للنيل الأوسط، وأبرز الصخور الرئيسية على الإطلاق. كان ينظر إليّ بحماس. قلت له: نعم لابد من الرجوع إلى ما قبل التاريخ، فبدون ذلك لن نفهم على الإطلاق ما حدث في النيل. علينا أن نعيد النظر، أن ننظر من جديد ونحاول فهم منهج التفكير البسيط الذي كانت عليه تلك القبائل. أن نشعر بالاحترام والوقار والخوف الذي كانوا عليه وهم يرون هذا الجبل.

تأخرنا، أوشكت ساعة الإفطار، وأخذ ضوء النهار ينسحب بسرعة. عدنا صامتين. في لحظة ما كان المدير الشاب على حافة الهاوية، حيث انعكست على وجهه آخر خيوط ضوء الشمس، جلس ليخلع نعليه؛ لم أفهم ما يحدث ولم أر أي طريق وظننت أنه يود أن يرتاح. جلست على صخرة إلى جواره تحت أقدامنا كانت هناك كثبان رملية شديدة الانحدار، كانت الرمال تصعد حتى قمة الجبل. إنها أكثر من مائة متر، هذا ما فكرت فيه، أمسكت بما حولي خوفاً من... نهض الفتى، أشار إليّ بيده ثم مشى. بدأت بعض الشيء، وسرعان ما فهمت قصده، كان ذلك هو طريقنا!

ربطت أطراف الجلابية وقفزت في الهواء، أصبح جسمي كالريشة، أسبح في الهواء. كانت الرمال تبتلع قدماي العريانتين، لأعود فأقفز من جديد. لم أشعر من قبل بهذه المتعة، الإحساس أنك تطير، اللانهائية، كان الهواء رقيقاً ذلك المساء، والشمس عند المغيب، والأهرامات عبارة عن مثلثات صغيرة تحتنا، تغوص قدماي في الرمال المرة تلو الأخرى، يزداد الإحساس بالخفة، بدا هذا السقوط الرأسي بلا قرار بدون نهاية، كنا نطير مرة بعد مرّة، قفزة في الهواء وسقوط. كنت أطفو. تملكني إحساس بسعادة غامرة.

كنت أشعر أنني خفيف الوزن، يعتريني سلام داخلي، سعيد وكأن الجبل المقدس قدم لي هدية عظيمة، إنها عملية الخطوات الأولى للمبتدئ. تجربة فريدة في حنايا الجسد. وصلنا إلى الجزء السفلي، مررنا بمعبد آمون، أشار المدير إلى بعض قوالب الطوب اللبن المجفف بحرارة الشمس، ملقاة على الأرض. قال لي بأن الحجيج كانوا يملأون تلك الفوارغ بالحبوب ويقدمونها قرابين للإله، ويكسرونها أمامه؛ إنهم يستوحون الطقوس الأوزورية المتعلقة بتجدد الطبيعة سنوياً. ودعته على وعد بزيارة أخرى، دخلت المنزل وأخذت أقصّ عليهما كل شيء بما في ذلك هدية المبتدئين، أصاب الحماسُ يحيى، لكن بير لم يكن على الدرجة نفسها، حقاً! حقاً! – كنت أقول – سوف نذهب أنا وأنت غداً ونتناول الإفطار أعلى الجبل!

أعدّا طعاماً فاخراً. كان عليّ أن أغسل الأطباق، هذا طبيعي، فأنا آخذ صفراً في الطهي. أما الشاي ففي صحن المنزل، دردشنا. كان يحيى ساهماً منذ عدة أيام، لكنه قال لنا تلك الليلة: إنني أحب! تحب زوجتك. لا، أحب أخرى، زوجتي هي رفيقة حياتي؛ لكن هذه هي حالة مختلفة. إنها أسبانية من الشواطئ المتوسطية. قضينا أسبوعاً كاملاً ونحن في فندق في الأقصر، كانت تسعة أيام في حقيقة الأمر، أعجبني كل شيء فيها، عينيها، رائحة بشرتها، جسدها النحيل، أخذ يشرح التجارب التي عاشاها سوياً حتى الفصل الأخير. هنا سكتت شهر زاد عن الكلام المباح. يا له من حظ طيب، أن يشعر المرء بأنه في حاجة للآخر! شربنا الأنخاب بالمياه العادية والغازية، في صحة الشوق!

خرجنا، كانت النجوم تحدد ملامح السماء في هذه الظلمة الدامسة، وكانت الرياح تصفر، لم يكن هناك أي ضوء، إنها نقطة ضوء واحدة، أخذنا نتسلى ونداعب الأخ الصغير. اتصل بير بزوجه من محل. كل شيء يسير بحالة جيدة! وماذا عنك؟ هل تعرضت لحادثة بسيطة؟ الآن لا، حسن، سوف تقضين

عليّ. وصلنا إلى منزل المدير، دخلنا صحناً كبيراً من الرمال متصل بالصحن الآخر، كل شيء يتسم بالبساطة، كانت هناك ترابيزة موضوعة في الهواء الطلق إلى جوار أعمدة من الأسمنت، كانوا يلعبون الكوتشينة بجد واهتمام. هم أربعة.

حيونا أطيب تحية عند وصولنا، من أين أنتم؟ وجهوا هذا السؤال ليحيى بطريقة مهذبة. نحن أسبان. ساد صمت. ذهبت تلك الصيحة التلقائية والابتسامة العريضة التي رأيتها وسمعتها في الشرق الأوسط طوال سنوات. تحدثوا بصوت خافت بينهم، كنت أفهم ما يقولون، ما استطعت فهمه لفظة حرب وجنود...، لا شيء أكثر. واصلوا اللعب وقدموا لنا الشاي، وقهوة سودانية طيبة وبعض الحلوى. كان اللعب هو محور الاهتمام خلال تلك الليلة وتركز اهتمامهم حول الكوتشينة.

عندئذٍ تذكرت تلك الصيحة التي لم نسمعها منذ بداية الرحلة. إسبان! إخوة! الأندلس، طارق، الحمراء في غرناطة هل هناك من يؤدي الصلاة الآن في جامع قرطبة؟ هذا الترحاب كان رفيقي دائماً في بلاد المشرق ابتداء من سوريا وتركيا وحتى مصر والأردن، كنا، معشر الأسبان، مختلفين عن باقي الأوربيين، كنا أشقاء، لم نقم باحتلال أراضيهم أبداً، بينما أتوا هم إلينا لطرح ثقافتهم العظيمة على جزء من الفردوس، الأندلس، إقليم الأندلس. متى سنكون على الشاكلة نفسها من جديد؟ رغبت لو أن ذلك حدث بسرعة؛ لكنني فكّرت في التاريخ والذاكرة العنيدة للشعوب.

واصلوا اللعبة لمدة طويلة، إنها لعبة الكونكان، حيث يسقط اللاعب تلو الآخر، كانوا يركزون انتباههم على الورق وفي صمت. كانت الليلة ظلماء، تهب نسمة لطيفة في الصحن، ودعناهم، بعد أن اتفقنا على الذهاب غداً لمشاهدة أطلال نباتة وثوري بصحبة المدير الذي كان عليه، أن يكتب تقاريراً. خرجنا، سعداء، برفقة نسمات الليل، كان المدير يرافقنا، كانت مساحة الرؤية ضعيفة

وحاولنا عدم الاصطدام بالطين، وسرعان ظهرت الباحة والجبانة. حييناه وودعناه، حثثنا الخطى، درنا حول تلك الحجارة التي تبرز عن مستوى الأرض. لم ترقني أبداً هذه المنطقة وأعتقد الشيء نفسه بالنسبة لبير.

كان الجو بارداً، أطفأنا النور، كان يحيى ينام في مكان منعزل، أما أنا وبير فكل أمام الآخر إلى جوار النوافذ والصحن. نظرت إلى بير الذي تغطى جيداً بالبطانية الحمراء، وأغمض عينيه. ليس هناك صوت. أطفأت اللمبة واقتربت ببطء من سريري. لمست بطانية لزجة، أنها بطانية يحيى! لقد نسيت، وضعتها فوق قدميّ وكوّرت نفسي تحت جاكتة خفيفة لم تغط إلا الجزء العلوي من جسمي حتى الحزام. حاولت ألا أعطس كثيراً، بنسيان البرد. إنها ليلة قاسية، ليلة المبتدئ (المريد).

كان بير هو الذي ينهض مبكراً، لاحظت ذلك الصباح أنه قد غطاني بالبطانية الحمراء، بينما ذهب إلى الدُّش، شكرت له ذلك بينما كنت أقوم بممارسة تمارين الصباح وأنا مغمض العينين بأن أضع نفسي في البداية (الألفا) وراجعت ببذى "تشكراس Chakras" الأزرق والأخضر، لشحنهما والتزود بالطاقة ومواصلة الرحلة. أثناء تناول الإفطار، تمدد بير هادئاً. أعتقد أنني نسيت في بنطلوني الذي وضعته في الشنطة التي فقدتها مبلغاً كبيراً من اليورو. قالها وهو يدخن ويتناول الشاي. لكن ماذا تقولُ مبلغ كبير؟ نعم، هذا أكيد.

شعرت بالحسرة. لكن هناك أمر لم أفهمه جيداً؛ كان بير دائب عدّ ما معه من نقود، ومع ذلك نسي مبلغاً كبيراً من المال لمدة طويلة. يبدو أنه لم يعر الأمر اهتماماً. عجباً، المال لا يهم، لكن الشيء الذي يضايقني هو أنه يرتدي بلوفراً كنت قد وضعته هنا! ظلت الأسئلة حائرة تبحث عن جواب، ولم تفارقني، ولم أشأ فتح باب الجدل. ما الذي دفعه ليقص علينا ذلك، حيث لا يبدو أنه منطقي، فيه توضع مسافة بعد نفسي بينه وبين أصدقائه؟

لم يجد يحيى سبباً للجدال رغم أنه قد لا يعتقد أبداً في هذه المقولة الغريبة. أتذكر أنه كان يكرر قائلاً: آه يا صديقي، لست أدري ما الذي كان سيحدث لو كنت سافرت معه بمفردي. لنحمد الله أن ألهمك المجيء معه. نحن نعرف كيف هم الأصدقاء، لكل واحد منهم شطحاته، لكن لو كان بير وحده لكان قد فعلها معي في السودان في وسط الصحراء، ولكنت قد عدت إلى منزلي في اليوم الثاني. كنت أضحك، الحمد لله أننا ثلاثة، كما أن المضايقات والتوترات تزول بمجرد أن نعبر الطريق.

من البدهي أن بير كان يشعر بانفصام، يصطدم مع خيالاته وأوهامه المرة بعد الأخرى. بدا أنه منعزل بشكل ما، وأنه تائه. فرحلته العقلية تتجه صوب منحنى آخر، وهي على أية حال لا تتسق مع الواقع، أحياناً ما ينزل إلى أرض الواقع لكن عالمه الداخلي يحول دون أن يرى جيداً. كان يهدأ فقط، بعد أن يجعل عدداً ممن حوله يضيع عليهم صوم رمضان، إنه كاميكاز روحي، كان يشعر بأنه بخير ويبتسم برضا ويعرف جيداً كيفية التعامل مع البسطاء والذين يرحبون بنا.

اتجهنا إلى منزل المدير وأخذنا سيارة، كنت أرتدي جلابية، لا أحمل معي أي شيء، كنت أريد الاستمتاع بنباتة ونوري دون أية عوائق، أردت أن أشعر بالحرية التي وهبني إياها الجيل قبل ذلك بيوم. وصلنا إلى الشاطئ، وجلسنا في وحدة من الصاج تبدو كمركب، عندما وصلنا إلى الشاطئ الآخر، كان بير يشعر بالقيظ، لكني ظننت أننا سوف نذهب في السيارة حتى الأطلال ولهذا أتيت معي بأشياء كثيرة. هناك زجاجتان من المياه - لتر ونصف - إضافة إلى أشياء أخرى. عندئذ لفت انتباهي لفة كبيرة كان يحملها بير، وفكرت أنه بالغ فيما فعل، فلا أحد سوف يحتاج كميات كبيرة من المياه في ساعة زمن.

لم أشأ أن أساعده في حمل أي منها، ولو كنت مكانه لتركتها لأول مجموعة من الأطفال تصادفني في الطريق، حتى أتخلص من هذه الحمولة. غير أن بير واصل ومعه ما يحمل، تحت هذه الحرارة الشديدة. عبرنا، سيراً على الأقدام، مروى، هي قرية أكثر تواضعاً من كريمة؛ يوجد خارجها حاجز يحدد مكان أطلال قصر ومعبد، لم يكن هناك الكثير، كان من المفترض أن تلك كانت نباتة، المدينة الأسطورية التي هدمت أكثر من مرة، كان آخرها ما فعله الرومان بها. كانت عاصمة الفراعين السود، فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين، وكان لطهارقة قصره. لابد أنها كانت مدينة تتسم بالطابع الديني، إنها "طيبة النوبة"، هكذا كانوا يطلقون عليها، فالعاصمة الإدارية، (والسياسية بعد ذلك) كانت في مروى، في ذلك الجنوب القصيّ.

أخذنا سيارة نصف نقل لتذهب بنا إلى نوري تلك البلدة القريبة، هناك جبانة نباتة. كنت قد ألححت على القيام بذلك عبر النيل، لكنهم قاوموا، لأننا سنستغرق وقتاً أطول، دلفنا إلى داخل السيارة آملين أن يكون قد اكتمل عدد ركابها، صعدت امرأة مُسِنّة، مبتسمة وودودة، ترتدي ساري أخضر مزهراً، وقالت لنا إننا نبدو كأننا أبناءها، لم نتكلم، كانت تضحك. نحن أيضاً. وفي القرية قفزنا وصعدنا الكثبان الرملية. أمامنا نجد سلسلة من الأهرامات الكثيرة.

اقتربنا حتى وصلنا إلى ذلك الهرم الذي يسيطر على الوادي، هو الأكبر والأول، هرم الفرعون طهارقة، أعلى هرم في النوبة، نموذج لمئات الأهرامات القوشية التي سارت على هديه في نوري وبرقل ومروى، هو أهرام مدببة لها درجات صغيرة، ومنصة في الجزء العلوي، وغرفة جنائزية تحت الأرض. كان هذا الهرم هو بداية ظهور هذه الجبانة الملكية على الشاطئ الآخر من النهر، أي الشاطئ الغربي الحقيقي للنيل رغم أنها تقع في القطاع الشرقي. هنا نجد رفات عشرين ملكاً وثلاثة وخمسين ملكة من مملكة نباتة خلال الفترة من 650-300

ق.م. هناك استثناء، إذ دفن أحدهم في كورّو، وهو الفرعون الأسود الذي تولى الحكم بعد طهارقة. أما آخرهم- في نوري – فكان الملك ناستاسن Nastasen . ترك الجميع نقوشاً توضح تقديسهم لجبل برقل وعلاقتهم الحميمة بكاوا.

شعرت بقوة انعكاس ضوء الشمس على الرمال، فاتجهت لتأمل الأهرامات السوداء التي تشكل ما يشبه الطريق فوق الكثبان. كانت تتسم بالقوة والمتانة، ذات لون قاتم، الأمر الذي جعلها تبدو قوية، بدائية بالمقارنة بمجموعة الأهرامات الأخرى. تتكئ بقوة فوق الرمال، تبدو وكأنها تشعر بالفخار والقوة أمام كل هؤلاء الذين مروا بالنيل. ورغم أنها صغيرة فإنها بشكل أو بآخر تذكرنا بأهرامات الجيزة في مصر. إنها إرادة السيطرة نفسها والوعي بالسلطة.

بينما كنا في انتظار السيارة في القرية لرحلة العودة، أخذ بير يرسم في كراسته في ظل تندة يداعبها نسيم من الهواء، هناك في مقدمة الصورة زوجان من النخيل وفي العمق بعض المنازل الوطيئة، وبعد ذلك الكثبان العالية والأهرامات التي تتوه بالقوة والانتظام. نزلنا حتى شاطئ النهر، مررنا بلسان كبير من الرمال إلى جوار الشاطئ، كان زمن الخريف وكانت مياه النهر قليلة، وعندما ابتعدنا، بدت الأهرامات السوداء كأنها تودعنا.

عندما وصلنا إلى الشاطئ الآخر، عبرنا بعض الحقول وغابات النخيل، ووجدنا أنفسنا من جديد في كريمة، تبادلنا التحايا واتجهنا لشراء طعام. وتكرر الأمر، كميات كبيرة من الطعام مرة أخرى؛ أكد بير أنه سوف يبقى في المنزل هذا المساء حيث سيقوم بإعداد العشاء. أعتقد أن الحرّ تمكن منه، لم يبد أنه متحمس، لا للجبل ولا للآثار؛ عبرنا المنطقة الخالية ثم خط السكة الحديد، صوب محطة التاكسي؛ لم يكن هناك أحد. بحثت عن ظل، كانت الشمس أن تصهرني، إنها مجموعة من العناصر هي الضوء والتراب والجفاف؛ مرّ تك تك

من هذه الوسائل القليلة، التي تطوف بأنحاء كريمة، وأخذناه، جالسين في الخلف. برافو! الموسيقى من جديد، الإيقاع السوداني.

قرر السائق المرور من طريق جانبي ودخل غابة النخيل، ظللنا نسير في الطريق الصغيرة التي تمر بالترع المليئة بالمياه، وبالجسور المشيدة من الطوب البارز عن الوضع المعتاد، لم نرَ إلا النخيل ومساحات صغيرة مزروعة وبعض الجدران، كان التروسيكل البخاري (التوك توك) يدخل الوحل، يقفز، ويميل. تعطل مساره في إحدى هذه المناطق الموحلة نزلنا جميعاً. أخذ السائق في إصلاحه دون أن يفقد ابتسامته، بينما نحن نتمشى في الواحة؛ ابتعد بير، بينما جلسنا أنا ويحيى في منطقة خضراء. عدنا من جديد ليداخلنا الشعور بالسلام، كأننا نشعر بالجمال الذي يتولد عن هذه الظلال التي تداعبها أشعة الشمس، كنت أنظر إلى يحيى في هذا المشهد الجميل؛ شعرت أنه لا يكاد يكون من أرض الواقع والنخيل يحيط به، أنه أحد الرعاة الذين ظلوا دائماً هنا؛ تقضي فترة القيلولة تحت الظل الوارف يلفنا السلام.

ركبنا من جديد. أخذنا بير وواصلنا طريقنا، وصلنا إلى حافة الواحة، وبالتحديد أمام جبل برقل لكن لا يمكن أن يمر التك تك لكثرة الرمال المتراكمة. كان على السائق أن يعود من جديد، صاح بير ونزل، نزلت خلفه. رغم أن الجو كان شديد الحرارة فإننا كنا قريبين من المنزل ويمكن أن نقطع المسافة المتبقية سيراً على الأقدام. وتكفل يحيى بأن يحمل الزاد إلى المنزل. شهدت كيف أن بير كان يبتعد، يحث الخطى دون أن ينظر وراءه، في اتجاه كريمة. كانت الشمس عنيدة خارج الواحة؛ حثثت الخطى أنا أيضاً محاولاً أن ألحق به، من الواضح أنه تعكّر مزاجه، وفجأة شعرت بالجبل. إنه يناديني، أدرت رأسي بسرعة فوجدته هناك، جبل برقل. هل نسيتني؟ يبدو أنه كان يتساءل. نظرت إلى بير، كان يواصل طريقه بسرعة على حافة طريق ترابي. لكن ما الذي كنت أفعله –

فكرت-، هل أواصل الطريق وراء إنسان قرر أن يغضب من الدنيا في لحظة غير مناسبة؟ ولماذا نحبس أنفسنا في المنزل لتناول قهوة سيئة بدلاً من البقاء في هذا المكان الرائع، الذي لا يتكرر، بعض الوقت؟

عدت، اقتربت من الجبل دون تردد. كرّست له من الوقت ما بقي من النهار. جلست تحت شجرة سنط لأتأمله مرة أخرى؛ لمحت بير عن بعد، الذي نظر خلفه لأول مرة، اكتشف أنه وحده، توقف لحظة دون أن يدري ماذا يفعل. شعرت أنه كان يجب لفت انتباهه، ناديت عليه بالإشارة لكن المسافة قد بعدت. أحاطت به مجموعة من الأطفال وذهب في طريقه. عدت للجلوس مرة أخرى. أمامي، هناك جبّانتان كبيرتان تنتشر فيهما الحجارة (الشواهد) على الرمال؛ هي جبانات قبائل قديمة إحداها لقبيلة الجبل، أي جبانة الجبل، لابد أنها أكثر قدماً؛ أما الأخرى فهي جبانة جبل برقل. الجبانتان تحيطان بالجبل المقدس. تروي الأساطير أنه ذات يوم من الأزمنة القديمة، خرجت آلهة رائعة الجمال من بطن الجبل، وعشقها فلاح. عاشا سعداء، وأنجبا أولاداً، وفي يوم من الأيام طلبت الآلهة كل أصناف الهدايا، فتحت الجبل واختفت إلى غير رجعة.

كنت أفكر في قبائل الصيادين الرحل التي طافت بشطآن النيل، ولابد أنها مرت من هنا، وتأملت كتلة الجبل على الطريقة التي كنت أفعلها، والفرق هو الشعور بالوازع الديني. ما الذي كانت تفكر فيه تلك القبائل؟، وما هي الحكايات الأسطورية التي كانت تنسجها؟ وهل كان جبل البرقل هو المنطقة الأكثر غموضاً في وادي النيل على مدى آلاف السنين؟. ربما يرجع ذلك لتسعة آلاف عام مضت، عندما وقعت الفيضانات الساحقة للنيل وقضت على الوادي بالكامل، ونحتت أشكالاً غريبة في المناطق الصخرية. وربما يرجع الأمر إلى أكثر من ذلك، إلى خمسين ألف عام، عندما خرجت من أفريقيا أولى الموجات البشرية الحديثة، إنهم أبناء النيل من العصر الحجري القديم.

رأى الجبل كل شعوب العصر النيلي، مروا أمامه، في هجرتهم صوب مصر والشرق الأوسط وشمال أفريقيا. يقول المصريون أنفسهم أن أصولهم ترجع إلى بلد الرجال السُمر، من النوبة والسودان وأثيوبيا. هل ولد هنا أول فصل من الميتولوجيا المصرية، أي أولى أجيال آلهتهم القديمة؟ ربما ظهر هنا أول إله لمصر – آتوم – من الفوضى ووضع قدمه على الصخرة الرئيسية، ثم أمسك بقضيبه واستمنى، ونشأ النور من قطرات منيه ثم صعدت الشمس لتأخذ مدارها؟ لابد أن هذا الجبل (البرقل)، خلال الأزمنة الغابرة، قد هيأ للإله أتوم الصخرة التي "أنزل" فيها ونشأت الخليقة. وفي معبد الوحي لآمون رع يتداخل هذا مع كل من Harakhty وأتوم، كما يتم تبجيل ابنه أتوم، الآلهة تفنوت، الرطوبة الأولية.

فكرتُ في تحتمس الثالث، الفرعون الأول الذي وصل خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، إلى ذلك المكان المقدس، الذي لم تطأه قدم، قبل أن تبنى معابد وقصور. لقد رأى هذا الجبل المقدس على ما هو عليه من الأزمنة الغابرة، يتقدم آتياً من الصحراء. شعر بالعظمة، فأطلق عليه، "تاج الأرضين" وكرّسه لآمون. إنه آمون نباتة، الذي يتوافق مع آمون الكرنك. عبرت منطقة مسطحة ساخنة أخذت أقفز من شدة حرارة التراب في منطقة كانت طريق الكباش المقدسة التي كانت ترافق الحاج إلى جبل الوحي لآمون، على زمن الازدهار، بأبوابه وحوائطه المغطّاة بالذهب وتماثيله الغامضة وغرفاته التي يفوح منها البخور.

هناك جرت إقامة التماثيل الكبرى، التي يزيد ارتفاعها على أربعة أمتار، إنها تماثيل طهارقة وتماثيل أربعة ملوك قوشيين، تم الكشف عنها فوجدت منكسرة، لكنها موضوعة في مخبأ تحت الأرض. أضف إلى ذلك وجود العديد من اللوحات التي تحكي تاريخ تلك المملكة الأسطورية، تاريخ "انتصار" بي

Piye ، وتاريخ "الحلم" الذي حلمت به تانيت آمون، و"الخيار" Eleccion عند أسبلتا Aspelta وفي العمق، كان هناك التمثال الذهبي لآمون في قدس الأقداس يرتدي قناع الظلام، رأسه رأس كبش وعيناه ثابتتا النظرة، من الزمرد، يحرك ذراعه صامتاً، ويضع يده على الأمير الذي تم اختياره ليكون الملك الجديد لنباتة.

لم يتبق شيئ من هذا المعبد الذي شيده كل من سيتي الأول ورمسيس الثاني، ثم قام بتوسعته كل من بي وطهارقة، إلا المحيط الخاص به، الذي يلتصق بالواجهة الراسية للجبل، وكذا بعض الدهاليز وقواعد الأعمدة التي اصفرّ لونها. عبرت عدة صحون، وفراغات بها بقايا حوائط ونقوش غائرة تكاد تتمحي. لم تستطع الأحجار الجيرية الهشة مقاومة عوامل الزمن، هي الأحجار التي استخدمها القوشيون والمرويون في بناء آثارهم. كانت متآكلة، فقدت شكلها بسبب المياه والرياح؛ لازلنا نرى حتى الآن ملامحها الأفريقية، وأسلوبها الذي يميل إلى الكثرة، وعدم الإتقان، كان أسلوباً شيقاً للغاية لهذه السمات التي ينقلها على طبيعته، وهي النماذج الفرعونية، في هذه كلها نشعر هنا بوجود أفريقيا بشحمها ولحمها.

كانت الشمس تضرب برأسي رغم أنني لم أشعر بما يحدث. وصلت إلى قدس الأقداس وجلست أحاول أن أقتنص هذه الموجات الأرضية التي تنبع من بطن الأرض، ربما كانت صامتة، وربما كانت جافة.كانت هناك كتلة من الجرانيت ذات لون يميل إلى الزرقة تحتل المركز، عليها نقوش فرعونية لطيفة؛ كان عمق قدس الأقداس يلمس الجبل بشكل مباشر، وكأنه يريد أن يمتص طاقته الغامضة، يقوم بدور المصدّ أمام كتل صخرية ضخمة كانت تتساقط بين الحين والآخر. لابد أن بعض هذه الكتل سقط على السقف وهدمه. إلى الجوار جلست بين أطلال قصر بي وأطلال معبد مؤسس مملكة قوش في نباتة وألارا وكاشتا.

بقيت بعض كتل الحجارة، وبعض الجدران، قفزت إلى صحن ست وحتحور، تحت الذروة، وأدركت أن هذه لم تكن إلا المكان المفضل للرقصات والحفلات والموسيقى والطرب.

درتُ حول الجبل من جديد وأنا أتعرض لتيار شديد من الهواء ينفث بالرمال في عيني، اقتربت من الذروة من الناحية الخلفية واكتشفت كتلة من الصخور والكتل الحجرية المبعثرة بين الصخور، تصل حتى منتصف الطريق. قررت الصعود، صعدت خطوة خطوة، محاولاً ألا أثير حفيظة تلك الصخور التي تبدو أنها على استعداد للتهاوى لمجرد لمسة خفيفة. عندما كنت على أمتار قليلة من الذروة، توقفت، خمّنت أنه يجب أن تكون هناك مسافة فاصلة ولا أستبق الأحداث، خوفاً من قيام تلك الأحجار بثورتها وابتلاعي.

كنت أشعر بالسعادة، أعرف أنه من السهل الوصول إلى الذروة معتمداً على حذائي – الصندل – ويديّ وقدماي؛ وهناك استطاع الأولون الوصول بسهولة إلى القمة، وذلك بوضع بعض قطع الأخشاب بين الجبل والقمة، فهناك حزوز على الطرفين تؤكد استخدام تلك التقنية. وهنا فإن الشادوف الذي تحدث عنه رجل الآثار أصبح غير ذي معنى؛ فحتى يصعد المرء إلى هذه القمة على زمن طهارقة يكفي استخدام بعض الأدوات الصغيرة للوصول إلى هناك ونقش اسم الملك ووضع تمثال صغير من الذهب، وما كان كافياً من هذه الأدوات هو السُّبت والحبل بمجرد أن يصل المرء إلى القمة. كل هذا قد أكد لي أن تلك الفجوات التي توجد أعلى الجبل ربما كانت لأغراض طقسية وليست ذات طبيعة تقنية. عدت للنزول، وهي مهمة أصعب بكثير من الصعود.

توجهت للأهرامات، صعدت الكثبان ببطء بينما تضرب الرياح وجهي، بين الحين والآخر وبدرجات متفاوتة، كان عليّ أن أصعد من أحد الجوانب لحماية نفسي. منظر الجبل يبدو وكأنه حيوان ضخم قد أقعى، كان له ظهر

ومؤخرة، وكان له ذلك الـ "menhin" الطبيعي الذي يقوم مقام الرأس. كان يوجد في ذلك المشهد الغريب الذي يستدير فيه مجرى النهر. لا يوجد أي وضوح في الأمر، فمجرى النهر في هذه المنطقة يقلب الأمور رأساً على عقب؛ الشرق كان الغرب، هناك تداخل بين أرض الأموات والأحياء، غموض يثير الدوار، جبل مقدس، كان وجوده جوهرياً لرسم معالم هذا المشهد الأسطوري في تلك المنطقة الشديدة الخصوصية. كل هذا يمكن أن يكون تفسيراً لإقامة جبل اصطناعي في قوش، وهو صورة رمزية لجبل برقل، ذلك الجبل العتيد، ويوضح كذلك تلك الحاجة الملحة التي كان عليها ملوك مروى لزيارة جبل برقل للتبرّك بالمكان.

أمر مهم ذلك المتعلق بالمشرق والمغرب في تلك الأزمنة، فالتعرّج الذي عليه الجبانات الملكية، في هذا الجانب أو ذاك من النيل، كان علامة على تغير جذري في تأويل النصوص المقدسة، وخاصة في هذا المكان – ظهرت أقدم تلك الجبانات – جبانة كورّو – إلى جوار جبل برقل؛ في الغرب، أي أنها تحترم مسار النهر، وهي أبرز منطقة لدفن الموتى؛ لكن كان الشاطئ الشرقي للنيل رمزاً على مدى الأهمية التي يوليها ملوك هذه المنطقة للجبل المقدس؛ فطهارقة "الملك القوشي" الذي توج عام 690 ق.م، وعاش في كل من طيبة وممفيس ردحاً طويلاً من الزمن وأراد أن يعيش مجد زمن الفراعين العظام، لابد أنه أخذ في اعتباره تلك التقاليد القديمة التي كانت عليها منطقة النيل الأوسط؛ وعلى هذا اجتاز النهر صوب المشرق، أي شاطئ الأحياء حيث مدينة نباتة، وهناك أقام هرمه إلى جوار الشاطئ الغربي للنيل مثلما كان يحدث في مصر، وبذلك احترم قدسية النهر.

لابد أن منطقة النيل الأوسط شهدت ثورة دينية حقيقية، ومع هذا فإن جبل البرقل لم يُمسّ؛ فقد قيل إن طهارقة ربما حاول أن ينحت لنفسه تمثالاً

ضخماً أمام الجبل أو في القمة مقلداً في ذلك رمسيس الثاني في "أبو سمبل"؛ ولو كان الأمر كذلك فإن التقاليد الضاربة في القدم في منطقة النيل الأوسط قد حالت دون هذا الدنس. كان الجبل شيئاً لا يُمسّ في هذا المشهد، واصلت طريقي في الدوران حوله، رأيت الكثبان الرملية القائمة من جديد وكأنها لسان ضخم يمتد حتى أعلى الجبل؛ تحت وهج الشمس الحارقة لم نكد نرى ما بقي من معالم أقدامنا ليلة أمس. لم تتركني الرياح وشأني، صعدت على ظهر كثبان رملي، من الجهة الخلفية، ثم أخذت في الهبوط من الجانب الآخر، أتفادى الصخور. وفجأة وجدت كلباً بريًا في الصحراء، يرقد وحده في ظل صخرة ضخمة، ظننت أن عملية الصيد كانت على مقربة من المكان. لكن لا، لم يكن كلباً بل ذئبًا، احتللت مكانه، وهو أفضل مكان يستطيع المرء فيه أن يطل على الصحراء بالكامل؛ ابتعد الحيوان لكنه كان ينظر خلفه كلمّا خطا بضع خطوات، وكأنه يريد التثبت من أنني لم أغادر المكان. كنت أنظر إليه وأقول له لا، أنا باق هنا.

تأخر الوقت، عدت إلى المنزل وأنا أشعر بالهدوء الداخلي يغمرني، دخلت وألقيت التحية على بير الذي كان جالساً. لم يرد عليّ، كان التوتر هو العنصر المسيطر، والوضع لا يشجع، كانت مياه الخزان قد فاضت، وأخذت تتساقط من أعلى البرج كأنها شلال، أغرقت المياه الصحن الأول وأخذت تهدد الصحن الذي كنا فيه. استطعنا إيقافها، ثم اختفى بير دون أن ينبس بكلمة؛ كان يحيى نائماً في انتظار إفطار رمضان؛ انقطع التيار الكهربائي وكان المطبخ معتماً وبارداً، لم يقم أحد بطهي أي شيء، رغم أنني أرى عن بعد أحد الأطباق على حوض الغسيل. اقترب الخلود للراحة، على أمل أن تهدأ الأمور، لم يكن في استطاعتي فعل الكثير. نمت.

عاد بير بعد أن حل الظلام بالكامل، شعرت بشدة عنيفة، لقد انتزع مني البطانية الحمراء التي كنت أغطي بها قدمي، بحثت عن شمعة وأيقظت يحيى.

كان عليه أن يتناول الإفطار. قمنا بإعداد ما استطعنا، وبعد ذلك خرجنا، لكن ماذا حدث لبير؟ لم يحدث شيء، إنه يشعر بالغيرة، حسب قول يحيى. الغيرة من ماذا؟ مما تعرف. إنني أقص عليكما القليل الذي أعرفه وذلك حتى يكون هناك تداخل مع الجبل بالطريقة التي أشعر بها. إنه يعد أسطوري وسحري. كانت الليلة تتسم بالغرابة والرياح تهب بعنف، لدرجة أنه تم إلغاء الأمسية الموسيقية. توجهنا نحو منزل المدير، فهو لم يكن يلعب الكوتشينة تلك الليلة؛ وبعد تناول الشاي، وتوجيه النصح لنا بكيفية الوصول إلى مروى – عبر الخرطوم – اتفقنا على ما سنفعل في اليوم التالي.

خرجنا في الصباح الباكر، وتوجهنا من جديد إلى الأطلال، غير أننا توجهنا قبل ذلك إلى ميدان صغير قريب من البعثة الأسبانية التابعة "لمؤسسة كلوس للدراسات الأثارية" التي كانت لها منجزاتها؛ كان كل شيء مغطى ولم نر الكثير، كل شيء مرتب ونظيف. غاب بير عنا، فلم يتحدث لأحد ولم يلق حتى بالتحية؛ ذهب بنا المدير إلى المخزن، هو عبارة عن غرفتين خاليتين من أي زخرف مليئتين بالكتل الحجرية المنحوتة والموضوعة على الأرض؛ كان يمكن إقامة متحف على أساس تلك القطع؛ بدلاً من أن يدفنها التراب؛ هذا كل ما تبقى من أعاجيب جبل البرقل. أخذت أفكر في تلك التماثيل الرائعة في الـ Omphalos الخاص بالكبش المقدس، وفي كافة الكنوز التي رحلت من هنا وكانت دول العالم الخارجي مآلها، وأصبحت بعيدة عن أرضها إلى الأبد. وماذا عن السدّ؟ سألته، السد الصيني؟. لقد وصل إلى درجة متقدمة، وهو يقع بعيداً عن كريمة، بالقرب من الجندل الخامس. حذار! إن زيادة نسبة المياه الجوفية سوف تحدث تأثيرها الضار على الجبل وسوف تسقط المزيد من الصخور على المعابد.

خرجنا إلى العراء في الشمس، وواصلنا رحلتنا نحن الثلاثة. أخذنا نلعب

مع الأحجار حتى المعابد. استخرجت الكنز الأدبي الوحيد بين يدي، هو كتاب ب.ل. شيني، بعنوان "مروى حضارة السودان" (1967) ثم أخذت أقرأ عن آمون وحتحور والآلهة القديمة والنبوءات. أخذت أقصّ عليهم الكثير؛ لكن بير لم يفعل ذلك أبداً. صعدنا تحت وطيس حرارة الشمس، صعدنا ببطء عبر الكثبان صوب الأهرامات، جلسنا في ظل رطب، هو ظل الهرم الأكبر، لم نكن نرى هناك غير الصحراء.

فجأة، فرد صقر جناحيه وحلق على ارتفاع منخفض، وظل يطير وهو يكاد يلامس قمة الهرم الأصغر. ملأ وجوده المكان بنوع من العبق، هناك إحساس بأن حورس كان هناك، قريب جداً لدرجة يمكن معها أن نتحسسه. هل ولد حورس – الصقر المقدس عند المصريين القدماء – في جبل البركل؟ هل ولد بين تلك الطيور التي تطير قريبة من سطح الأرض؟

قررنا عبور الواحة سيراً على الأقدام، حتى نصل إلى كريمة. نزلنا من على إحدى الوهاد متخذين الكثبان طريقنا، عبرنا الجبانات الغربية، وجلسنا بضع دقائق في الظل بصحبة بعض الفتية من الجمّالين الذين كانوا يسقون حيواناتهم، ثم دلفنا إلى غابة النخيل، آخذين الطريق الأول، دعتنا بعض الفتيات للدخول، كان هناك صحن كبير، به الكثير من الأطفال ظليل بالكثير من زهور الجهنمية وشجرة سنط كبيرة، وغرف متفرقة لها دعائمها من الطوب اللبن. رحبت الأسرة جميعاً بنا.

واصلنا في الطرق الترابية وأخذنا نقفز فوق القنوات ونضع أقدامنا في المياه الجارية، ونحاول أن نتماسك ونحن نفعل ذلك، كنا تحت مئات من أشجار النخيل، الضوء أقل بعض الشيء والظل. كانت المياه تنعش الهواء. هناك مشينا أكثر من ساعة حتى وصلنا إلى نهر النيل. كنا نتوقف بين الفينة والأخرى ونتسامر، نسير ثلاثتنا في صف واحد، وبين لحظة وأخرى تطل علينا بين النخيل مساحات

خضراء، خضرة كثيفة كانت تتلألأ عندما تداعبها الشمس. وبعد ذلك الظل. وأحياناً – قليلة – كانت هناك منازل قليلة تختلط مع الأرض. لم يكن هناك أحد، فقط وجدنا فرناً من الفخار في الهواء الطلق وسط كثافة الخضرة بدا وكأنه شيء سريالي في ذلك المحيط. كانت هناك الكثير من كرات الطين التي تتبدى متفرقة بين النخيل، وكأنها قبيلة من كائنات غريبة تقضي القيلولة. كانت شطآن النهر مزدحمة بالكثير من الحقول الممتدة التي ترتفع عن مستوى سطح المياه، فوق هضاب من الطمي؛ كنا نسمع صوت موتورات ماكينات المياه التي ترفع المياه من النيل، كان الصوت متقطعاً. أما في مياه النهر فهناك الصيادون، كل يجري سعياً للرزق.

رأينا مجموعة من الشبان قادمة بين النخيل، كانوا طلاباً في المرحلة الثانوية، كانوا قد انتهوا من دراستهم. من أين أنتم؟ أسبان! كانت الفتيات تمضي أما الأولاد فقد بقوا على البعد وتحلقوا حول أنفسهم في هدوء وأخذوا يراقبوننا، لم يقتربوا منا. صاح أحدهم: إيراك! لم يكونوا معادين أو مصادقين، ورغم هذا شعرت بطوبية تسقط بالقرب منا. واصلنا طريقنا. لم يبد الإرهاق على بير رغم المشوار، لم نتبادل الحديث، بدت التلقائية والرغبة في المشاركة والرفقة كأنها غائبة كلها بين الطرفين، كنا نتواصل من خلال يحيى؛ كنت أتضرع حتى لا تتعرض الرحلة للفشل.

دعونا لتناول الشاي في الحديقة الغناء في أحد المنازل، كان هناك أكثر من عشرة أصدقاء يقضون القيلولة في الظل؛ دخن اثنان منهم أو ثلاثة مع بير. من هناك توجهنا من جديد إلى سوق كريمة، حيث كان علينا أن نشتري التذاكر إلى الخرطوم لنسافر في اليوم التالي. أخذ يحيى على عاتقه القيام بذلك بالتعاقد مع أفضل شركة حيث كانت راكبة بعض السيارات الفارهة. ذهبوا بنا إلى مكتب قصيّ في حارة جانبية وقدموا لنا صورة أتوبيس رائع سوف يحملنا من المنزل فجر اليوم التالي. من الطبيعي أن تدفع مقدماً ويتم حجز المقاعد.

عدنا إلى المنزل، لازال الخزان يقذف بالمياه الفائضة التي تدخل إلى الصحتين، ولم يكن هناك تيار كهربائي؛ يبدو أن هذا البيت به مسّ من الجن. وبعد أن تخلصنا من عالمة الأنثربولوجيا وعبرنا الصحراء الشاسعة تحول كل ذلك الذي رأيناه وكأنه واحة ومساحة حرية وبضعة أيام من الراحة، شيئاً مختلفاً تماماً، وأثار حفيظتنا. وانعكست التوترات علينا بقوة، فظل بير في حالة الصمت وتلف إلى سريره، فلم يكن يشعر أنه في حالة جيدة حسب قوله.

وضع يحيى الكثير من الأغراض في شنطة بلاستيك وخرجنا. عدنا إلى الميدان الصغير الخاص بأعمال الحفائر الأسبانية وإلى القصر غير الحقيقي. سرنا صوب خلفية جبل البرقل وأخذنا نصعد الكثبان ببطء، وعندما صادفنا أوليات الكتل الحجرية أخذ يحيى يصعد نحو ظهر الجبل، كنا نسير بخفة وسرعان ما وصلنا. تقدمنا نحو مقدمة الجبل، وهناك جلسنا. كانت الشمس قد هبطت من كبد السماء، وكسا المكان اللون الذهبي، فرش يحيى فوق الحجارة ووضع طعام إفطار لذيذ وشهي، هناك المياه والتفاح والبسكويت. أخرجت كتابي. أخذنا ننتظر آذان المغرب.

حل الظلام وعدنا أدراجنا. ذهبت به ليرى تلك الفجوات ثم ذهبنا إلى حافة الوهدة، وأمام الكثبان توقفنا هنيهة، لم يتمكن يحيى من المقاومة، وقذف بنفسه إلى أسفل، وتبعته، كنت أعرف ما كان ينتظرني، لم يكن الشيء نفسه، لكنه كان شعوراً قوياً. عندما كنا نقفز في وسط الطريق ونحن نضحك رأينا شكلاً صغيراً كان يعبر الطريق كأنه كلب. لم يرنا رغم أننا كنا شديدي القرب منه نتدحرج على هذا المنحدر الحاد. فكرنا أنه ربما كان الحارس.

عدنا من الطريق نفسه، عبر الكثبان الخلفية، وسرنا كثيراً للطواف حول المكان. كنت أشعر بالإرهاق. عندما وصلنا إلى المنزل كان الباب مغلقاً. أصبحنا في الظلام وبدون مفاتيح، لا نكاد نرى شيئاً. أليس بير نائماً؟ طرقنا

الباب، صرخنا، لم يرد أحد. وهنا استعد يحيى للقفز فوق اثنين من الأسوار العالية، وعندما دخل، ظهر بير فجأة في الشارع. لم يقل شيئاً، فتح الباب، أنّبته وسألته أين كان ولماذا لم يترك الباب تحت قطعة من قطع الحجارة.

كان التوتر واضحاً للعيان. تراكمت مظاهر التباعد. أشعلنا شمعتين، وذهب بير إلى سريره وغطى نفسه بالبطانية الحمراء حتى أذنيه. ذهبت إلى المطبخ لأعد شيئاً من الطعام، لم يكن هناك إلا القليل من الماء، عدت لأسأل بير: أين هي زجاجات المياه الأربعة التي اشتريناها؟ والأخرى؟. شربت واحدة. وبالفعل، كان قد بقي القليل جداً من الماء بعد العشاء، كنت أشعر بالسخط، لم أكن أفهم هذا البرود الظاهري في التصرفات وتلك اللامبالاة. فكرت، ربما كان باستطاعته أن يحرمنا أيضاً من تناول الشاي في منتصف الليل. عندما خرجت من جديد مع يحيى تصرفت بشكل أستغربه على نفسي، فأخرجت الزجاجة الوحيدة المتبقية بعيداً عن المطبخ ووضعتها إلى جوار المدخل في الظلام الدامس. كنت أشعر بالخجل من نفسي، لكن تمكنت من الرغبة في عدم الجدل من جديد والتصايح.

ذهبنا تلك الليلة لتودع المدير وندفع له إيجار المنزل، فقد اختفى السائق من الساحة دون أن يقول لنا شيئاً محدداً، ولم يقل حتى متى سيعود؛ ربما يقبل المدير بتقديرنا للإيجار. كان هناك الكثيرون عنده، من الكبار والشباب، يجلسون على الأرض، أو أمام موائد يلعبون الكوتشينة ويتناولون الشاي والمرطبات، كانوا يتسامرون وهم سعداء ويتضاحكون.

عدنا نمشي الهوينا ونحن نتحدث عن صديقنا، ماذا يحدث؟ ماذا فعلنا به! ولماذا هذا الموقف الأناني من أجل بطانية! أنا أيضاً لا أستغرق في النوم وأنا أستخدم بطانيتك، لكن لا فرق عندي في تقاسمها معك. إنه متوتر يصمت لساعات ولا يلقي بالتحية على أحد. عندما وصلنا إلى المنزل تأكدت أن زجاجة

المياه! اختفت من المكان الذي وضعتها فيه. اشتكى بير ليحيى، والآن تخفون عني الماء! ما هذا الذي يحدث؟ صاح يحيى منبهاً، ثم جلسنا على ضوء شمعة. علينا أن نتحدث وأن نقول ما الذي يحدث بيننا. إنني لم أتذكر أي رحلة كنت فيها بحاجة إلى مثل هذا المسلك، كانت كلها رحلات فيها تعاون بين الجميع.

حسن، ماذا بك؟ لا شيء، لم تعد تطاق منذ الأمس، لا تتحدث ولا تلقي بالتحية، ولا تساعد. حسن، حسن، يحدث أن أغضب من حين لآخر، وخاصة في الصباح. وهذا أمر يتعلق بي. لا يا بير، عندما نكون في رحلة فالأمر يتعلق بنا جميعاً. وهذا أمر لا يتحمله الجميع، فلم يحدث أي شيء بالأمس، أتيت إلى المنزل وأنا سعيد، ثم خرجت لأرسم بعد ذلك، وقمت بجولة واليوم أيضاً. لكن ماذا عن موضوع الماء؟ لقد رفضت أن نشتري المزيد من الماء، لقد تأكدت أن لديك قدرة على البقاء مدة طويلة دون أن تشرب شيئاً. أما أنا فأحتاج ما لا يقل عن لترين من الماء يومياً. ربما تريد أن تؤمن بالأشياء حسب شرحك لها – أجبت – غير أن الواقع مختلف عما نراه. فأنت غاضب منذ ليلة أمس، تتصرف بسلبية وقررت عقابنا ولكن ببطء؛ والتوتر الذي تخلقه زلزلني ودفعني لتصرفات لا أفعلها أبداً.

وختاماً قال لنا: آه، لقد شاهدتكما وأنتما تتدحرجان فوق الكثبان! هل كنت أنت الذي كان تحت؟ نعم، ولماذا لم تتوقف أو تلقي التحية باليد؟ عجباً! كنت أريد النزهة وكنت برفقة الحارس في مهمته الليلية، لم أكن أريد أن يراكما، فقد كان دائب البحث عنكما. قمنا بإعداد شاي الوداع ثم عدنا إلى موضوع يحيى المثير. لكن ماذا بعد الأقصر؟ ظللت عدة أيام وأنت معي إلى المنزل. وهناك؟ واصلنا هناك.

خلدنا إلى النوم ونحن نشعر بالراحة والاسترخاء؛ وعلى أية حال، نجحت اللعبة التي لعبتها ليلاً، فقد أخذ بير يبحث عن المياه في الظلام ونحن خارج

المنزل، وعثر عليها لكنه لم يشربها كلها بل أبقى على شيء منها، وبالتالي لم نخلد إلى الأسرّة وجوفنا خاوي الوفاض؛ وهذا لم يكن بالشيء القليل، وقد لاحظت أيضاً أن يحيى أعاد لي البطانية، يمكنني أن أنام ولو الليلة واحدة؛ في الثالثة فجراً نهضنا من على الأسرة والنوم يشدنا إليها، كان الظلام دامساً، وكان الانتقال من الدفء إلى الهواء البارد أمراً غير مشجع. كان الدُش في الظلام تصحبه رعشة القطرات الأولى من المياه الباردة. جمعنا أمتعتنا حسبما اتفق، كانت هناك أشياء مهمة يشغل المرء بها فكره، كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف فجراً ولم يظهر الأتوبيس بعد. خلدنا إلى المضاجع مرة أخرى في محاولة لاختلاس بعض دقائق من النعاس؛ مضت ساعة ونحن بين النوم واليقظة، أخذنا نقول ونحن متوترون ومستسلمون: لن يأتي. كان يحيى ذا إيمان لا يخالجه الشك بأنه سيأتي. وأتي، لكن بعد ثلاث ساعات من الموعد الذي حددناه معه، وكأنه يرتدي قناعاً، فبدلاً من أتوبيس ضخم ورائع تم الاتفاق عليه ليلة البارحة وجدنا أتوبيساً متهالكاً، مليئاً بالركاب هم مجموعة من الفلاحين بين الكثير من الأجولة والبقج.

كان النعاس يغالبنا، الأمر كذلك بالنسبة لي، ضاعت كل أحلامي سدى عندما رأيت هذه المركبة التي لا تصلح للخدمة. سوف نقضي سبع ساعات في علبة الصفيح هذه، بدلاً من أن نكون في أتوبيس جيد وعدونا به. كان الجو بارداً، صعدت بسرعة يغالبني النعاس، لا يوجد أي مقعد خالي. رحب بنا من كانوا في الممر بين الكراسي. جلت ببصري فوق وعمائم المسافرين، كانوا مرهقين أيضاً والكثير منهم نيام. في آخر الأتوبيس اكتشفت مقعداً خالياً ليس به أية عمامة؛ هناك، فوقه، العديد من الصناديق والبقج، تأرجحت وأنا أثبت بصري وعازم على الجلوس في المكان، وما إن رأى جاري في الكرسي المجاور موقفي أخذ يرفع الأمتعة عن الكرسي، فعل ذلك بنوع من التثاقل والاستسلام، غير أن قضاء سبع ساعات جالساً كان أمراً يستحق هذا الموقف.

لم يكن كل شيء على ما يرام، فعلى أية حال ترك لي جاري صندوقاً كبيراً تحت الكرسي حال دون أن أضع قدماي على الأرض. كنت قد اتخذت وضع القرفصاء على المقعد الذي كان يقوم على الأرجل الخلفية فقط؛ هيأت نفسي على هذا الوضع لعبور ثلاثمائة كيلو متر عبر صحراء بيوضة، ويحيى إلى جواري جالساً على كرسي يهتز في كل حركة. كان يحيى سعيداً، وأخذ يقص على أن كل شيء سار على ما يرام؛ أما أنا فقد قلت له رأياً مخالفاً ونبرة صوتي بها مسحة من التوتر، وأنه قد أخطأ هذه المرة في حكمه على الأمور، فقد خدعنا، وتعاقد مع أتوبيس من الدرجة الثالثة بينما سددنا نحن ثمن السفر في أتوبيس فاخر. حاولت التمدد ما استطعت وأغمضت عيناي، ومن المؤكد أنني سأصل إلى الخرطوم وأنا على هذا الوضع جالساً. كنا نسير في الطريق نفسه الذي سارت فيه قوافل الجمال، صوب قلب أفريقيا، فلم يكن هناك مجال للخطأ.

كان الأتوبيس يسير في طريق متعرج، مرة أخرى عبرنا إلى جوار جبل برقل، توقفنا في بعض القرى، بينما أخذ ضوء الصباح يغزو الجو المحيط، كان الطريق ترابياً، درنا حول الواحة ودخلنا كذلك وسط النخيل، كان الطين قد جف لحسن الحظ وعلى جانبي الطريق بعض الشاحنات الواقفة بينما الناس يسيرون هنا وهناك؛ كانت هناك عشرات من السيارات الكبرى، كلها ملونة بألوان زاهية، كان يمكن أن تبقى عدة أيام انتظاراً لدورها لعبور النهر، في ظل نسمات الصباح الباردة كان الجميع تعلو وجوههم السعادة، يتسامرون وهم مهيأون ذهنياً لانتظار الوقت اللازم لبلوغ دورهم في عبور النيل، ونحن أيضاً علينا أن ننتظر فسحة طيبة من الوقت، خلا الأتوبيس من الركاب ماعداي. نزل يحيى وبير وانخرطوا وسط المسافرين، كانا سعيدين وهم بين سائقي سيارات النقل والفلاحين وأخذا يعتليان جبالاً من التراب والطين والنخيل ويهبطون، لا، لا، لن أبرح مكاني. بدا الأمر وكأنني تسمرت في مقعدي، لم أتحرك قد أنملة،

كنت أشاهد النيل من خلال نوافذ الأتوبيس بهدوئه وضخامته، إنه نفسه ولو كان مجراه يسير عكس الاتجاه. وفي نهاية المطاف دخل الناس جميعاً، كل مكانه.

سرعان ما بدأت "الكركرة" وكأننا نسمع وقع سير جحش غير أنه أكثر قوة، كنت أجلس القرفصاء وعمودي الفقري يصطدم بمحور العجلات في كل مطب من المطبات. خرجنا إلى الصحراء الواسعة، صحراء بيوضه Bayuda، القاحلة والتي كنستها الرياح، كل ذلك ونحن على الجانب الغربي للنيل صوب أم درمان. ومن جديد تظهر الجبال كل على حدة متفرقة وكأنها موائد، الآفاق التي لا نهاية لها وكثبان الرمال والحجارة؛ هناك مطب أقوى من الأخرى لابد أنه أدى إلى الأضرار بعظم الحوض، كان المطب كأنه ضربة مرزبة على العصعص. لا جديد في الأمر، رغم أن هذا المطب كان فظيعاً. لم أكن أطل كثيراً على المشهد، تعتريني غفوة، أغمض عيني وتمر الساعات على إيقاع الموسيقى، السلوى الوحيدة. مرت لحظة أثناء السفر والمطبات حيث اختفى يحيى عن ناظري، كنت شبه نعسان ومع هذا أقسم أنه كان قد تبخر من المكان. فتحت عيني، وجدت أن ظهر المقعد الذي كان يجلس عليه قد تزحزح قليلاً مع آخر مطب، واكتشفت أنه ملقى وسط الممر وساقاه مرفوعتان.

كان بير يجلس على مقعد آخر في الجزء الأمامي، وبالتحديد في منتصف الأتوبيس، إلى جانب الباب، كنت أراه ينهض من مقعده طوال الوقت، وهو يبتسم ويترك فسحة للذين يصعدون وينزلون من أهالي القرى المختلفة، يا لها من تمرينات رياضية يقوم بها ومع ذلك كانت تلك لحظات طيبة مرّ بها طبقاً لما قاله لنا، كان محاطاً بكل هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يحدثونه ويبتسمون له باستمرار، وأحياناً ما يغفوا أو ينام بعضهم على كتفه لبعض الوقت.

كانت الصحراء تجري بسرعة من خلف النوافذ وتثير في جريها

التراب والرمال، كنا نتجه صوب المنطقة المدارية، وبدت الأرض كأنها مزروعة بشجيرات شائكة وبعض أشجار السنط. تصورت أن ملك قوش/ أسبلتا Aspelta، الذي فرّ هارباً من نباتة عام 591 ق.م. متجها إلى مروى، وكان ذلك بعد تدمير نباتة وبرقل على يد المصريين الذين كانت عاصمتهم سايس، وأخذ يسير في هذا الطريق بالسرعة التي نحن عليها، ولابد أنه كان قد وصل قبلنا. فكرت أيضاً في الملك ناستاسن Nastasen، الذي عبر تلك الصحراء بعد ذلك التاريخ بسنوات قليلة – في منتصف القرن الرابع ق.م. – ولكن في اتجاه معاكس، أي من مروى إلى نباتة ليتم تتويجه، لآخر مرة، ملكاً في معبد آمون إلى جوار الجبل المقدس مثلما فعل ذلك سلفه. فهل يفعل ذلك مثلنا وهو يحمل الشمسية ويرافقه العديد من الناس، البسطاء، أو أن يفعله وقد رافقه المحاربون؟

يقال إن كهنة النبوءة، كهنة الإله الكبش، في جبل البرقل، هؤلاء الذين كانوا يتخذون القرارات المتعلقة بالاستخلاف بين ملوك القوش في نباتة، كانوا يسيرون على عادات قديمة ذات أصول أفريقية، ترجع إلى "جبال القمر" و "البحيرات الكبرى" وكانوا يضحّون بالملوك في ظل خطوات طقسية على شاكلة ما كان يجري في الأزمنة الغابرة. وكانت هذه عادة تثير الضيق تم إلغاؤها على يد من خلف ناستاسن، وهو الملك أراكاكاماني Arakakamani وقد فعل هذا متأثراً بالأفكار الجديدة التي أتى بها الفكر اليوناني، وكان مصدره البلاط البطلمي لبطليموس الأول في الأسكندرية. ما فعله هو أن قضى على كافة كهنة آمون في نباتة، وانتقل إلى مروى بشكل نهائي عام 300 ق.م. ولم يكن من الضروري أمام المرويين عبور صحراء بيوضة Bayuda حتى يصبحوا ملوكاً أو أن يتم دفنهم، فهذا الحزام الرملي والناري حماهم دائماً من جشع البطلميين والرومان.

كانت تتتابع الجبال المسطحة القمم والجبال البعيدة والوديان التي لا تنتهي وتواصل تتابعها؛ أتثاءب وأتذكر المشهد الداخلي. كنت متكوّراً على مقعدي وأهتز مثل باقي الركاب. كان الكثير منهم نائماً يسندون عمائمهم على أيديهم، كلهم يرتدون جلاليب السفر المتهالكة بعض الشيء. كان هناك عدد قليل من النساء ترتدي كل واحدة ساريها الأسود؛ أرى الصحراء من جديد، قاحلة وواسعة. تركنا بيوضة Bayuda منذ سبع ساعات؛ هناك بعض التجمعات السكنية التي تسبق مدينة حضرية، وعلى بعد خمسين كيلو متراً من الخرطوم أخذ يظهر خط رمادي، أي طريق أسفلتي في الأفق، كان ذلك الطريق الأول المسفلت الذي نراه بعد ما يقرب من ألف ومائتين كيلو متراً.

واصلنا طريقنا حتى دخلنا في شوارع متقاطعة على الطريقة العربية؛ هناك ميادين صغيرة وأسواق أرضها ترابية ومنازل غير مرتفعة ومساجد. هذه المدينة هي أم درمان، أرض المهدي، وهناك نزلت الأغلبية الساحقة من الركاب، وكذلك نحن، لكن يحيى قرر أن نواصل؛ عبرنا فوق كوبري معدني طويل يمتد على النيل الأبيض الذي يكاد يخلو نصفه من المياه، وتظهر ألسنة من الرمال في مجراه؛ عبرنا أيضاً "الأباي" أي النيل الأزرق الذي يفيض بمياهه، وفي نهاية المطاف وصلنا إلى منطقة خلاء هي عبارة عن تقاطع طرق، وهنا قرر يحيى أن ننزل؛ كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وكانت الشمس قوية كأنها تسيل مؤقتاً، أخذ إيماننا يضمحل كثيراً بالآخر الصغير؛ فقد أخذت أنا وبير ندمن تلك الفكرة، ونحن مطوقون بكافة الشنط والأحمال. جررت اثنتين منهما تحت الشجرة الوحيدة وأخذت أصب لعناتي الداخلية. لا يظهر حتى أمل في وجود تاكسي أو أية مدينة. الحقول وبعض الأشغال في الطرق وبعض المنازل المتناثرة.

وعلى عكس كافة توقعاتنا ظهر يحيى من جديد وهو يطل من ميكروباص بدون ركاب، ثم رحلنا. لم تظهر الخرطوم، هناك بعض المدن

الباهتة والحواري الترابية والحدائق المتربة، والظل المتواضعة وغير الجميلة. أين إذن هذه المدينة الإنجليزية، مدينة جوردن وكيتشنر، وحكّام السودان الأنجلو مصريون؟ اين هي المدينة الكولونيالية التي تنعكس صورتها على صفحة النيل الأزرق وكأنها حي الزمالك بالقاهرة؟ أين هي تلك المنازل الضخمة والفخمة المشيدة بالأجر الأحمر، وكذلك الحدائق الغناء التي تضم أشجار النخيل، أو ما يطلق عليها "ملكة الصحراء الشابة" وهو المسمى الذي أطلقه عليها الهولندي ج.م. شوفر عام 1881م؟... نحن نبحث من جديد عن مدينة لم تكن موجودة.

كان بير قد نوّه بأن نؤجر مكاناً فاخراً في الخرطوم، أن نقيم في فندق راق له حمام سباحة. فعلنا ذلك، لم يكن معنا أي نقود، ولم يكن المكان هو الذي نبحث عنه. عبرنا بعض الطرقات، ودون أن ندري وجدنا أنفسنا أمام فندق "أكروبول" في الوسط، ومع هذا فقد وجدنا أنفسنا محاطين بعدد من الشوارع الترابية ومنازل غير مرتفعة وكتل من الأسمنت وواجهات وبعض التفاصيل الأخرى التي لا تختلف كثيراً عما هو في كريمة أو بعض القرى الأخرى.

كان اسم "أكروبول" جميلاً، وهنا اجتررت ذكرياتي في منزلي في أثينا التي تختبئ تحت الأكروبوليس Acropolis، وأمام نافذتي البارثينون، ثم طارت الذكريات إلى محطات كثيرة في الأسكندرية، وبالتحديد في فندق أكروبول الذي كان يهتز في الصباح الباكر عند مرور الترام وتتأرجح اللمبات والنجف، كانت نسمة الصباح تدخل، وفي عمق مرآة ترتعش هناك انعكاس لشكلين عريانين. كان فندق الأكروبول بالخرطوم يطل فقط على شارعين جانبيين، غارقين أثناء الليل في سكون سحري، كانا شارعان ترابيين ولم تكن تمر بهما السيارات، وعلى أية حال كان هو المقصد الوحيد والمضمون في العاصمة السودانية، يمثل فناراً يونانياً وسط الصحراء ويمكن مقارنته بفندق "البارون" أو فندق "بيرا بالاس" في اسطنبول الذي كان تقضي به لوتي Loti بعض الوقت.

في الخرطوم نجد من كل لون أغنية، لم تكن مكاناً جذاباً ومع هذا بقينا فيها عدة أيام، كان فندق الأكروبول مشغولة غرفه بالكامل لكننا استطعنا أن نحصل على غرفة لثلاثة لها شرفة كبيرة، كان الفندق نظيفاً ومرتباً. كانت الوجبات ثابتة ويتم تقديمها في موعدها. كان هناك الكثير من الغربيين، هم أناس جادون شاحبو الوجوه يبدو وكأنهم يقومون بإعداد تقارير بشكل دائم. يبدون كذلك حتى عندما يتحدثون بصوت خفيض، لا يضحكون أبداً، وبالتالي لابد أن ضحكاتنا كانت مستغربة لديهم. كنا نتضاحك فيما بيننا ومع السقاة. هل أنتم قادمون من كرمة، من دنقلة؟ الجو حار هناك! كانوا يكررون هذه العبارات.

كان المدير أو كوبيوس جيورجوس K. giorgos مشهوراً بأنه مضياف، فقدمني لرجل تعلو البشاشة وجهه، طويل القامة، هو الدكتور. تيم كندل T. Kendall بشحمه ولحمه، كان يقول: فندق الأكروبول هو منزلي! دعاني في اليوم التالي إلى محاضرته التي ألقاها. إنها محاضرة عن جبل برقل! عندما جلسنا في حدائق المعهد البريطاني، تحت النخيل كان الجو شبه كولونيالي، بينما كان رجل الآثار الشديد الحماس يشرح لنا من خلال اللوحات والصور محاولاته الرائعة لتسلق قمة الجبل وبذلك يكتشف ما بقي من طهارقة. يبدو أننا أمام قراءة حديثة يقدمها مكتشف قديم من القرن التاسع عشر، وأننا، معشر الحضور، أعضاء هيئة ملكية علمية من هيئات القرن التاسع عشر. فكرت في جبل برقل وفي تلك الدردشة وبدا لي الأمر صدفة غاية في الأهمية تساعدني على فهم المزيد من الأمور المتعلقة بالغموض الذي يلف الجبل.

قمنا بالتنزه، خلال الليلة الأولى، لم يكن هناك مارّة بالشوارع والطرقات العامة؛ هناك بوّاب ينام في الهواء الطلق، وهو يلتحف ناموسية، داخل ما يمكن أن نطلق عليه مهداً؛ كان الكنّاسون يمضون في هدوء، توجهنا إلى النهر، عبرنا الطريق أمام قصر الرئاسة، ذلك المبنى الكولونيالي الجميل، في حدائقه هناك

أكشاك على شاكلة الهياكل البيضاء في الشرق الأقصى، على الطريقة الصينية، لكنها لم تكن ملائمة، وتحت جنح الظلام بدا الشاطئ الخاص بالنيل الأزرق وقد اصطف به أشجار عملاقة هي أشجار البوباب Baobabs ذات الجذوع المفرغة، وحائط قليل الارتفاع والكثير من الحجارة التي خرجت عن مواضعها.

تصطف على جانبي الطريق قصور قديمة ضخمة ليس بها الكثير من الجمال المعماري، وهي الآن مقارّ للجيش أو الوزارات، لفت انتباهنا أجملها، هو مبنى Carreteras . هناك القليل من الجمال الفني في النوبة العليا شعرنا بالاستغراب، لم يكن هناك شيء مفتوح. كنا نسمع موسيقى ونرى أنواراً، ولكن من بعيد، بعيداً عن النهر. انتهى بنا المطاف في إحدى العشش المنزوية، أمام النيل الأزرق، تمكنا من تدخين الشيشة، كان هناك فتية يتعشون الفول، إنهم المراكبية والصيادين والعمال والحراس وكافة هؤلاء البسطاء من الذين يعملون ليلاً. لم تكن هناك تاكسيات، لكن عدنا في صحبة رجل شرطة لطيف اصطحبنا معه في السيارة.

ذهبنا في صباح اليوم التالي إلى المتحف؛ كان قريباً من تلك العشّة، لابد أنه على ما كان عليه خلال الخمسينيات من القرن العشرين، أضف إلى تراكم التراب وقلة الإضاءة.غير أن مقتنياته الآثارية فاقت توقعاتنا، قضينا فيه ساعات طوال؛ كان يحيى سعيداً بوقوفه إلى جوار تماثيل طهارقة، وهي تماثيل كثيرة إحداها كبيرة، وفوق الرأس التاج أو غطاء Onuris ؛ كان شاباً ووسيماً، من سلالة الأبطال الذين عاشوا في الزمن القديم. كان يحيى يشعر بأنه قريب منهم، فكلاهما نوبي، إنه جزء من ماضي أرضه. رأيت رجل سنجا Singa والكثير من الفئوس التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ. كانت الأواني الفخارية غاية في الجمال، من أفضل ما أخرجته يد الإنسان، تذكرنا بأواني أفريقيا السوداء، وتنسب إلى الثقافات الكبرى التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث في الخرطوم، وهي من أهم الثقافات في وادي النيل.

لكن ينقص الكثير! هناك الكثير من القطع التي فرّت وهي قطع مهمة تساعد على تصور أفضل لتاريخ نباتة ومروى. إنها الخاصة بكافة فراعين مصر وبعض الملكات. وكانت عملية النهب تتمثل في إجراء الحفائر مقابل الحصول على 50% مما يتم العثور عليه، واستمر هذا مع الحكومات المتعاقبة، وهناك يقرّر الأجانب ما هي القطع التي يجب أن تسافر إلى أوربا والولايات المتحدة؛ أي أن الأفضل يخرج بعيداً عن الحدود، ويبقى الكسر. تاريخ النوبة إذن موزع بين العديد من المتاحف والمجموعات الخاصة؛ حتى الإنجليز أخذوا لوحة رائعة للإمبراطور أوجوستو، كان المرويون قد استولوا عليها في مصر أخفوها تحت كتل حجرية في أحد المعابد؛ وما فعلوه هو أن أعطوا للسودانيين نسخة طبق الأصل. أما الطابق الثاني، فنجد لوحات الفريسك الرائعة لـ Faras المسيحية التي تؤكد أنه لم يذهب كل شيء من المكان.

وصباح يوم آخر، وبعد البحث، بلا جدوى، عن مدير المتحف، حتى يعطينا تصريحاً لزيارة الآثار المروية في شندي، لم نجد بداً من الذهاب إلى سوق أم درمان الشهير. عبرنا النهرين من جديد، كان الناس كثيرون والحرّ شديد، نزلنا من التاكسي الذي كان يتقفى خطواتنا. أخذنا نحث الخطا، هناك المئات من المحلات مفتوحة في البوائك، مفعمة بالبضاعة، على طول الشوارع الممتدة والمنازل الحديثة، التي تخترقها طرق ترابية. هناك كل أصناف البشر، من النوبيين والأثيوبيين والعرب والبانتو الأفارقة، كل يسير في طريقه، لا يكاد يلمس أحد الآخر. غير أن إمرأة صاحت في لحظة ما وهي وسط الطريق وهي تنظر بازدراء لرجل إلى جوارها.

هناك عدت لمشاهدة هؤلاء البشر نحيفي العود بحيث يبدون وكأنهم مرسومون بضربات ريشة. كانوا جياكومتس Giacomettis حقيقيين يسيرون على الأقدام. أتوا من الجنوب ويقال أنهم من سلالة قديمة جداً هي سلالة نذكا

Dinka. لم نعثر على هؤلاء الرجال العرايا الذين يأتون سيراً على الأقدام من قراهم، وقد غطاهم رماد أبيض. كانت العمائم البيضاء والجلاليب تتداخل في تناغم مع العديد من ملابس "السازي" المتعدد الألوان، وقمصان أهل الجنوب الذين يتسم السواد فيهم بأنه الملمح الرئيسي. كانت هناك بعض الميادين التي تتكدس بها دكاكين البلاستيك، وأخرى للأثاث والملابس والمنسوجات والخياطين والجواهرجية في ممرات ظليلة وشوارع مليئة بالمطاعم. ووسط هذا الزحام وجدنا بائعاً لديه بعض البضاعة من المشغولات القديمة. إنها من إثيوبيا. أما من السودان فلم نجد شيئاً. اشترينا أربعة من أكياس الفول السوداني وبعض التوابل وقطع قديمة من خشب الأبنوس وغررنا.

كنا نتمشى يوماً آخر على شاطئ النيل الأزرق على دراجة بخارية من الصفيح، قمنا بجولة طفنا فيها حول الخرطوم و "الجزيرة"، كنا نبدو كأننا منمنمات وسط النهر الفيّاض والواسع. أول شيء فعلناه هو أن اتجهنا إلى "الجزيرة" وذلك للحصول على الكثير من الأعشاب، لننقلها إلى الشاطئ الأخر، إلى سوق للأسماك. كانوا هناك يبيعون ما يصطادونه من النيل، أسماك ضخمة ذات أشكال مختلفة، كلها متراكمة في قفف كبيرة. كان الصيادون الطاعنون في السنّ يجلسون على كراسي في شبه حلقة تحت أشجار السنط، يرتدون صديري، وبمباتشو (سروال) مثل أهل الأسكندرية، على الطريقة العثمانية. أما الشبان منهم فكانوا يقومون بتنظيف الأسماك على الحجارة تلبية لما يطلبه الزبائن. أما على الشاطئ فهناك مجموعة أخرى تقوم بغسل تلك الأسماك في النهر.

غير بعيد عن المكان كان هناك مسطح ضخم من المياه، وكأننا نرى بحيرة كبرى؛ كان ذلك ملتقى النيلين الأزرق والأبيض "المجريان". هناك كانت بداية نهر النيل الكبير الذي يروي النوبة ومصر، يضم المشهد المسجد الأبيض

"النيلين"؛ وهو أكبر مساجد الخرطوم، المدينة التي يقول عنها أهلها بأنها تضم ستمائة مسجد وثلاثمائة وخمسين كنيسة مسيحية أغلبها قبطية.

تجولنا كثيراً في الخرطوم القديمة، حيث كنا نعيش، كنا نحترق، المرور الكثيف، نبحث عن ملاذ من الشمس الحارقة والتراب. كانت هناك محطة أتوبيس كبيرة في الهواء الطلق بالقرب من الفندق، وكان هناك الكثير من البشر يغدون ويروحون. كان هناك المئات من الشبان الذين يلجأون للراحة، إلى ظل المساجد وفي الشوارع المجاورة، يجلسون على الرمال، يبدون ،وكأنهم غير عابئين كثيراً وبلا حراك، ونظراتهم تائهة. إنهم اللاجئون الذين قدموا من الجنوب ومن الغرب ومن الدول المجاورة مثل اريتريا وتشاد وأوغندا. كانوا مستلقين حسبما اتفق ومتجمعين أحياناً. إنهم الوجه الآخر للحرب. هم الذين فرّوا من الحرب، لا يملكون شيئاً.

بالقرب من هناك نجد العديد من المحلات وخاصة محلات بيع الجواهر، الفتارين مليئة بالذهب وبعض الفضة، هناك عقود وبروشات وخواتم وغوايش والتيجان وقطع حلي مصنوعة يدوياً cinceladas، كلها تومض أمام عيون النساء المنبهرة. هناك محلات الملابس حيث الأولاد يجربون مقاسات القمصان والبنطلونات وهم في هرج ومرج. وغير بعيد عن ذلك اكتشفنا أحياء أكثر هدوءاً، كانت طرقاتها ترابية، محفوفة بحدائق وفلل ليس لها أسلوب معماري واضح الملامح هناك كنيسة قبطية وبعض المساجد وبعض السفارات. بحثت عن التي كانت سفارتنا وحمام سباحتها الجميل، ولكن لم أتمكن من العثور عليها.

قصّ علي بير ذات أحد الأيام التي قضيناها في الخرطوم أنه منذ أن بدأ الرحلة وهو يعاني من الكوابيس، كنت أستمع إليه مستغرباً. نعم، لقد بدأ كل شيء في أكاشا Akasha ! كنت أشعر ليلاً أن هناك كائنات غريبة تحيط بي، تكاد تلمسني، وكنت أنهض من نومي مفزوعاً، فأفتح عيني وسط ظلام دامس

وصمت. لكن ما هو أسوأ حدث في كريمة؛ كانت تتأرجح أمام ناظري امرأة مغطاة بخمار أسود من رأسها حتى أخمص قدميها، وتدخل جسدي. كنت أقاوم وأصارع ذلك الخيال، وأصيح طالباً منها أن تذهب معكما. يا لها من فكرة! لكن المرأة لم تتركني وتغطيني بالخمار. كان عندي انطباع بأنني سوف أفقد زوجتي.

كنت أتذكر الموتى في جبانة كريمة وأنا ساهم، ذكراهم تحدث تأثيرها على الموجات، وتنتشر في الهواء. فهل تتسبب في الكوابيس للجيران؟ لم تكن تعرف أن زوجة بير قد تلقت خبراً دراميأ خلال تلك الأيام؛ كانت العملية الجراحية وشيكة، فلم تخبر زوجها بما سيحدث لها حُباً له ورغبة منها في عدم تعكير صفو الرحلة. كانت وحدها بعيداً تمر بهذه المرحلة، كانت عصبية ومتوترة، غير أنها أثناء الليل عندما تستسلم للنوم يتحرر عقلها، ويتحول إلى صرخة وسط الظلمة الحالكة، ويهيم دون توقف ويخترق حدود الزمان والمكان وقد فقد الأمل. سمعت أحياناً صرخة الروح تلك، التي تصدر عن هؤلاء الذين يبحثون عن أعزائهم بدون أمل، كانت تلك المرأة التي ترتدي للنقاب تبحث عن عناق بير وتلبس زوجها العزيز، وهذا الأخير لا ينام من الهذيان.

لم تكن الأمور في الخرطوم واضحة أيضاً، أخذ التوتر يتملكنا، أخذنا نعد الأيام المتبقية وآلاف الكيلو مترات التي تتمثل في العودة إلى وادي حلفا. كان يحيى يريد العودة في الوقت المناسب، ويكون في قريته مع حلول عيد الفطر، ولم يكن بير يرغب في أن يفوته موعد الطائرة في القاهرة، ولا أنا أيضاً. لم يتبق أمامنا إلا أسبوعاً وأيام قليلة، وكان علينا أن نصل إلى شندي، وأن نزور مروى ونلحق بالقطار في عطبرة، في منتصف الطريق. كانت رحلة القطار واحدة كل أسبوع، وإذا ما ضاعت الرحلة تغير كل شيء؛ وصل الأمر مع بير إلى أن هدد بأنه يمكن أن يستقل رحلة بالطائرة من الخرطوم ويتخلى

عن باقي الرحلة. أخذنا نتدبر الأمر من جديد فيما يتعلق بالوقت. لم يكن هناك متسع وكان علينا أن نغادر الخرطوم بسرعة. عاد شبح النقود ليطل من جديد؛ كان الفندق غالياً واقترح بير سداد الفاتورة بتحويلات، وسوف نتأخر يومين لتصفية الحساب أمام العصبية المكتومة التي عليها مدير الفندق اللطيف، إضافة إلى الكثير من المكالمات والفاكسات.

ذهبنا خلال إحدى تلك الأمسيات لزيارة أحد الرسامين المشهورين في السودان؛ رشيد دياب، صديق يحيى منذ زمن الإقامة في مدريد. كان الرجل قد تزوج رسامة أسبانية، وظل مدرساً للفنون الجميلة خلال سنوات عديدة، لكنه عاد. كان على اقتناع بأن بلاده في حاجة إلى هؤلاء الذين رحلوا عنها. دعانا لزيارته في فيلته الواسعة وبها مرسمه، ولوحاته والكثير من الأشياء المثيرة للفضول وبعض المنحوتات. كان متحمساً، ويؤكد أن الخرطوم كانت مدينة مليئة بالحياة، ففيها كان كل شيء. لكن هذا تأكيد ليس لدينا ما نستوثق منه مع أننا كان يمكن أن نشعر به.

وفي نهاية أحد تلك الأيام، بعد أن تعبنا كثيراً في البحث عن أحد الكُتُبيِّين وما إذا كانت لديه كتب تحكي عن التاريخ والآثار مثل مكتبة "L, oriental r" في القاهرة، تمكنا من الوصول إلى المنزل المتواضع للكتبي الوحيد الذي يبيع كتبًا قديمة باللغات الأجنبية. وعندما رحل الأوربيون عن المكان أغلق المكتبة أمام الجمهور. فلا أحد يقرأ شيئاً إلا بالعربية، هكذا قال لنا. دفعت ثمناً خيالياً في بعض الكتب المهمة ومنها كتاب لـ H. Dafalla عن النوبة، كان البروفيسور في حلفا قد أراني إياه. وحتى يدخل عليّ السرور تركني أتصفح للسويسري ج.ل. بورخارد كتاباً يتعلق برحلاته في وادي النيل خلال عام 1813-814م، فتحت الكتاب ببطء وكلي شغف، كتاب ضخم غلافه من جلد أصابته عوامل الزمن، كنت أقرأ وأرى بورخارد وهو يتنقل بين المشاهد

التي مررنا بها. كان الأمر وكأننا نلتقي بزميل رحلة، أو بإنسان معروف منذ زمن مضى.

في الليلة الثانية انتهينا أيضاً إلى العشة الكائنة إلى جوار النيل الأزرق. كانت اللمبة قد احترقت. كانت العشة مليئة بالشباب الذين يتناولون طعام العشاء، قدم لنا المطعم بقايا حلويات من التابيوكا (النشا) والفواكه اللذيذة والمسكّرة. "شربت" شيشتي التفاحة وأنا أتأمل كيف كانوا ينتقلون إلى الجزيرة في ظلمة الليل وفي صمت، على متن قوارب متهالكة مليئة عن آخرها. وصلنا متأخرين جداً في الليلة الثالثة، لأننا قضينا وقت أطول من اللازم في أسواق وسط البلد، هناك العديد من الأرصفة المليئة بالملابس والروائح العطرية والموسيقى، العديد من الشباب السود يشترون بنطلونات وقمصان حديثة، والكولونيا والأغاني التي على الموضة.

عندما وصلنا إلى شاطئ النهر، كانت العشة قد اختفت؛ لازالت الأتربة عالقة في الهواء وخوف بين الزبائن. كانت ألواح الصفيح التي منها السطح والحوائط عبارة عن كرة ضخمة من الصفيح فوق موائد وأمتعة شخصية. فقد قامت حفارة بالقضاء على هذا الملاذ غير القانوني في لحظة، إنه ملاذ لأناس غير مرغوب فيهم، كان يمكن أن نكون تحت هذا الحطام، أخذنا نفكر في ذلك ولازلنا نرى الأكواب المكسّرة والأطباق تحت الكراسي. إنها صورة العنف وقد تجسد، ركلة قدم عنيفة، تعكس طرائق فيها غلظة وكأننا أمام حملة عسكرية. إنه الوجه الآخر للعملة. أصبحت الخرطوم أكثر عتمة مع زوال العشة.

خرجنا مبكرين في الليلة الأخيرة، في رفقة بعض أصحاب يحيى، وهاهم، في نهاية المطاف، سوف يساعدوننا في تغيير العملة. ذهبوا بنا إلى حارة مظلمة حيث قام يحيى بدور الفصال الغاضب؛ غيرت ما معي من عملة اليورو، لكن لم يكن هناك طريق لتغيير الجنيه المصري. لم يكن يحيى يريد

ذلك. إنهم سوف يغيرون لنا بسعر زهيد، ومن الأفضل أن نغير في حلفا! وغيرنا مبلغاً قليلاً منها في نهاية المطاف. حملنا الأصدقاء في سيارتهم، مررنا بالعشة الصفيح المهدودة أو المتجعدة، وذهبنا إلى كافتيريا راقية على النيل الأزرق، كأنها مثل كازينوهات القاهرة تنتشر موائده في شرفات ضخمة تطل على النهر. كانت الليلة ذات طقس منعش؛ أراد بير أن يتناول بيرة لكن الكحول في الخرطوم لا يقدم إلا في الفنادق ماعدا شهر رمضان.

وعندما تحدثنا عن الرحلة أكدوا لنا بشكل قاطع أنه لا يمكن أن نجد تذاكر للقطار إذا ما اشتريناها في عطبرة، فالقطار ممتلئ عن آخره من أول محطة هي الخرطوم، الأمر الذي أثار حيرتنا بالكامل، تناقشنا أخذنا نتأمل الموقف، لم يكن هناك مخرج. قضي الأمر، لن نأخذ القطار، أو أن نذهب مترجلين لمدة يوم ونصف. هذا هو المشهد والوضع. ولابد أنه جعل البعض يشعر بالتوتر، فإما أن ننتظر خمسة أيام ونأخذ القطار من الخرطوم، أو أن نخاطر. فكرة أخرى. لنشتر التذاكر من هنا ونحجز أماكننا رغم أننا سوف نأخذ القطار من عطبرة. لنفعل ذلك في الغد!

أخذنا الأصدقاء الشبان في السيارة وطافوا بنا في جولة ليلية، عبرنا النهرين أو النيلين وكانت أم درمان نائمة، حتى وصلنا إلى مجموعة من الشوارع المضاءة، والناس والمقاهي والمحلات ومحلات في الهواء الطلق وموسيقى. كانت هناك تجري الحياة الليلية، فالناس إما جالسون على الموائد وإما أنهم يتمشون. كان ذلك في نهاية أو عمق أم درمان والجزيرة. حاولت أنا وبير أن نطلب منهم التوقف أكثر من مرة، فقد انتابتنا الرغبة في أن نقوم بجولة وأن نجلس ونتأمل المشهد؛ وأخيراً اكتشفنا ما كان يقصه علينا الرسام، لكن يحيى لم ينطق بشيء، ربما بدا للأصدقاء أن نبقى في هذه الأحياء الشعبية، وذهبوا بنا إلى الفندق وتركونا معلقين في منتصف الليل.

صعدنا. جلسنا في الشرفة، شعرنا أن الليلة تتبخر، لم نكن نسمع إلا الصمت. مع السلامة أيتها الأضواء وحركة المرور والابتسامات والنظرات. هل نذهب إلى الجزيرة؟ لمدة ساعة، لازال الوقت مناسباً،كان يحيى صامتاً وعيناه مغمضتان. كان متعباً، أما أنا وبير فلم نقرر أن نذهب وحدنا، فالذهاب يمكن أن يكون معقداً بدون يحيى، فقد كان المكان بعيداً، والعودة كذلك. دخل بير الغرفة. انسحب، ثم ذهب بعده يحيى لكنه خرج فوراً. هاتفت رشيد ودعانا إلى منزله لنقضي معه بعض الوقت. وماذا عن بير؟ إنه نائم ولا يريد الذهاب معنا. إنني لن أخرج إلا إذا ذهبت إلى الحي الشعبي وليس لأدخل منزلاً آخر، اتصل به قبل أن يتأخر الوقت. اختفى يحيى من جديد، وعندما خرج جلس إلى جواري وأغمض عينيه.

تلا ذلك مباشرة خروج بير وهو يصرخ غاضباً. لاشك أن صراخه أيقظ بعض سكان الفندق. أخذ بناصية يحيى، فعل ذلك بغيظ وكأن هذا الأخير قد تسبب في كارثة، كان يصرخ فيه بقوة. كنت أنظر مستغرباً. ما الذي تفعله معي! أن تسيء علاقتي برشيد من وراء ظهري وتقول له بأنني لا أريد الذهاب إلى منزله!. ولكن هل سألت يا يحيى بير فيما إذا كان يريد الذهاب إلى منزل رشيد؟، لا، لا لم أقل له شيئاً. أخذ بير يسرد عليه واجباته؛ في هذه الرحلة ندفع لك حتى تعتني بنا وتترجم لنا وأن تلبي طلباتنا! كنا نريد هذه الليلة أن نقوم بجولة، وأن نتوقف هناك، لكن ها نحن هنا!.

كان عقلي يرفض تصديق ما يحدث، من هذا الانفجار غير المتوقع، إنه غير عادل ولا مبرر له، ولا أجرؤ أن أقول ذلك لصديق لي، والأكثر من ذلك قوله لشخص يمكن أن يشعر بالإهانة. ربما كان أقل قدرة مادية، لكن يحيى كان من حيث الجهد والحساسية يتجاوزنا بمراحل؛ كنت أنا أشير لكن يحيى كان يحول الرغبة إلى حقيقة، كان يقودنا. وكان بير أكثرنا سلبية، كان يترك نفسه

على حسب ما يشتهي السفن ومع هذا يصتر ويطلب، ولم يكن يفعل ذلك كصديق وإنما كمجرد سائح كنت أنظر إلى يحيى، حزيناً وقد تكوّر في مقعده، من المؤكد أنه متألم لكنه صامت على عادة المشاركة.

أنا لا أوافقك أبداً على ما تقول! هذه الرحلة ليست رحلة يرافقنا فيها ترجمان نوبي مثلما كان يحدث في الأزمنة الخوالي، إنها رحلة يقوم بها ثلاثة أصدقاء، نطوف سوياً بأرجاء بلد لا نعرفه ويساعد بعضنا البعض بكل ما نستطيع، وأعتقد أن يحيى يقوم بجهد غير مسبوق، فبدونه لم يكن كلانا ليتمكن من المرور بأول قرية، ولأصبحنا بدون نقود. أغلق بير الغرفة على نفسه. تمتم يحيى بقوله، يا صديقي، أشكرك كثيراً على ما قلته.

ارتكبت خطأ فادحاً في هذه المظلمة، فلو كنا قد ذهبنا إلى منزل رشيد لكنا قد قضينا وقتاً ممتعاً واسترحنا، وأن نرافقه في هذه الليلة لنعرف الخرطوم التي لم نكن نعرفها، بأبوابها الغامضة التي تفتح، وفللها ذات الحدائق العطرة برائحة السنط ودهاليزها حيث يمكن التمييز، في الظل، بين النظرات الخاطفة، بينما ترقص النساء الأفريقيات على الحلبة وهن يغصن مرحاً وسعادة، بينما الرجال قد تملكهم إيقاع الموسيقى والأضواء في جو تموج به الرغبة والحمية والمرح. هكذا كان نادي "السودان" وغيره من المحلات ذات الروّاد من الأفارقة، في القاهرة، وهذا ما تخيلته في الخرطوم. قالوا لنا بأن الليالي هناك طويلة طويلة.

في صباح اليوم التالي حزمنا أمتعتنا وخرجنا لتغيير عملة. مررنا أمام البنك الوطني، وساعدنا بعض البوابين الحريصين؛ في الخلف، أي هناك حارة تغيير العملة في السوق السوداء. إلى هناك ذهبوا بنا في ليلة سابقة. كان من يقومون بتغيير العملة يفعلون ذلك في وضح النهار وهم بين السيارات الواقفة والمارة. كانت الحرارة قوية، كانوا يعرضون علينا تغيير أية عملات، كان

يحيى يختفي، ثم يعود بعد هنيهة. ألم تغير الجنيهات بعد؟ لا، لا، يقدمون سعراً زهيداً، من الأفضل أن ننتظر حتى نعود إلى حلفا. وبعد مرور ساعة أشرت عليه وأنا فاقد الصبر، عليك أن تغير كل شيء الآن فلا نريد أن ننتظر حتى نصل إلى حلفا. إنها نهاية الرحلة! اختفى يحيى لعدة لحظات، وعاد. انتهى كل شيء، هيا بنا!.

أخذنا تاكسي، وقد أنهكتنا حرارة الشمس وأخذنا نمضغ التراب، وبعد جولات كثيرة بعدة أحياء وصلنا إلى المحطة، كانت القطارات تتجه من هنا إلى وادي حلفا، لم يكن هناك أحد لا في ممرات المحطة أو على الأرصفة. تذاكر؟ أجاب أحد الجنود. إنهم يبيعونها قبل الرحلة بيوم، وتظل الشبابيك مغلقة حتى ذلك الحين. لا مخرج أمامنا، غامرنا، لنذهب بسرعة! عبرنا أرجاء المدينة مرة أخرى، المكتظة بالسيارات ومشاكل المرور والحرّ الرهيب، توجهنا إلى ميدان صغير حيث كانت هناك الأتوبيسات المتجهة إلى شندي، هي صغيرة لكنها مريحة. ألقينا بأجسادنا على المقاعد، وخرجت الحافلة. لم أعد أفكر في شيء، وربما نمنا.

عندما استيقظت بعد عدة ساعات وجدت أننا قد اقتربنا من شندي، كنا نسير في طريق ضيق، رأيت علامة إرشادية "نقا" NAQA وسهم يشير إلى الصحراء، وسرعان ما أخذنا نرى أشجار السنط وأخذ المشهد يكتسب صورة رومانسية وشعرية، إنه يتم استخراج الصمغ العربي من هذه الأشجار كانت جذوعها تمتد أفقياً، هناك سقف وطئ ذو قماش أخضر يحول دون رؤية الجبال الجرداء الكائنة في عمق المشهد. كانت شندي ضخمة، مررنا بوسط البلدة، هناك منازل من الطوب وبوائك ممتدة بها أقواس نصف اسطوانية وطرق ترابية واسعة؛ كانت هذه هي البلدة الأكثر جمالاً التي شهدناها حتى الآن. كانت البوائك تضفي عليها صفة التقادم، إنها بلدة ريفية فيها ما لا يتوفر في أي بلدة أخرى.

ومع هذا فذلك الهدوء والراحة الظاهرين يخفيان وراءهما ملحمة درامية. حدث ذلك عام 1820 عندما وصل إليها إسماعيل باشا بجيشه لغزو النوبة ومملكة "فونج دل سينار Fung del Sennar". ولأول مرة في التاريخ تصل مصر إلى جزيرة مروى، ذلك الاسم الذي أطلقه الأقدمون عليها؛ جعالين شندي، ميك نمر Mek Nimr تصنّع الجلال؛ إنه ملك محاط بروائح كريهة ودهانات سحرية؛ قام هذا الملك بدعوة الجيش الغازي إلى مائدة عامرة. وضع في الكئوس مخدراً قوياً، وعندما ناموا جميعاً أحرقهم أحياء؛ وبعد تلك الهزيمة غير المسبوقة التي مات فيها إسماعيل أيضاً، تم تدمير المدينة. لم يكن هذا مهماً؛ كانت ذكريات تلك الملحمة، الأفريقية الطابع، تسبح في هواء شندي الهادئ؛ ومجرد اسمها، المحاط بالغموض، يثير الكوابيس صوب الشمال.

أخذونا إلى الفندق الذي أوصينا به، هو عبارة عن كتلة أسمنت ترجع إلى الستينيات. ولمزيد من الفرحة كان الفندق يطل على النيل. كانت مياه النيل تمضي أمام أعيننا في ذراع ضخم ومائل للزرقة، به جزر غير مرئية وسط المجرى، تكاد تصل إلى مستوى المياه. كان عليها الصيادون متجهين صوب قواربهم. يبدون من بعيد أنهم يسيرون فوق الماء. هناك سراب سحري يضيف الكثير الأسطورية على الهواء العليل لذلك المشهد، اتخذنا أماكننا في غرفنا في الطابق الثاني. أنا وبير معاً. كان حمام السباحة عبارة عن حفرة مياه، لكننا تمكنا أن نرى لأول مرة، من الشرفة، منظر غروب الشمس، المياه ذهبية والشواطئ سوداء مترعة بالنخيل.

كنا في جو أسري، لا أحد غيرنا في الفندق. تناولنا إفطار رمضان مع المنتاة وطاقم الاستقبال في دهليز الفندق حيث يشاهدون مباراة كرة قدم في التليفزيون. إنها مباراة لريال مدريد! اللاعب فيجو! ممتازون! كانوا يصيحون بحماس. هم الأفضل! كان جهلي بالكرة كبيراً، لكن يحيى كان يتابع المباريات بنفس الحماس. كان الدوري الأفريقي، وكانت المباريات كثيرة.

أتى مدير قطاع الآثار لتحيتنا، هو شاب متخصص في الآثار، أكبر حجماً من الآخر، وظريف جداً، كان يزورنا في الصباح بالتصاريح والسيارة لننتقل إلى أطلال مروى، وفي الوقت نفسه كنا نلقي بأنفسنا بين ذراعي الليلة، أراد بير أن يذهب بنا إلى بيناريس Benares، على شاطئ النيل، حيث كان الرجال والنساء والأطفال يستحمون هناك. عبرنا خط السكك الحديدية في الظلمة الدامسة، ونزلنا فوق كثبان من الطين والحجارة حتى النهر. كانت المياه تحدث نوعاً من البربطة الغريبة. هل تعرفون ما يقولون عن الليالي إلى جوار النيل ولماذا لا يقترب الفلاحون أبداً من المكان في مثل هذه الساعة؟ لا يخطرن على ذهنك إفشاء السرّ أجابني بير، وضحكنا لكن الجلبة كانت تعلو. لم نكن نميز لون المياه بسبب الععتمة؛ كانت أضواء Aj Juwer تبدو من بعيد على الشاطئ الآخر. هل هناك تماسيح بالفعل؟ جلبة أخرى، ولا لحظة بعد ذلك قفزنا خارجين.

توجهنا إلى وسط شندي. كان عبارة عن سوق كبير، تحت البوائك والحوانيت مفتوحة والعديد من المقاهي على الأرصفة الترابية، هناك موائد لتناول الطعام، ومطابخ في العراء بها دخان كثيف، وفلاحون يجلسون في مجموعات يتسامرون في الهواء العليل، رأينا رجلاً جالساً ينوّه ببعض الإشارات وهو على باب أحد المطاعم، كانت الموسيقى تصدح إلى جواره وكان يتمايل على أنغامها. يضحك. هذا الرجل مزاجه عالٍ. قال ذلك يحيى، وأخذ يداعبه، وذلك حتى يدعونا إلى منزله. كان لاعب كرة قدم، لكنه الآن لا يفعل شيئاً، يتسلى.

في الركن الآخر هنالك محل خياط مفتوح. كانت جدران الطوب العالية مغطاة بالجاكتات والصديريات والجلاليب ذات اللون الأبيض. هناك فاترينة من خشب قديم وماكينة خياطة صغيرة كان الخياط يجلس أمامها، وأمامه مجموعة من بكر الخيط. جلسنا جلسة طيبة، قدموا لنا الشاي وأخذنا نتسامر.

أخذنا نتفرج على الجلاليب السودانية الجميلة، فضفاضة وأجمل من الجلاليب المصرية، وكذلك الصديريات التي تحمل طبيعة البلاد. اشتريت جلابية معلقة مصحوبة بصديرية بيضاء، أوصاني بها كثيرا أصحاب المحل. أخرجت القلنسوة من جيبي، وخرجت على هذا الحال إلى الشارع، وقد تحولت إلى سوداني مرتجل.

اقتربنا من مجموعة من الشوارع المغطاة المليئة بمحلات الملابس، مئات المحلات تفتح أبوابها على مصارعها، والفتارين على شكل حرف U والحوائط مغطاة بكل أنواع الملابس الممكنة، كانت المحلات تزحف على الرصيف، ولا تترك إلى فُرجة صغيرة ترابية. هناك الأسر ومجموعات من النسوة ورجال وشباب يتمشون يقتربون من بعضهم البعض كأنهم فراشات ترقص حول مصدر الضوء وهي المحلات. وتحت هذه الأقواس من الأقمشة كان الناس يدخلون وينظرون ما يعرض عليهم ويجادلون، لم يكونوا من ذوي الميل إلى الفصال مثل المصريين حيث يكاد يجري في دمائهم، والأقمشة الملونة وثلاثة أمتار ونصف، مقاس الساري، كلها أقمشة من الألياف الصناعية، كانت المنسوجات القطنية المصرية غائبة عن المشهد. كنا ندخل كافة المحلات، كان يحيى يبحث عن شيء لزوجته - وشيئاً للأخرى - ولابنتيه. كان يحيى وبير يتوقفان، ويختفيان، ثم يتأملون بعناية المناديل والشيلان المعلقة، ومنسوجات للطرح ذات اللون الأسود والمطرزة بالزهور، وملابس للطفلة في الأعياد. كان الجو حاراً وخانقاً وكان هناك الكثير من الناس. وبينما أنتظر كانت تقترب مني مجموعات من اليافعين من ذوي الخمسة عشر عاماً ويصافحونني وتبدو عليهم علامات السعادة. مبروك، حسن، كأنك سوداني أصيل! كنت أضحك معهم. ثم يذهبون ويأتي آخرون من المارة، ويبقون يتأملون المشهد ويضحكون ويقتربون مني للتربيت على كتفي الأيسر. حسن، تبدو سودانياً! رائع! حدث هذا عدة

مرات، فكرتُ، يا لها من سعادة. حسن أنهم لم يرفضوني، ولم يسألوني من أي بلد أنا؛ أنا غريب لكنهم يشعرون أني قريب منهم كانت ملابسي هي نقطة الالتقاء.

خرجنا من المكان لنبحث عن أشرطة للموسيقى السودانية، وانتهى بنا المطاف في محل صغير، حوائطه مكسوة بالكاسيت، حيث الوجوه مبتسمة على كل الأشرطة، ولعدة ساعات أخذوا يعرضون علينا أغاني مختلفة، وفي نهاية المطاف رقصنا جميعاً وقد غمرتنا الأنغام والكورس وتقاسيم العود والأوركسترا. أما في الشارع فهناك مجموعات من الشباب تنظر إلينا وتضحك. كنا قد تأخرنا، وانتهى بنا الأمر للجلوس على المائدة وسط الشارع لنتناول وجبة خفيفة. كنت آكل القليل خلال إقامتي في شندي، بينما الآخران يأكلان لحم الضأن بنهم بالغ.

ثم جلسنا على المقهى الذي يؤمه الكثيرون، تحت الشجر حيث كان هناك ما يقرب من ثلاثين من الشباب الفلاحين يشاهدون التليفزيون. كانوا يشاهدون في صمت مسلسلاً مصرياً غاية في الشعبية في العالم العربي. كانت هناك مقاعد مكسّرة وموائد صغيرة، وبعض الدراجات المركونة. وفي أحد الجوانب، حول مائدة، كان البعض يلعب الكوتشينة. شربنا شاياً وشيشة، وعندما انتهت الحلقة، نهض الجميع وأصبحنا وحدنا. عدنا متثاقلين عبر الشوارع المظلمة؛ كان السوق قد أغلق أبوابه، لم يكن هناك إلا بعض التزرية، وبعض محلات الفخار والأواني الصاج المتراكمة على الرصيف.

في الصباح، وفي وسط النهر، كان هؤلاء الصيادين يواصلون سيرهم فوق المياه وكأنهم كذلك كانوا يضفون على المشهد الهادئ جواً كأنه خاص بالكتب المقدسة (روحانياً) وسريالياً، بينما القوارب تمخر المياه إلى جوارهم. ها نحن نرى تفسيراً بسيطاً لتلك الأساطير والمعجزات التي كانوا يقصّونها علينا

صغاراً. خرجنا، توجهنا إلى حديقة بها أشجار وزهور، حيث أعدوا لنا إفطاراً شهياً. ذهبت هذه الثنائيات من الفتيات والفتيان التي كانت تتناجى ويدنو كل منها للآخر. لم يكن هناك إلا بعض الأطفال الذين يجرون. لم يكن بير حاضراً؛ في حقيقة الأمر كنت قد فقدت في الخرطوم رفيق رحلتي؛ غرقت هناك تلك الحاجة والمتعة في المشاركة والاتصال، كنت أشعر أنه يزداد بعداً مع مرور الوقت، وحل الصمت محل الابتسامات.

ركبنا سيارة النقل ورحلنا، عبرنا البلدة التي كانت تمتد وسط الصحراء، وفي الخارج هناك مجموعة من المنازل الواسعة لها جدران من الطوب وأبواب صغيرة تذكرنا من جديد بالقرى النوبية. طفنا بالمكان وعبرنا ذلك الشريط الضيق الفضي للطريق واتجهنا صوب الصحراء. وليس بعيداً وقفنا إلى جوار مدخل الجبانة القديمة. كانت الكثبان الرملية المرتفعة تحول دون رؤيتها اللهم إلا بعض الأطلال البارزة.

كان هناك عدد كبير من الأطفال من الذكور والإناث يبيعون ما استطاعوا أن ينتزعوه من الأجداد، فهناك الخرز والسيوف الرائعة منقوشة عليها الأسماء، وبيض النعام المفرغ، والصناديق الحمراء القديمة على شكل خُصّ ولها قبو؛ وكانت هذه هي التي تبقى عليها الزوجات الشابات مغلقة وبها الكثير من المُرّ والبخور، حتى تأتي اللحظة التي ترغبن في الاتصال الجنسي بأزواجهم الكسالى، فيقمن بفتح الصناديق تحت الأسّرة فكانت الروائح تغمر المكان وترسل بالرسالة غير المباشرة.

كان بير قد ذهب، أما أنا ويحيى فقد ظللنا نتسلى بعض الوقت ثم ركبنا بعض الجمال يقودهم إثنان من الفتية البدو سيراً على الأقدام. تمتد الصحراء أمام نواظرنا. كانت الشمس في أوجها، وعلى وقع سير الجمال صعدنا الكثبان رويداً رويداً، دخلنا في واد كبير من الرمال، عبرناه ببطء، كان الصمت هو

البطل المطلق، نبدو وكأنه تغمرنا أصداء أزمنة خوالي، تحوط بنا أهرامات من كل جانب. إنها مروى! ها هي كانت هناك!، كانت الأهرامات على خط واحد وفي مجموعات، تبدو بقممها وكأنها تتجه صوب السماء. هناك ضوء أبيض ينعكس بقوة، بينما تهب الرياح تحمل معها موجات من الرمال بالقرب من الأرض.

تبدو أهرامات مروى كأنها جيش صامت من الكتل الحجرية. تبدو وكأنها قطع شطرنج، أي أفيال قامت يد عملاقة بوضعها على الرمال. بلغ عددها مائة وسبعة ولازال هناك أكثر من أربعين، هاهم ملوك وملكات تلك المملكة الأسطورية يرمقوننا من توابيتهم من الحجر الأسود. اجتمعوا جميعاً، إنه تاريخ شعب من الشعوب القديمة سيطر على هذا المشهد طوال سبعمائة وخمسين عاماً، كنا نتجه صوب المركز الخاص ببلاط رائع يذكرنا بتلك الإمبراطورية الأسطورية.

يبدو المشهد وكأنه ديكورات ضخمة على خشبة مسرح، وربما كان أكثر نقاء من مدينة البتراء، كانت الأهرامات مشيدة على قمم كثبان مرتفعة وبذلك تكون هناك فجوة كبيرة بينها وبين الأهرامات الباقية. وعندما يقترب المرء منها تبدو وكأنها ناطحات سحاب ذات قمم مدببة؛ كانت الأهرامات على مختلف الأحجام وبعضها صغير الحجم كأنه أحد المنمنمات؛ الأقدم منها كان يتسم بالضخامة وقواعدها ضخمة وجيدة الإنشاء. كانت طبقة الحجارة الجميلة التي تغلفها بما تحمل من دقة الإنجاز والرشاقة دليلاً على عبقرية الشعب الذي أقامها، وعلى حسه الجمالي وحساسيته البالغة.

كان بير جالساً وراء الهرم الأخير وقد أدار ظهره للوادي، وأخذ يرسم، أما يحيى فكان يدخل كافة المقابر، بينما كنت أمشي على غير هدى، وظللت كذلك لساعات، لم أكلّ من السير بينها، كانت ترتفع في كل مكان فوق الكثبان،

متجاورة تكاد تتلامس. كنت كأني دمية صغيرة تائهة في هذا المشهد الضخم؛ كان اللاواقع مخيماً، ومحاطاً بتلك الكتل الهندسية المحضة. أتنقل بينها، أمشي الهوينا وأدور حولها، لا تكل نواظري، كنت أود أن أحيط بكل هذا المشهد المفعم بالأحلام وألمسه وأدرك أنه موجود، كنت أسير وسط هذا المشهد وكأن الهواء الذي يلفح وجهي كان مضمخاً بالدهانات السحرية، وكأن المرء هنا يخترق حاجز الزمن ويتجسد في إنسان آخر يعيش في لحظة خلت.

كنت أستلقي على الكتل الحجرية، وأجلس، أصعد ببطء السلالم الصغيرة لتلك الحوائط الرأسية، وأكتشف "عين حورس" المنقوشة في منتصف البناء، وأتوقف، أحاول أن أرى المسافة الفاصلة عن القاعدة، وأعود. ووسط الصمت الذي يلف هذا الوادي الضخم لازالت ترن حتى الآن – هكذا يبدو – أصداء خطوات الاحتفالات الجنائزية، والأناشيد الغامضة، وعويل النائحات وحاملي القرابين. لم يبق إلا الصمت وأهرامات خرساء؛ أخذت أشكالها تتكاثر وتنتشر بطريقة تلقائية فوق الكثبان، تلقي على الجو بمسحة من الحزن.

كانت الأطلال تسهم في إذكاء هذا الشعور، فقممها مهمة وبعضها قد خرجت أحشاؤها، فبعد سنوات قليلة من اكتشاف العلماء لها شهدت مروى زيارة درامية، إنه المغامر البولوني فيرليني Ferlini الذي قام بأكبر عملية نهب بشعة فلم يكن يرى في الأهرامات إلا محاجر. دمر أجزاء كبيرة من معظمها. كان هناك هرم من أكبر الأهرامات في المكان وهو الخاص بالملكة Amanishakheto الذي يرجع إلى القرن الأول ق.م.، فقرر فك الهرم حجراً حجراً، من أعلى إلى أسفل، واستغرق ذلك شهراً كاملاً، حتى عثر على الكنز الذي كان يحلم به. تمكن مما أراد إنها مشغولات رائعة من الذهب والميناء، وسرعان ما باعها في أوربا؛ لم تبق أية قطعة منها في بلاده. أدى هذا الاعتداء إلى إغلاق المكان وسيطر على مصير الأهرامات لعقود من الزمان.

اقتربت من المكان الذي كان بير يرسم فيه، كان جالساً في الظل، والهواء يضرب وجهه. نهض. هل تريد أن ترى ما أرسم؟ – قال لي – طبعاً كانت هذه أول مرة يطلعني على عمله. شهدت اللمسات الجميلة بالألوان المائية، والشواطئ البنفسجية لبحيرة ناصر، والدور النوبية والوجوه والأشياء والجبل المقدس ولون الصحراء المائل للبنّي والأهرامات. هذه الجبال قللت من التوتر بيننا. عاد التواصل بيننا من جديد، ألقيت بنفسي فوق أحدى الكثبان، وفي الخلف كان هناك الوادي الذي يبدو كأنه مشهد يليق بالعفاريت والمتحرة، رسم لي الصورة التي ربما تتسم بأنها تلخيص لرحلتي، وأصبحت دليلاً وشهادة على أن الأحلام موجودة وتتحقق، ولا يعدو الأمر إلا الإيمان بها وألا نتوقف حتى نجدها.

تنزهنا مع يحيى، وأخذنا نشاهد النقوش الخاصة بالمقابر وقد إصفرّت بعوامل الزمن، أبدينا إعجابنا بالنقش الخاص بكل من الملك ناهيرقا Nahiraq وأركماني Arqamani، جالسين على شكل أسود وتاج مصري به حيّتان على صدورهما. كانت مصر الحاضر الدائم؛ ما فعله هؤلاء الملوك الأفارقة هو أنهم نسخوا شيئاً من عظمة طيبة، وأنشأوا في هذه المملكة البعيدة نسخة من البلاط الفرعوني، حيث يقال إنهم من سلالته، لكنهم أسهموا ببعض الشعارات الرقيقة، إنها السعفة، علامة الملكية والخلاخيل المشغولة والصدريات والحلقان التي تتزين بها الشخصيات المهمة خاصة الملوك.

اتجه بير صوب الجانب الآخر للوادي، أي نحو الجبانة الجنوبية، الأكثر قدماً، ففيها كان هرم أركاكاماني Arakakamani أول ملك دفن في مروى. ومن هذه الزاوية نرى من بعد باقي الأهرامات المروية. كان من الصعب أن يباعد المرء عن ذهنه ذلك الحلم الذي يلف كيانه. عدنا إلى سُنُم الجمال، وعبرنا الوادي من جديد، أخذ ذلك المشهد الذي لا مثيل له يتباعد رويداً على وقع أقدام

الجمال الوئيدة؛ فربما كان المشهد من فعل الجان الذي نشر كل هذه المباني فوق الرمال؛ لفّنا الهواء مرة أخرى، وأحاط بنا من كل صوب، ابتعدنا عن الأهرامات السوداء التي كانت ذكرياتنا أسيرتها وأسيرة بنيانها.

اتجهنا صوب مجموعة أخرى من الأهرامات، تهدمت بقوة، وعبرنا الطريق من جديد، وواصلنا السير في المدقّات الرملية، حتى دخلنا في غابة من أشجار السنط العتيقة مترعة بالأطلال. إنها مروى القديمة، لم يتبق منها إلا مجموعة من التلال من الفخار والنفايات، وبقايا حوائط من الأحجار؛ لاشك أن مروى كانت مدينة كبيرة، لا تكاد تكون معروفة، فقليل من الباحثين تمكنوا من العثور عليها. كان دفاعها النيل الذي لا يمكن الإبحار فيه في هذه النقطة والصحراء الشاسعة. عاشت عصر ازدهار ابتداء من القرن السادس ق.م. حتى الرابع بعد الميلاد في ذلك الركن في قطاع النيل الأوسط، حيث هنا حزام الأمطار الاستوائية؛ الكثير من الغابات ووفرة في الأخشاب. امتلأت المدينة بدور العبادة والقصور والآثار، وأحاط سور ضخم بالمقر الملكي، كانت المنسوجات القطنية والحدادة من العناصر التي جعلت منها أول مدينة صناعية في أفريقيا، إنها غموض شائق لأنه انطفأ وحده وكأننا نشهد شمعة تذوب دون أن تحدث ضجيجاً يتحدث عنه التاريخ.

إنها مروى، المدينة المختبئة. لم يقل لنا أحد، ولا حتى لتحتمس الثالث، الذي كان يصطاد وحيد القرن على شواطئ البربر Berber عند الجندل الخامس، أين هو ذلك الإقليم المجهول. ولو كان فرعون مصر قد سار أياما قليلة نحو الجنوب، بعيداً عن مملكة إرم Jrem وميو Miu لكان قد بلغ جزيرة مروى، ولكانت مصر بهذا قد اكتشفت يوماً ما السرّ الأعظم لمروى، وصناعة المعادن والإنتاج الصناعي للحديد، ولو فعلت لكانت قد احتلت مكانة الصدارة دوماً وغيرت مسار التاريخ. لكن مروى اختبأت وراء صحراء بيوضة Bayuda، وفقدت مصر السبق إلى الأبد.

خمّن ج. بروس Bruce مكان مروى القديمة عام 1772م، لكن بورخارد لم يتمكن من الأمر فقد وصل إلى هناك (1814م) متعباً بعد أن اكتشف أبو سمبل، ولم يتعرف عليها ومضى لاميانيا. من اكتشفها كان كيلود Cailliaud عام 1821م وشرح لنا كيف هي في "رحلة إلى مروى". لم يتبق شيء. فمن معبد آمون لم يبق إلا الأساسات وبعض تماثيل الكباش في الطريق إلى المدخل، وهو تمثال غير جيد الإخراج؛ إضافة إلى صالة غربية هي "صالة الأعمدة" وفي العمق هناك مكعب من الجرانيت الأسود. كان هناك أيضاً Nympheo (مكان لعبادة آلهة الماء) رائع، حيث كان يتم القيام بالتطهر المقدس، وميداليات ذات ألوان رائعة وتماثيل من الجص لنساء ورجال عراة، كلها تتسم بواقعية مثيرة تلقائية.

أما في الخارج فقد أقيم "معبد الشمس" حيث نجد كافة حوائطه وأرضياته مغطاة بالزليج الأزرق، وهو أحد الألوان المفضلة عند ملوك مروى. وطبقاً لرواية هيردوت، كان يوجد في مروى "مائدة الشمس" التي يمكن أن تكون ذلك المعبد. وكان المعبد مكرساً للسلطة الملكية، ونرى ضمن نقوش المعبد مناظر للأسرى، مثلما هو الحال في سوليب Soleb، كما نجد مناظر للرقصات وقطعان الماشية وكذا مركبات تجرها الخيول كان الملوك يقدرونها كبير.

كانت هناك أيضاً أطلال دور عبادة مكرسة للإله أبدميك Apedemek الأسد المقدس لمروى وهو الإله الأقدم والأقوى، وكذا معابد لإيزيس وأبيس، كل ذلك في خلطة فريدة من الآلهة الأفريقيين والمصريين. ويقال أن السوداء إيزيس وشقيقها وزوجها أوزوريس – أسود البشرة أيضاً – ترجع أصولهما إلى جنوب مصر، وبالتحديد أثيوبيا. كان الحارس يحتفظ داخل كابينته الضيقة بتاج عاجي ضخم منحوت، وهو التاج الوحيد الذي بقى. انطمر كل شيء تحت الأرض، وتعرض للتدمير، لم يتبق شيء من مروى ومعابدها ذات الطراز الفرعوني

والهلنستي، وكلها مكسوة برقائق من الذهب، ذات أبهة وجواهر تخطف الألباب وملابس ملونة من الحرير، والاحتفالات بينما يمتطون صهوة الأفيال على وقع الطبول ونساء أفريقيات يرقصن على أنغام قديمة وأبدية.

لم يتبق شيء من تلك البلاط، الذي توارى في عمق النوبة البعيدة، ولا من تلك المدينة، التي تربطها الطرق بالنيل الأزرق مباشرة وبحيرة تانا Tana وباب المندب على البحر الأحمر، وفي أسواقها تجتمع كافة العرقيات التي جاءت من قلب أفريقيا السوداء ومن إثيوبيا والهند والجزيرة العربية أو الأنباط. هي المكان الذي تحول فيه كُتّاب فراعنة مثل سيموندس الشاب وداليون، وآلاف من فناني الحرف اليدوية وجيش جرّار. لم نعثر حتى على أي من أفرانها والدخان الذي يختلط بالهواء والعبيد الذين يقومون بالأشغال الشاقة بلا توقف وقد تصبب عرقهم وعلت حرارتهم، كانت مروى أكواماً من الحجارة، لكن تلك الحرارة الشديدة كانت تحول دون الاقتراب منها.

قمنا أنا وبيير بجولة قبل إفطار رمضان في حدائق النخيل المحيطة بالنهر، كان النخل عالياً تتدلى "سباطات" البلح منه، وكان موزعاً على مسافات تتيح الفرصة للقنوات وبعض الزراعات، كان النيل يمضي مهيباً في مجراه بينما تختبئ الشمس وهي تصدر ومضاتها البرتقالية، سرعان ما غابت الشمس، وعند المساء ظهر صقر ظل في الهواء بلا حراك وعلى ارتفاع قليل. ها هو حورس من جديد يقترب من الأرض، كان يبدو أنه في مهمة البحث عن جنوده، ليذهب بهم إلى ملحمة حربية. فهل خرج من هنا، من منطقة النيل الأوسط، أتباع حورس الذين غزوا مصر؟ وهل كان حورس صقراً نوبياً قادم من أثيوبيا؟

أتى المدير لتحيتنا، تبادلنا أطراف الحديث، قلت له: إنني هنا أكتشف زمناً لم يقترب منه أحد، أما أنتم معشر أهل المكان فتنسبون إلى جذور تاريخكم، يبدو أنكم خرجتم من التاريخ مثلما يحدث للشعوب القديمة اليونانيين

والمصريين. يمكن أن تكون ملك مروى، ولكن إذا ما كنت من عطبرة نعم، تشبه ملامحك ملامح سكان بوتانا Butana القدامى. شكراً. وأنت؛ بملامحك العربية يمكن أن تكون من أرضنا، يا له من توافق إنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام. إن شاء الله! يمكن أن يكون..!

خلدنا إلى تناول قسط من الراحة في غرفة يحيى بعد العشاء، كان منهمكاً في مشاهدة مباريات كرة القدم أتعرف؟ - قلت له - أفهم جيداً ما يمكن أن يحدثه الهوى والعشق بالمرأة ومع هذا لا أفهم أبداً أن تعشق امرأة أوربية واحداً من أبناء البلد مثلك أمام أسرته وفي منزله بينما الزوجة مجبرة على الصمت والقيام بإعداد الشاي والطعام لك. لا يمكن فعل هذا في أوربا، يمكن أن يتم في فندق منزو أو في القارب، لكن لا يمكن أن يتم بهذه الطريقة الفاضحة. أنا لا أفهم ذلك! حقاً، كانت زوجتك ثائرة، تبكي طول الوقت. إنه نوع من الإذلال لها أمام أهلها، فلم تدخل هذه المرأة معك إلى المنزل وقد تزوجتك وتصبح زوجتك الثانية. لم تحافظ حتى على الشكليات، وضربت بكل شيء عرض الحائط. إنها الحياة - أجابني يحيى - وهو يشاهد التليفزيون بسعادة. لم أستطع أن أفعل شيئاً، كانت حبي الكبير لقد فاز الفريق الذي يشجعه، وأضفى الفوز المتعة على روحه، لاشك في هذا، إن أخانا الصغير هو واحد من نسيج المكان.

وصلنا في تلك الليلة متأخرين إلى السوق، ذهبنا لشراء المزيد من أشرطة الكاسيت، وجلسنا خارج المكان؛ كانت هناك فتاة تبيع الشاي لها "نصبتها" على الأرض إلى جوار المحل، فرشت بعض السجاجيد، كانت جميلة ترتدي سارياً مطرزاً وأخضر اللون، تجلس على كرسي صغير غير مرتفع. تشعل موقداً فوقه براد الشاي، تقوم بتنظيف الأكواب وتقوم بإعداد الخلطة. طلبنا منها شاياً وجلسنا على الأرض. وأثناء ذلك حلّ علينا رجل بوليس شاب طلب

منها أن تغلق المكان على الفور لأنها تجاوزت الزمن المسموح به بعدة دقائق. ثم عاود الكرة مرة أخرى، وبدون أن ينطق بكلمة واحدة انتزع منها عدة الشاي البسيطة بفظاظة وهي الترابيزة وبرّاد الشاي والموقد. ولن تتمكن من استعادة حاجياتها إلا بدفع غرامة في اليوم التالي. جمعت المرأة صامتة ما بقى لها وتبادلت بعض العبارات مع جيرانها. كانت تجسد الرقة، لم ترفع صوتها أبداً، ولم تغير من رشاقة حركاتها.

في الصباح استيقظ بير عكر المزاج، وكأن شيئاً ألم به ليلاً، ومع هذا فلم تداهمه الكوابيس. صباح الخير، هل دخلت الحمام؟، منذ فترة! باغتني واختفى؛ وجدته يدخن في الحديقة إلى جوار مائدة الإفطار. سوف أشكو لمدير هذا الفندق، ماذا تقول، أتشكو؟ من ماذا؟ نعم، دخلت المطبخ. إنه غير نظيف بالمرة، وهم هنا يعدون الأطعمة لنا. لكن هذا ليس أوربا، كما أن مستويات الجودة مختلفة! نحن وحدنا وهؤلاء الفتية يحاولون تقديم ما بوسعهم من خدمة جيدة. ربما كان المطبخ غير منظم، فقد وجدته بالأمس نظيفاً؛ وإذا ما شكوت سوف يفقدون وظائفهم، تصوّر ما الذي يرون عليه الخواجات بعد ذلك! أشعل بير سيجارة أخرى وغرق في الصمت؛ أخذت التهديدات تتهاوى وتذوب تحت وهج الشمس.

اتجهنا صوب الطريق العام، ظننت أننا سنواصل في هذا الطريق حتى مفترق الطريق إلى بلدة Naqa التي شهدتها قبل ذلك بيومين. لكن لا. فقد اتجهت السيارة نصف النقل صوب الحقول وعبرتها، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في الصحراء وأخذنا نقفز فوق كثبان رملية وندخل وسط سحابات من التراب، مررنا بوديان مليئة بالسنط. وفي العمق نرى قمم جبال كأنها مرسومة، وكلما ازددنا بعداً عن النيل قلت أشجار السنط وزادت الآفاق الرملية. ووسط هذا القفر المهيمن وتحت شمس تُعمي بنورها كان هناك رجل مُسِّن يسير إلى جوار

الطريق أشار إلينا توقفنا. حملناه،جلس في الخلف. كان وجهه أسود البشرة، ضربته الشمس، وغزته التجاعيد؛ كان يضع على رأسه شال عمامة ضخم، ملابس بالية تفضح عن سيقان ناحلة، وعصا. كان يسير حافياً، علا الشيب لحيته، واسع العينين المعبرتين، نظرة عميقة وهادئة وابتسامة فيها غموض. تحدث بمرح مع يحيى، فقد كان – ذلك الرجل – يذكره بوالده. تركناه بعد ذلك في الصحراء حسبما قال على قارعة الطريق. لابد أنه خرج علينا من مكان بعيد وواصل طريقه في الصحراء صوب مقصده.

وصلنا إلى مكان هادئ وجميل، كان ذلك هو نقا Naqa القديمة، في وادي أواتب Auateb. هناك غابة من شجر السنط تصعد حتى هضبة ذات انحدار شديد تسيطر على المشهد بالكامل، هناك مسطح ضخم يتباعد ببطء رقيق، متموجاً ومليئاً بالنباتات والشجيرات، تبرز فيه جبال منعزلة عن بعضها وأشجار سنط وعلى سفوح التل وصوب السهل، هناك أربعة معابد كبيرة متتابعة كأنها شلال من المباني، لكن كل مختلف عن الآخر. اثنان منهما عبارة عن أطلال وآخران شبه كاملين. هذا كل ما تبقى من تلك المدينة محطة القوافل القريبة من النيل، ولابد أنها كانت تعج بأناس من مختلف أنحاء القارة والجزيرة العربية وآسيا وتمارس فيها شتى أنواع الطقوس الدينية.

هناك عذوبة خاصة تضفيها المعابد على المشهد وكأن المكان يلفه السلام والشعرية، فما خلفوه في هذه البلدة – نقا – لم يكن مجرد مساجين تم أسرهم أو أية بوادر أخرى علامة على السلطة الملكية، بل كان التعبير عن التوجهات الدينية والمعتقدات؛ وهذا ما جعل الهواء يحمل طابع السكينة اللامادية. كانت مواقع المعابد متميزة فكأنها كانت ترسم الطريق الغامض الذي يربط بين معبد وآخر، وكأنها تتدفق عبر عرق واحد من الطاقة الروحية، إنها المياه التي تجري تحت الأرض وتضفي قوة على النقوش الغائرة في المعابد وعلى التماثيل.

دلفنا وسط أطلال معبد آمون وأخذنا نقفز بين كتل الحجارة وتماثيل الكباش التي تزين المدخل؛ من قاموا بتشييده هم الناتاكماني Natakamani الأشداء خلال القرن الأول ق.م. جلست في الظل وأخرجت كتابي وأخذت أقرأ عن نقا. لكن بير لم ينتظر، فقد ابتعد عني ليرسم، واصلت القراءة على يحيى، التي تتضمن التاريخ الزاهر لهذه المدينة المقدسة، المليئة بدور العبادة والتي شهدت الكثير من المواكب الدينية. كانت المدينة مفتوحة على كل الثقافات مثل مروى، وعندما رقدت وواراها النسيان وأضحت بعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان، تمكنت أطلالها من البقاء لتقص علينا من قريب المعتقدات المروية، وجزازات غير مسبوقة تتعلق بهذا العالم الأفريقي المجهول.

أخذنا نسير الهوينى ونحن ننزل المنحدر، لحق بنا بير. وعلى بعد يزيد عن كيلو متر، كان هناك معبد صغير منعزل، مشيد على الطريقة الفرعونية، لم يكد يمسسه أحد، وكانوا يطلقون عليه "معبد الأسد" أي معبد أبيد مك . نقوشه الزخرفية جعلته فريداً من نوعه في وادي النيل، فهي تضم العديد من الآلهة الجديدة. وكانت حالة الحفظ التي عليها شاهداً على درجة القدسية التي كان عليها. هذه الهالة التي عليها حالت دون تعرضه للتدمير. كان حائطا الواجهة Pilon مغطيين بنقوش غائرة رائعة عبارة عن مناظر للحكام الذين شيدوا معبد آمون، نشهدهم وهم يقضون على الأعداء، وفوق الملك تجد حورس الحامي، أما فوق رأس الملكة فتجد أنثى النسر نخبت إلهة مصر العليا، بينما يقوم الإله الأسد أبيد ماك بمساعدتهما ضد الأعداء. كان الملك يتسلح بالقادوم والسيف أما الملكة فكانت تحمل سيفين؛ كان ذلك هو المشهد التقليدي للملكات المحاربات في وادي النيل، وهن حلقة في سلسلة طويلة حيث نجد في الأمازون الأفريقي، النساء السوداوات وهن يقدن القبائل والجيوش منذ فجر الزمان، ولهذا يبدو لنا أن كافة الممالك النوبية في قوش ونباتة ومروى كانت وراءهن ملكات (الأمومة

(Matriarcado)، كن يورثن الأرض والمُلك، ووصل الأمر بهن إلى إقامة أهرامات – مثلما شهدنا في مروى – أكبر من أهرامات الملوك. هكذا كانت سلطة تلك الملكات.

كان جسمها ذي خطوط انسيابية، الألية ممتلئة وكذلك الأفخاذ، وهذا ما يجعلهن قريبات من سلالة بوسكي ماناس Bosquemanas (رجال الغابة)، من سلالة سان San التي إليها يرجع النوبيون القدامى. كانت الملكة ترتدي ملابس غير عادية وتتزين بالكثير من الأحجار الثمينة مثل باقي أفراد أي أسرة ملكية، حيث تذكرنا ما كانت عليه بالميرا Palmira من رخاء. هناك قلادة بها حيّتان تذكرنا بأنها ترجع إلى أصول فرعونية، وكذلك الأمر بالنسبة لنسبها الملكي. كانت النساء في كثير من الأحوال والدات الملوك ملكات لا يناقشهن أحد في البلاط المروي. فها هن نساء كانداك Kandake يقررن أمر الحرب والسلام في تلك الأرض.

داخل "معبد الأسد" المكرس دخوله للملوك والكهنة نجد إلهاً لم نره من قبل وسط الحائط الأيسر وهو منحوت من الواجهة، على شاكلة المنحوتات الإغريقية، وله لحية وأقراط وتاج ويمسك في يده حبالاً كثيرة مربوطة بعدد من الأسرى، هو في صورة نصفية على قاعدة عامود وملامح هلنستية؛ وقد نسب خطأ إلى الإله سرابيس السكندري. كانت هذه هي الصورة المنقوشة الوحيدة لإله غير معروف (سرّى) ذي طابع حربي، وربما كان من الأجداد الأسطوريين القدامى. ربما كان مرتبطاً بعالم النبوءة وطقوس تتويج الملوك المرويين، وهي طقوس كانت تتكرر في مختلف قرى أو حصون بوتانا Butana.

كانت الطقوس الخاصة بالجمهور من العوام تجرى خارج المعبد. كان يزين واجهة المعبد مشهدان، كل في طرف، هما عبارة عن حيتين ضخمتين لكل رأس أسد، تخرجان من زهرتي اللوتس. لا يوجد مثيل لهذا المشهد في الفن

المصري، لكن ذلك له ما يماثله في الفن المروى. ربما كانا عبارة عن صورة قديمة للإله أتون أو ابنته تفنوت، وهما بمثابة حيات بزغن من النون Nun، أي الهوة المائية السحيقة، ثم تجسدتا في شكل الأسد، الإله أبيد ماك. كما تتكرانا بالحيات المقدسات في الهند – ناجاس Nagas–. أما بالنسبة لزهور اللوتس فهي رموز أساسية في الأساطير الهندية وأصبحت معروفة في مصر من لدن الإله نفرتوم وأخذت تبزغ على شكل زهرة لوتس ملونة من الفوضى الأولية.

كانت الحوائط الجانبية لدار العبادة عبارة عن حاملة أيقونا حقيقية في الهواء الطلق، إذ تغطيها نقوش رائعة وأشكال ذات أبعاد كبيرة يمكن مشاهدتها من مسافة بعيدة؛ وعلى الطريقة المصرية، نجدها تضم آلهة وملوكاً، كلهم على الدرجة نفسها من الأبعاد سولسية. تؤكد النقوش أن الملوك والأمراء تتدرج عليهم صفات الألوهية، ومن بين الآلهة نجد أبيد ماك، يليه حورس وآمون نباتة وبتاح وخنوم وحتحور. ويلاحظ أن الملوك يحملون الملامح الأفريقية وكأن السلالة الرفيعة – البانتو – قد حكمت هذا الإقليم. هناك الوجوه والأيدي مدوّرة وأجساد ضخمة وانسيابية تغطيها الحلي والزينة. يطلقون عليهم "النوبة" السود، وربما ترجع جذورهم إلى وسط أفريقيا أو البحيرات الكبرى.

ضم الحائط الخلفي مشهداً فريداً من النقوش التي تتحدث عن الأساطير المروية؛ في الوسط نجد الإله أبيد ماك واقفاً، وله رأس ذات ثلاثة أوجه على شكل أسد وأربعة أذرع وأربعة أكف، ويقوم الملك والملكة بالتعبد إليه من كل مكان ويلمسان بخفة أذرعه. لم يوجد في أي جزء من وادي النيل مثل هذا التوفيق بين المتناقضات؛ يذكرنا المشهد بالتريمورتي Trimurti عند الهندوس؛ تجتمع الثقافة المصرية والنوبية والهندوسية في هذا الإله المروى. وحتى يزداد الأمر غموضاً كانت هناك فتحة صغيرة تخترق الحائط بكامله عند مستوى فم الإله الأسد. وكأن هذه الشخصية لها سمات النبوءة، وفي الليالي المقمرة يخرج

من تلك الفتحة ما يشبه الشخير أمام هؤلاء الكهنة المبتدئين الذين سجدوا على الرمال.

إذا ما تأملنا ما قاله شيني Shinnie في كتابه "مروى"، و أ.ج أركل A.J. Arkell في كتابه "تاريخ السودان: منذ زمن حتى عام 1821" (1955) لوجدنا أنهما أفصحا عن الأمر بوضوح عند الحديث عن مروى. كل هذا علامة على تأثير قوى من الهند، ومع هذا لم يعد أي منهما أو أي مؤرخ آخر لتناول هذه النظرية من جديد. أي أن "أبيد ماك التريمورتي" أصبح في منطقة الأعراف دون أن يفصح لنا عن وجوده الملغز. إن وجود هذا الشكل الإلهي الجامع بين الأشتات والوحيد من نوعه في كل أشكال الآلهة النيلية يمكن أن يدلل لنا وحده على هذا التأثير الهندي القوي، إضافة على وجود قاسم مشترك في الطقوس الأفريقية والهندية في ذلك الركن من أفريقيا.

يبدو أن ملوك مروى وأهلها قد اتخذوا لأنفسهم بعض طقوس المهاجرين الهنود وبذلك عبروا عن تعايش سلمي بين شعوب تبدو متباعدة فيما بينها. والشيء الغريب أن العديد من الأساطير ترتبط بهذين الإقليمين المداريين اللذين يفصلهما عن بعضهما المحيط الهندي، وكأن هناك إلحاح على وجود هجرات خلال عصر ما قبل التاريخ من إثيوبيا إلى الهند في الأزمنة السحيقة. لابد من وجود أصول مشتركة بشكل أو بآخر، وهل يمكن لهذه الأساطير أن توضح لنا ذلك الخليط من الطقوس الفرعونية والأفريقية والهندوسية الذي نراه متجسداً في مروى وبالتحديد في معبد أبيد ماك كمثال قوي على هذا؟ أم أن الكهنة البوذيين والكهنة البراهمانيين Bahmanicos الذين كانوا متواجدين في الإسكندرية على عصر البطالمة، كانوا جزءاً من التوسع الهندي في أفريقيا بما في ذلك مروى أيضاً؟.

أمام هذا المعبد الغامض هناك مصلى أو معبد صغير أمامه، به أعمدة وعقود، وهو معبد رائع بخطوطه وأبعاده. إنه يذكرنا "بكشك تراجان" في فيله،

ولو أنه هذه المرة مصغراً وكأنه أحد المنمنمات، وهذا دليل على أن التأثيرات اليونانية الرومانية قد وصلت متأخرة إلى نقا وأن هذا المعبد المكرس للإله أبيد ماك لازالت له أهميته عند أهل مروى مع نهاية عصر إمبراطوريتهم، فقد أقاموا هذا المصلى الصغير والمعقد أمام المعبد.

ذهب يحيى لمشاهدة بعض الأبقار وسط السافانا والشجيرات وبعد أن فزّعها أشار إليّ بيده إلى وجود هضبة قريبة، يمكن الصعود إليها من الأرض وهناك رأينا عدد كبيراً من البدو ترافقهم الإبل، وبينما يقوم الشباب بالعناية بالقطيع – ما يقرب من مائة من الإبل الشقراء والناحلة القوام – كان الكبار يحيطون ببئر عبارة عن فتحة على مستوى سطح الأرض فوق الهضبة، كانت فتحة ذات عمق يبلغ 86 متراً وربما كان ذلك هو المجرى المائي الذي يمرّ تحت معابد نقا Naqa مزوداً إياها بما تريد من إيحاءات الطاقة اللازمة لإقامة الشعائر. كان البدو قد وضعوا هناك جذع شجرة ضخم فوقه كتلتا خشب كأنه شادوف لاستخراج الماء أو ما يسمى بالساقية حيث يقوم حمار بجر الحبل الملفوف على بكرة ليصعد بالماء.

كانت هذه الناعورة البدائية ذات فعالية شديدة فعندما يذهب الحمار بعيداً بحيث لا نكاد نراه تظهر قربة المياه مبللة وتصب منها المياه التي يشربها القطيع. كان الرجال نحاف الجسد وذوي وجوه ملامحها جادة ونظراتهم قاسية، ومن بينهم كانت هناك بعض المجموعات التي تذكرنا بـــ "أركاديا الأفريقية" حيث يتسامرون في تؤدة وهم جالسون على الرمال، كانت ظروفهم صعبة فهم يتابعون الجمال في الصحراء، وكانوا يتصارعون مع البراعم الصغيرة على لبن النياق حيث يخفون ضروعها بقطع من الجلد والمشابك، ويحفظون اللبن لصناعة الجبن.

كان بير يشير إلينا من أسفل وهو إلى جوار السيارة، غير أنني ويحيى

كنا سعداء ونحن نرى كيف يتم تشغيل السانية. لم كل هذه العجلة؟ ولماذا لم يصمد؟ كنا شهداء على مهمة ذات دلالة تقوم بها هذه القبيلة، فقد ورد هذا البئر العديد من الأجيال المتعاقبة، وتهالك جذع الشجرة مع مرور الأزمان واستخراج كميات المياه، كنا نشهد أحد طقوس استخراج المياه، في لحظة غير محددة في الزمان، إنها طقوس ترتبط بحيوات هؤلاء ومتماثلة في كل العصور وعلى مدى آلاف السنين.

نزلنا في نهاية الأمر، ونحن نتأمل المعابد الأربعة في نقا المتراصة في خط واحد، والصحراء المترامية على الأطراف. فهل صدق المغامر أ. جتّي A.Gatti في مؤلفه "توم – توم" Tom-Tom حين أكد وجود جبانة ذهبوا به إليها سيراً على الأقدام لعدة ساعات ابتداء من معبد أبيد ماك؟ وهل هي المكان الذي لازال مهجوراً حتى بداية القرن العشرين وبه مقبرة ملكة كانداك لم تمس، محاطة بالنقوش والحيات والجواهر لا يلج إليها إلا بعض المبتدئين (المديرين)؟

كل شيء تمام! قال السائق؛ فكان ردي: ولا كلمة! لازالت هناك موساوات – الصفرا – Musawawat ! يقال إنها المكان الأكثر جاذبية وغموضاً في كافة أنحاء السودان، قلت ذلك متعجباً وأنا أرمق بير ويحيى. عدنا بالسيارة عبر وادي أواتب Auateb؛ كانت الصحراء جرداء وقمم الكتل الصخرية لا تنتهي، وفي الأفق تترامى عبر الجبال المداخل نوبيان مجاورة. كان حرارة الشمس قاسية وكان المشهد لا يبعث على أمل؛ لم أكن أثق مطلقاً فيما يقال، فكلما مرّ بعض الوقت كنت أسأل السائق عن اتجاهنا.

كنت أفكر في الرحالة الفرنسي العبقري ل. لينان دي بلفوند L. Linant de Bellefonds الذي قام خلال عام 1822م بالمرور بتلك الأصقاع الرملية ومكث ومعه البدو والإبل لمدة ثلاثة أيام في موساوات الصفرا! وأخذ يرسم المشاهد المختلفة. وبعد ذلك بشهر تبعه آخر من فرنسا هو Cailliaud. وبعد

المكوث ردحاً طويلاً من الزمن في تلك العزلة النارية غيرنا الاتجاه صوب وادي البنات، وهو واد قاحل مثل سابقه أوتا Auateb لكنه أكثر وعورة وأقل حجماً. مررنا بفريق عمل يبدو أنه ينقب عن البترول، وهو المكان الوحيد الذي ينبض بالحياة؛ واصلنا الطريق.

وصلنا إلى واد من الرمال أراضيه متموجة وبه القليل من أشجار السنط، حيث نجد بعض الأطلال المتناثرة في مساحة كبيرة. نحن إذن في موساواوات الصفراء؛ عرجنا نحو اليمين، وبعيداً عن الأطلال الرئيسية اقتربنا من معبد صغير فرعوني الأسلوب، أعيد بناؤه، يشبه معبد أبيد ماك في نقا، كانت هناك تماثيل لتمساح واثنين من الأسود تحرس المدخل. فتحوا لنا الباب، كان الجزء الداخلي رائعاً فريد من نوعه في وادي النيل، ويمكن أن يطلق عليه "معبد التنين والعمالقة" وهي نقوش تظهر بكثافة على الأعمدة الكثيرة في المعبد.

كانت النقوش الغائرة لهذه الحيوانات تجعلها تبدو وكأنها حيوانات خرافية grifon وكذا حيوانات أخرى مقدسة؛ تحمل النقوش من جديد أسلوباً يشبه الفرعوني والهندي، تبدو مصاحبة للإله ذي اللحية الذي وجدناه في نقا لكنه واقفاً هذه المرة وعارياً ومسلحاً بهراوة خشبية؛ ربما كان ذكرى لعملاق قديم، كانت قبائل النيل الأوسط تحتفظ به حتى ذلك الحين ومعهم ملوك مروى الذين كانوا يمسكون بهراوة وقوس كأحد أسلحتهم. ويمكن أن يكون ذلك العملاق الجد النوبي للأسطوري هرقل اليوناني وهرقل المصري، وهو ذلك البطل الأسطوري – عصر ما قبل التاريخ الذي تحدث عنه ديو دور. هذا التزاوج بين العمالقة والحيوانات الخرافية كان شبيهاً بذلك الذي يظهر على العصي السحرية خلال الدولة الوسطى في مصر، الأمر الذي يدل على أن ذلك المعبد مكرساً للمبتدئين.

ولتأكيد ذلك، نجد في الوسط، في عمق الرواق، عرشاً من الحجارة على شكل زهرة الطاولة، وربما كان مكرساً لعمليات التتويج الملكي، وفي ما يمكن

أن نطلق عليه حامل الأيقونات الرئيسي، وبالتحديد على الحائط الخلفي، نجد نقشين ~ بروفيل – للإلهين اللذين كان المعبد مكرساً لهما، وهما نقشان غير جيدين على شكل حيوانات تمشي متجهة نحو المركز. وفي الجانب الأيمن نجد الأسد أبيد ماك في القطاع الأيسر، إنه إله غير معروف عبارة عن شكل فيل! وهو إله وحيد أيضاً في عالم الآلهة النيلية، فهل كان إلهاً شديد القدم من الآلهة الأفريقية أو أنه الإله الفيل من أصول هندية، وربما كان Ganesa أو الفيلة المقدسة من سلسلة Visnu أو Aiya Nar؟.

لا يبدو أن أحداً تحدث أو نشر الكثير عن هذا المعبد الغريب، لقد كان أمراً صعباً يطرح العديد من التحديات؛ أصبح بدهياً مرة أخرى وجود هذا الدمج بين الطقوس الأفريقية والهندوسية والفرعونية، ما الذي كان عليه دور هذا المعبد في هذا الوادي المقفر؟ كان المعبد منعزلاً على قارعة مفترق طرق القوافل، وليس واسع الأبعاد وتحيط به المناطق الصخرية للوادي. ولابد أن أهميته تكمن في شيء يختلف عن كونه مكاناً لتزجية الوقت، بعيد عن النيل رغم أن البوتانو Butano لم يكن قاحلاً على تلك الأزمنة.

اقتربنا بالسيارة من المقر الرئيسي، على بعد خمسمائة متر، تحول دون الرؤية حوائط حجرية مرتفعة. عنت خاطرة لبير: الحرّ شديد وسأبقى هنا! قفزت أنا ويحيى على الأرض. صمتت. لماذا الجدال؟ لقد وصلنا إلى تلك المنطقة النائية، إلى قلب النوبة، في بوتانة، وهو المكان لن نعود إليه أبداً مرة أخرى. لكن بير يشعر بحرارة الجو وبقي في السيارة وكأننا نزلنا لنتناول مشروباً منعشاً ثم نعاود الرحلة في الطريق السريع. لا يمكن لي أن أفعل شيئاً! أخذت أفكر بينما أتجه إلى الأطلال الرائعة لذلك المكان، وهو مكان فريد من نوعه، لكنه لم يفصح إلا عن القليل من أسراره، ولا أحد يعرف على وجه اليقين الدور الذي قام به، ويبدو أن حلقة الصلة بالثقافة الهندية أصبحت معضلة صعبة

التفسير أمام أكثر من باحث. هل كان ذلك مقراً بملحقاته وحدائقه، أم كان مركزاً للحجيج؟

كان المكان بكامله غريباً، وغير معتاد وليس فيه الكثير من الجاذبية. هناك عدد من الصحون الضخمة التي غزتها الرمال، وهي صحون متتابعة دون أن يكون هناك سبب واضح لذلك. كان هناك ما يزيد على عشرين منها، لكنها مختلفة الأحجام فمنها المستطيل ومنها المتوازي الأضلاع، كلها تفتح على بعضها. ويفترض أن بعضها كان خزانات للمياه بينما بعضها الآخر حظائر. وبدلاً من السلالم كانت هناك مصاطب للصعود إلى دور العبادة. هناك منها ثلاثة أو أربعة متناثرة، ليس بينها الكثير من الانسجام أكبرها هو المعبد المكرس للإله أبيدماك المعروف والذي يتم تقديسه منذ 300 ق.م. وعلى عضادتي مدخل المعبد نجد – من جديد – الحيات ذوات رؤوس الأسود، شبيهة بما هو في نقا وتماثيل فيلة. أما المبنى الذي يوجد في الوسط، والذي يبدو أنه قصر ودار عبادة في آن، فقد كان يقع على منصة كبيرة، تحيط به بعض الصالات ذات العماد؛ ظهرت من جديد أشكال العمالقة والتنين. وفي أحدى واجهات المعبد، إلى جوار صحن كبير، هناك تمثال غريب، إنها منحوتة لفيل آخر! تمثال وحيد، ربما كان يشغل قدس أقداس المكان. كما نجد نقوشاً أخرى لأفيال في المعابد المجاورة.

ما الذي حدث في هذه المنطقة البعيدة والنائية من بوتانا؟ كان ذلك الإقليم أرض الأفيال حتى وقت قليل، لكن ليس ذلك هو السبب الذي جعل سكان وادي النيل يقدسون الأفيال في إحدى قطاعاته، وربما يندرج هذا على أجزاء أخرى من إمبراطورية مروى. في إحدى غرف المعبد نجد نقشاً فريداً فيه نجد ملكاً مروياً عرياناً فوق هودج يعلو ظهر فيل ضخم، وعلى رأسه تاج الوجهين القبلي والبحري، وتحميه الآلهة تخبت؛ لم يصل أي ملك مصري غلى هذا الوضع. الأفيال في كل مكان! من أين أتت؟ ولماذا هي في موساواوات الصفرا؟ وكيف

كانت تستخدم تلك الصحون؟ تم العثور على بقايا محطمات، ربما كانت لحدائق كانت تستخدم في تموين سكان المكان والقائمين على رعايته، لكن لم يكن أي درر ثابت في الصحراء.



"...tus sueños también existen"

شكل رقم 3

خمن شيني Shinnie الأمر من جديد، ربما كانت الأفيال الحية التي يتم اصطيادها في بوتانة تتجمع هناك، ولكن لماذا كانوا يريدون صيدها؟ ليصبحوا أغنياء، وكانت تلك هي الفترة التي ازدهرت فيها إمبراطورية الجنوب في مروي، مع بداية القرن الثالث ق.م، عندما قرر ملوك الأسكندرية - البطالمة - تزويد جيوشهم بالأفيال الأفريقية، ووصل بهم الأمر لامتلاك العشرات منها لكنها لم تكن بالعدد الكثير الذي توفر لأعدائهم الذين حكموا سوريا وهم Seleucidas والذين كانوا يجلبون الأفيال من الهند. كان البطالمة يغوصون في أعماق

الجنوب ليقوموا بالصيد بأنفسهم، وكان هناك فيلق كامل من جيشهم يقضي شهوراً في بوتانا ومهمته اصطياد الأفيال.

لكن كانت هناك مشكلة كبيرة تواجه عملية نقل الفيلة إلى مصر، فالأفيال الأفريقية من صنف m'bongo تتسم بأنها أكثر توحشاً وميلاً للاستئناس من مثيلاتها الهندية، كما أنها أضخم ولا يمكن أن تنقل في عوامات بشكل مباشر، ذلك أن 'بطن الصخور" جعل ذلك الأمر مستحيلاً، ولم يكن هناك مناص لنقلها إلا عن طريق البحر الأحمر حتى ميناء فيلوتيرا Felotera وميناء برنيس Berenice ومويس أورنوس Myos Hornos على متن مراكب غير مهيأة تكاد تغرق لأسباب واهية خاصة إذا ما حملت هذه الأثقال. ولنقل الأفيال إلى الأسكندرية لابد من تنويمها، ولكن قبل ذلك ترويضها. كان المرويون والقوشيون يعرفون الترويض، لكنهم كانوا يروضون خيولاً فقط. ولم يكن هناك إلا الكورنكي Coranck-i أو الكورناك Cornacas الهنود الذين هم على علم بترويض الفيلة في ذلك العالم القديم. كانوا هم وحدهم الذين يقدسون واحداً من آلهتهم المحلية المسمى Ganesa أي الفيل.

فهل كانت موساوارات الصفرا ذلك المكان الذي ضم من جاءوا من الهند للقيام بأعمال ترويض الأفيال التي يتم توريدها إلى البلاط السكندري؟ وهل كانت تلك الصحون الكبرى مجرد حظائر؟ لو كان الأمر كذلك فلابد أنه كان مشهداً فريداً في ذلك الوادي المنعزل. هناك عشرات من الأفيال تجأر، بعضها طليق لكنه يخضع للمروضين الهندوس الذين يمتطونهم ويقومون بعدة تمارين أو يذهبون بهم للاستحمام في تيار المياه والرعي بين الأشجار. بينما هناك أفيال أخرى مصطفة وقد تم ربط أحد أطرافها بسلسلة حديدية. وهناك كهنة يصلون للآلهة المقدسة، بينما يقوم بعض سلالة الكورناكاس بالعمل على تهدئة الأفيال الشابة القادمة بالأغاني والإيقاعات الموسيقية والطبطبية باستخدام جريد النخيل،

وهي أفيال تتراوح أعمارها بين ثمانية أعوام وعشرة كان يأتي بها الجنود. وكان يتم ترويضها على مدى عشر سنوات حتى يمكن الذهاب بها عن طريق البحر.

تحت وهج الشمس الحارق كنت أتأمل عشرات من الجرافيت (النقوش) المنتشرة في كل مكان والتي تؤكد أن ذلك المكان أو تلك الأطلال ظلت لعدة قرون ملاذاً للإبل ولرعاتها. وبعد قتل أفعى كبيرة، أي ثعبان كوبرا سام غادرنا المكان. ابتعدت عنا موساولوات الصفرا وقد لفها الغموض. عدنا لاجتياز الصحراء لنكون بالقرب من النيل. وفي شندي، أخذنا نعد الأيام رغم أننا نعرف أننا كنا سنصل إلى عطبرة خلال ثلاثة أيام، وبعد ذلك نأخذ القطار في اليوم التالي ولو لزم أن نركب وقوفاً في الممشى. وفي تلك الليلة كانت مفاجأة جديدة. فقد وصلت الأخبار بأن القطار سوف يغادر الخرطوم قبل يوم من موعده. إنها نهاية شهر رمضان والعيد الصغير، تغيرت الخطط؛ وكان يجب السفر في اليوم التالي، الجمعة، لركوب القطار صباح الأحد.

قلنا وفعلنا. حزمنا أمتعتنا في الصباح وأفطرنا واستعددنا للرحيل؛ جاءوا لنا بالفاتورة؛ أعطيت يحيى كل ما معي من نقود، فقام بعدها، وقال بلهجة جادة: ليس هذا كافياً. لكن لدينا كل الجنيهات التي غيرناها في الخرطوم! لا، أنا لم أغيرها في نهاية المطاف، لم يعطونا سعراً مناسباً. ماذا! لكن لماذا نحتاج الجنيهات إلا في سداد تكاليف الرحلة!؛ حسن - قلت - لنقم بالسداد باليورو، فمعي هذه العملة. لا، لا يمكن، إنهم يقبلون فقط إما العملة المحلية أو الدولار. انتابتنا الحيرة. المال الملعون يطل برأسه من جديد!.

دخل مدير قطاع الآثار، فقد جاء لوداعنا. قصصنا عليه الأمر؛ كان البنك مغلقاً، وحتى لو كان مفتوحاً فلن يغير لنا العملة التي معنا. خطرت لي فكرة وأنا أشعر بالعصبية. هل تعتقد أن أعضاء البعثة الفرنسية الذين هم في دارك يمكن أن

يغيروا لنا مبلغاً من اليورو بالدينار؟ يمكن أن نسألهم؛ كان الموقف صعباً، لا يمكن لنا أن نخرج من شندي ولا يمكن لنا أن نواصل الطريق. كنت أعرف أن رجال البعثة الأثارية لديهم ما يكفيهم فقط، وإذا لم يتم تغيير اليورو فإن ذلك سوف يكون موقفاً صعباً عليهم. عندما دخلنا المنزل المتواضع للمدير، المشيد من الطوب مثل غيره من المنازل والذي يقع خلف الفندق مباشرة، كنت أشعر بالعصبية ومستغرقاً في التفكير. وفجأة قال يحيى: لديَّ بضعة دولارات، يمكن أن ندفع الحساب مما معي، ماذا؟ هل معك دولارات ها أنت تقولها الآن! نعم، كنت محتفظاً بها لأشتري بعض الأشياء وأقوم ببعض العمليات التجارية، لكن ليس هناك ما ينفع فكل شيء أغلى مما في مصر. كنت شديد الغضب؛ إنها العصا السحرية التي خرج علينا بها يحيى والتي لم أر فيها أية طرافة. كنا في الداخل، وكان رجال الآثار يرمقوننا في صمت، ماذا نفعل هنا، إن يحيى على وشك القيام بأداء النمرة وطلب العون! نظرت إلى من استقبلوني وهم يشعرون ببعض الحيرة بسبب الجدل الذي ثار ألقيت عليهم التحية ثم جلسنا.

سرعان ما اعتراني الهدوء، كنا محاطين ببعض الأثار بين الشبان الذين يبتسمون وهم سعداء بأنهم عادوا من جديد ليكونوا إلى جوار هذا الجزء من التاريخ الذي يدرسونه في كل حملة؛ كم كنت أود أن شاركهم في هذا الحلم الدائم بالحفر والتنقيب والعثور على اللوحات في أماكنها التي وضعت فيها منذ قرون. كان محدثي أستاذاً شهيراً أمضى ربع قرن يقوم بالحفائر في تلك الأقاليم النائية. الاستماع إليه أمر رائع.

وبعد قليل وصل مدير البعثة الشاب، بشوش وطويل القامة، وهو الذي كان البروفيسور قد سلمه راية القيادة. شربنا ونحن تحت أقواس الصحن، كان المكان به الكثير من الشنط المفتوحة، والصناديق والأوراق والأدوات، ثم – سألني – هل كنت المستشار الثقافي لبلادك في مصر لمدة طويلة؟ هل كان ذلك

وقت أن قامت فرقة "لاكوادرا" بتقديم رقصة "باكانتس" Bacantes في دار الأوبرا؟ نعم، كنت أنا الذي نسقت عملية وصول الفرقة إلى القاهرة. أهنئك على هذا وأشكرك، فقد كانت الحفلة الأروع التي شهدتها في حياتي. وأنا أيضاً! لن أنساها أبداً! لم أر شيئاً مثيلاً ولم أسمع أصواتاً عميقة تخلب الألباب مثل التي سمعتها. أمام هذه الهدية غير المنتظرة وتلك الحقبة من حياتي التي ظهرت فجأة أخذت تتقافز إلى ذهني ذكريات القاهرة، كانت تطل برأسها خلال تلك الأيام من ينبوع الأسى الذي يعبر عنه فن الفلامنكو، الذي ترك بصمة لا تُمحى في قلوب القاهريين وقلوب الجميع.

ودع بعضنا البعض، دفعنا، ورحلنا ولكن ليس قبل أن نعد المدير بإرسال كافة الكتب التي تتعلق بمروى؛ فلم يكن لديه أي منها. تجاوزنا هذه المرحلة من الرحلة، ذهبوا بنا إلى منطقة خالية بين بعض المنازل على أحد أطراف البلدة، كانت المحطة؛ وتحت وهج الشمس كان هناك ميكروباص وسط الساحة واثنتين من سيارات نصف النقل مزينتين بألوان عديدة. كانوا في الانتظار. وكما هي العادة بالنسبة للمراكب والميكروباصات، فإن السيارة تتحرك صوب اتجاهها عندما تمتليء بالركاب، كنا سبعة من بين سبع وعشرين راكب. جلسنا القرفصاء في ظل شمسية هي الوحيدة في هذا المكان المفتوح على السماء؛ كان هناك كافة السائقين، والتباع الذي يحصل الأجرة وقائمة بالركاب وبائع قماش يصرّ على أن يعرض علينا صور القديسين في بضاعته وكذلك صور البابا شنودة، كان هذا العجوز على استعداد لاستخدام التشابه المفترض معنا في المعتقدات الدينية لأغراض تجارية حتى يبيعنا أي قطعة بسعر مرتفع.

لا أعرف أين كان يحيى؛ لم نتبادل الحديث أنا وبير، لم يكن هناك مجال. كان الأمر وكأنه لابد من بذل جهد لنتلاقى، قمت بجولة؛ هناك مسجد بين عدة منازل، ومنازل ذات طابق واحد لها بوائك ظليلة وواجهات قديمة؛ لازالت

شندي جميلة. كان الفرن مفتوحاً وفي العمق هناك أعجاز تلمع ببشرتها السوداء التي تختلط مع فتحة الفرن بسوادها ونارها؛ لم يكن عرق الرجال كافياً إزاء هذا الكم من مئات الأرغفة المرصوصة على الأرض؛ وبعد عدة ساعات امتلأ الأتوبيس وتحركنا.

أخذ المشهد في بوتانا يتحرك من نافذة الأتوبيس، هناك غابات من أشجار السنط المبعثرة هنا وهناك في كافة أرجاء الوادي، وأحياناً ما يكون المشهد مفتوحاً، وتبدو في الأفق جبال بينها توجد فتحات على وديان قاحلة، المشهد يتسم بأنه مستو ولا يوجد به الكثير من الشجر. هل كانت هناك مروى في هذا الوادي الوديع بنجاحها وشهرتها؟ لابد أن بوتانا كانت في أوجها على شاكلة الشدة التي عليها الأقاليم المدارية، والسبب أن غاباتها الكثيفة هي التي وهبتها العظمة وشهرتها في صهر الحديد وتشكيله؛ وعلى ذلك فما بقي في بوتانا هو نفس ما بقي في مروى: أطلال المشهد القديم الذي لم يفلح الطقس الجديد في القضاء عليه بالكامل فقد بقي شجر السنط كذكرى لما كان عليه ذات يوم.

وفجأة تغير المشهد، فقد ظهر شيء لم نكن نتوقعه، إنها أهرامات مروى، ها هي هناك من جديد، تقف على مرتفع ومتراصة كأنها خلية نحل، تبدو كأنها غير حقيقية في الصحراء، تبدو وكأنها ديكورات من الكرتون والحجارة؛ يبدو المشهد أسطورياً بسبب عمارة الأهرامات غير المألوفة وسط الهضاب الوطيئة والكثبان الرملية. الأهرامات سوداء، والرمل يميل إلى اللون البني. لم أتمكن من مباعدة ناظري، كنت مشدوهاً وأنا أتأمل هذا العمل العملاق وهو يمر من بعيد. يتضاءل حجمها كلما ابتعدنا عنها حتى توارت وتوافقت مع الذكريات المتعلقة بلوحة كنت أحتفظ بها. لقد تحقق حلمي في البحث عن شيء أسطوري؛ كانت رياح الصحراء ساخنة، تلفح وجهي، لكنني ظللت أتأمل المشهد وأتأمل مشدوهاً بينما كان كل من يحيى وبير نائمين.

وبعد مرور أربعة أو خمس ساعات وتغيير السيارة في إحدى القرى عبرنا جسراً حديدياً؛ كنا في عطبرة، وكان النهر يحتوي على القليل من المياه في مجراه لكنه عميق وجميل، يضم جزيرة من الطمي في الوسط والكثير من الأشجار والنخيل على شاطئيه، كان هناك شيء ما في هذه الخضرة الطاغية التي جاءت من أثيوبيا مباشرة، كأنها طزاجة الأراضي العالية والشلالات. إنها عطبرة والنيل الأسود للون مياهه وهو آخر روافد النيل الكبير، كلها تجَر معها ذكريات مكان بعيد؛ تتحدث عن تلك القبائل التي ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ والتي لجأت إلى هناك بعد تلك الهزة الكونية التي تركت مصر بدون سكان على مدى ألفين وخمسمائة عام، أي في نهاية العصر الحجري القديم (بين 9500 – 7000 ق.م.) كانوا يقطنون الأخصاص وسط البحيرات، ويقومون بأداء شعائر قديمة ويقدمون قرابين بشرية للتزلف للنهر.

عبرنا من خلال سوق كبير ودخلنا إلى حي الإنجليز، الذي يفصله جسر آخر عن المدينة، فوق خط السكك الحديدية التي سيمر فوقه القطار الذي نبحث عنه، إنه حي كيتشنر ولازال يطلق عليه هذا الاسم حتى الآن، ويؤكد أن الناس لازالوا يتذكرون بحب الوجود الأوربي الذي خلف لهم هذا المكان المثالي. في عطبرة وجدت الخرطوم التي رسمتها في خيالي، كانت تمتد على شاطئ النهر وتسيطر عليه من تمل، هناك العديد من الطرقات الواسعة المعبّدة والحدائق الكبيرة والفلل ذات الفرندات الخشبية والمشربيات، وشوارع تزينها الأشجار العتيقة تغطيها بالكامل ومساحات لملاعب ومحطة القطار ومراكز جامعية وإدارية؛ ظلت كلها كما تركها المستعمرون لكن علاها التراب وشيء من التقادم، لم يكن ذلك نوع من الحزن على المُلاك القدامى، بل الأسى بمرور الزمان هو العنصر الذي يضفي على المكان اللاحركة، كانت الأزهار يانعة؛ زهور الجهنمية ذات اللون الأبيض وأخرى hibiscos ذات اللون الأحمر القاني.

كان مقر إقامتنا منزلاً كولونيالياً قديماً، له واجهة جميلة وحديقة جميلة بها حشائش. أما الداخل فهو مهلهل، غير أن مراوح السقف كانت تعمل وكانت هناك أسرة. كان الطابق الثاني غير مأهول، به بعض الأثاث القديم، شعرنا من خلاله بعرق بارد يتصبب منا بسبب الحكايات المخيفة وخاصة عندما يتم قطع التيار الكهربائي لفترة زمنية محددة. تناولنا إفطار رمضان وهو إفطار متواضع في الصحن الخلفي للمنزلين وشاركنا البوابون. جلسنا على سجادة مفروشة على الأرض تحت شجرة غصونها وطيئة وكأنها تتحمل التهالك الذي عليه تلك الحديقة المهجورة.

جلسنا بعد ذلك مع المدير، رجل شاب وهادئ. كان الفندق مقراً للطلاب، وكان خالياً بسبب أجازة العيد. لم يكن مَرِنا وكانت أحوالنا المادية صعبة، كان يريد أن تدفع مقدماً. لم يقبل إلا الدينارات ولا يريد أن يعرف شيئاً عن غير ذلك من العملات. أخذ يحيي يتناقش معه باستفاضة، أما أنا فقد قمت بترجمة ما يقوله لبير وأنا أعتقد أنني أفهم ما يدور. لكن يحيي، كما هي العادة، لم يقل لنا إلا القليل، وأصبت بعدم القدرة على التواصل بين العربية والنوبية. لا تتدخلاً كان يشير يحيى وإلا لجعلتم الأمر أكثر تعقيداً من خلال ملاحظاتكم غير المفيدة. إنكما لم تدركا حتى نصف ما يدور! اتضح في النهاية أنهما كانا يتحدثان عن السداد مقدماً لثمن الدجاجة التي تعشينا بها!.

خرجنا ليلاً ومشينا في هذه الأنفاق من الأشجار، نكاد نتحسس الطريق. كان الظلام قد حل بالكامل؛ وبين الحين والآخر بصيص من الضوء القادم من مصادر الإضاءة في الفلل المجاورة، مررنا بصفوف من شجر البوباد baobad العتيق، ذات الجذوع الضخمة والمستديرة، بينما يحرك الهواء أوراقها بين الحين والآخر. سرنا وقتاً، حتى وصلنا إلى حديقة مجاورة لمحطة القطار، وبعض المباني المضاءة، مليئة بأفراد الأسر وفتية كانوا يتصايحون ويلعبون ويغنون.

كان هناك نوع من الحيوية والسعادة في المناخ العام. كان ذلك هو نادي كرة القدم في عطبرة، ويعتبر مكاناً لتأهيل لاعبي الكرة الممتازين، كانت الهواية مسيطرة، فقد كانت هناك مباراة في تلك الليلة. سألنا عن مدير محطة السكة الحديد الذي يفترض أنه هناك هذه الليلة.

أمر مؤسف، لكننا كنا شكورين للترحاب الذي قوبلنا به، فقد ذهبوا بنا إلى مكتب مدير النادي وأدخلونا صالوناً فاخراً حوائطه مدهونة باللون الأصفر وبه مائدة ضخمة وعدد من الكراسي المرصوصة إلى جوار الحوائط. قدموا لنا المشروبات المثلجة بينما كان المدير يتحدث مع بعض المدراء، كانت الجلبة تدخل إلى الصالون، انتظرنا ولكن بلا جدوى، سوف نعود بعد ذلك، عدنا من حيث أتينا وسط الظلام. كان بير يريد الاتصال بمنزله، لفتنا رطوبة الليل، كانت هذه الأشجار تُروى بقنوات ممتدة على طول الطريق حيث تمر المياه صامتة لكنها تضفي الرطوبة على الهواء تحت الأشجار.

عدنا من حيث أتينا، لكن لم يبق أحد في مقر النادي. فالجميع ذهب لمشاهدة المباراة، خرجنا وبحثنا عن الاستاد؛ لم يكن الأمر صعباً. وعند المدخل استطاع يحيى أن يقنع الحارس بالأمر ودخلنا. كان الاستاد مضاءاً بقوة وكانت المدرجات مليئة بالفلاحين يرتدون الجلاليب. في أحد الجوانب هناك مجموعة كبيرة تهز الرايات وترقص على وقع الموسيقى الأفريقية. أما في الوسط (الملعب) فهناك الفريقان المتنافسان؛ جلسنا إلى جوار المقصورة وشهدنا الدقائق المتبقية م الشوط الأول، كان يحيى مبسوطاً للغاية فهذا ما كان يريده؛ غير أن الجمهور لا يبدو متحمساً، وخاصة هؤلاء الذين كانوا يغنون للاعبين، كان الجمهور المحلي ساكناً وصامتاً. فالأمر صعب إذ أن فريقهم خسر المباراة حتى تلك اللحظة.

خلال فترة الراحة بين الشوطين تمكننا من مقابلة مدير محطة السكة

الحديد الذي زوّدنا بكل النصائح، وطلب منّا الاستعجال في شراء التذاكر، وكنا في هذا الأمر منذ وقت، فلسنا نعرف متى سيمر القطار، ذهبنا صوب المحطة ودخلنا غرفة كبيرة خالية بها ترابيزة عالية من الخشب، ولمبة سقف وبعض الدواليب وترابيزتين. كان هناك رجل منكفيء على دفتر كبير حيث أخذ يكتب بعناية تفاصيل التذاكر؛ خدعنا حين قال لنا إن عربة النوم كاملة العدد، وقدم لنا آخر تذاكر الدرجة الأولى، سوف نسافر جالسين، وعندما خرجنا كنا نرقص فرحاً. وفجأة ظهرت امرأة جذابة من جنح الظلام، توجهت إليّ بالحديث بسرعة. قال يحيى إنها تعتقد أنك سوداني وأنت ترتدي الجلابية وأن عينيك جذابتان، هذه تريد الاتصال بك، طبعاً! إنها تستغل لحظة الفراغ!

عدنا من جديد صوب الاستاد ودخلنا، كان الشوط الثاني قد بدأ، ألّح يحيى على أن نبقى؛ قبلنا فقد كنت سعيداً بالبقاء بعض الوقت، لم يتحسن حال الفريق المضيف. ساد الصمت الاستاد، حتى أن حاملي الآلات الموسيقية كانوا جالسين، وبعد ركلة أو ركلتين نهض المشجعون وعادت الموسيقى والرقص للمدرجات. لكن النهاية كانت متوقعة ومحزنة للفريق المضيف؛ اختفى المدير دون أن يوضح لنا شيئاً عن وصول القطار الغامض؛ جلسنا في الميدان الصغير لأحد الشوارع الجانبية، الذي يحيط بما يمكن أن يكون ديراً قبطياً. كانت تبرز من أبراجه صلبان ضخمة لتؤكد – كما هو الحال في مصر – أن التعايش بين الأقباط والمسلمين أمر واقع. عاد يحيى ومعه الأخبار، ها هو القطار وقد قدّم موعده بيوم سوف يصل الأحد أي خلال يومين.

ذهبوا بنا في ميكروباص إلى السوق؛ كان يقع خارج الحي الإنجليزي بعيداً عن خط السكك الحديدية، أي أنه كان على زمن الاستعمار المدينة العربية، وكانت الوريثة لها مجموعة من المنازل الحديثة من الأسمنت، وهي عبارة عن شوارع وميادين صغيرة فوق أكوام من الطمي. لازال هناك فاصل بين ما هو

كولونيالي وغيره، ولحسن الحظ فالمكان يخلو من المستعمرين الذين منعوا السكان المحليين من الذهاب حيث شاءوا. كان السوق كبيراً، يتوه في الظلام، هناك مئات المحلات المضاءة في مجموعة من الأزقة، يوجد بالسوق كل شيء. وجدنا مكاناً لبيع البرانيط من الملابو واخترنا من جديد. أخذ يحيى يتحدث مع رجل جالس على الرصيف، الرجل الذي له وزن يصل إلى غايته! كان يقول له. كان يحيى مشدوها. واصلنا الطريق.

بقي يحيى في محل للقماش يسأل عن شيء، سبقناه أنا وبير، وتُهنا وسط الزحام، أُخذنا نهيم في الشوارع ما يزيد على ساعة من الزمان بحثاً عن يحيى. لم يجد البحث. طفنا وطفنا، حتى أصبت بالإعياء، لم يكن واضحاً ما إذا كان من تاه هو يحيى أم كلانا. على أية حال لم نكن نعرف حتى اسم الفندق أو اسم الشارع، جلست على مقهى في الهواء الطلق، تحت شجرة سنط. كان هواء الليل دافئاً، والتليفزيون مفتوحاً، لكن الزبائن كانوا مشغولين كل بأحاديثه الجانبية. الشاي بالكمون له مذاق رائع، تلفني بين الحين والآخر نفثة كثيفة من الدخان؛ وخلفي، على الأرض، كانوا قد وضعوا حبات البُنّ على الأرض وأخذوا يحمصونها، عاد بير خاوي الوفاض بعد أن كنت قد عددته من التائهين، غير أن بير ألح على القيام بجولة. الحق معه؛ ظهر يحيى فجأة وهو يحمل سيفاً نوبياً في يديه؛ فقد أخذ يفاصل لمدة ساعة حتى استطاع تخفيض السعر، إذن لم يتذكر وضعنا إلا في لحظة عابرة، شعرنا بالراحة أنه لم يقض الليلة في عملية الفصال. عدنا.

كان رجال الفندق قد أعدوا لنا مائدة رائعة عليها مفرش أبيض يصل حتى الحشائش، وسط الحديقة وتحت النخيل والسنط، كانت هناك زهور النار ذات اللون الأحمر القاني. تذكر ثلاثتنا في لحظة ذلك المكان الجميل الذي يقع خارج القاهرة "نست أوف سقارة Nest of Sakara، حيث الموائد ذات مفارش بيضاء حتى الأرض، بينما الصحراء تتزين بأهرامات دهشور عن بعد. تناولنا

العشاء في عطبرة، كان عشاء فاخراً للغاية. أتوا إليّ بشيشة وكانت الليلة غاية في الجمال.

في صباح اليوم التالي، أعطيت يحيى مبلغاً كبيراً من اليورو حتى يقوم بتغييره، وذهبت في جولة، تحت وهج شمس حارق، صعدت إلى قنوات المياه وسرت تحت ظل الشجر؛ كانت هناك كنيسة أنجليكية في تقاطع طرق، إضافة إلى كشك حراسة مهجور، وجدت داخله دراجة بدون عجل ونموذج لبرج إيفل علاه الصدأ، واستناداً إلى طبقة التراب المتراكمة فإن هذه الأشياء هنا منذ أن ذهب الأوربيون عن المدينة، كانت هناك منطقة خالية، تتخللها مجموعة من القضبان، وفي كل مكان كانت هناك بقايا مشكالات قطارات مهجورة، وجرارات قديمة وعربات قطار خشبية.

عدت من حيث أتيت لكن يحيى لم يعد، جلست مع بير الذي كان يعد لإفطار رائع، وفي النهاية وصل يحيى وهو في غاية الثورة. كانت عملية تغيير العملة في البنك أمراً شائكاً وصعباً، فقد قالوا له إنهم لا يقبلون إلا الدولارات، ذهب لمقابلة المدير، هو رجل ضخم البنية لكن دماغه خاوية، كانت عملة اليورو تثير ضحكه؛ يقول إنها متذبذبة في سعرها، قالها وهو يتمثل ذلك بذراعيه المفرودتين. لكن هذا هو البنك المركزي – قال له يحيى – ويقوم بتغيير كافة العملات مثلما هو الحال في الخرطوم. رأى يحيى أن ذلك المأفون يمكن أن يكون خطيراً، فغادر المكان، نزل السلم واتجه صوب الصرّاف. وهنا بلغ الأمر قمة التوتر، فهو الآخر لم يشأ تنفيذ عملية التغيير لدرجة أن يحيى بكى بالفعل وقص عليه أنه برفقة اثنين من الخاجوايات، والأمر سيكون مأساة إذا لم يستطع تغيير العملة. كان الصرّاف الشاب متعاطفاً مع يحيى وغيّر له العملة. ها نحن نتجاوز مرحلة أخرى ولكن بمعجزة. تمكننا أن نسدد ما علينا غداً ونخرج من عطبرة، ولنكن المغادرة بالقطار ما أمكن إن شاء الله!

خرجنا في وضح النهار في منتصف اليوم، وسرنا تحت الأشجار صوب النيل، مررنا ببوابة فيها الكثير من الفتية الصغار، كانت بوابة حمام للسباحة القديم للنادي الكولونيالي، وفي الداخل كانت هناك مجموعة من الفتية والشباب الأقوياء السواعد يستحمون، دعونا للاستحمام، وشاركهم يحيى لفترة غير قليلة، بينما جلست أنا ويحيى، نراقب كيف كانوا يجرون ويمرحون، كنا نتابع المشهد في صمت. وبعد ذلك ذهبنا إلى شاطئ النيل عبر طريق محفوف بالجدران. وتحت شجرة ضخمة ترك لنا بعض الجنود الشبان المقعدين الوحيدين الموجودين هناك، كانت هناك عشة تبيع لنا بعض المشروبات.

أمامنا، هناك شاطئ طيني ضخم تمتد حتى النهر، نراه بهذه الضخامة من بعيد، ونرى السيارات وعربات النقل والحافلات المحملة بالركاب والأمتعة، كانت هناك مجموعة من الفلاحين تنتظر تحت ظل شجرة سنط حتى تنقلهم المعدية إلى الشاطئ الآخر تصحبهم عائلاتهم وحيواناتهم. كان المشهد جميلاً لدرجة أننا وقفنا نتأمله فترة من الزمن؛ لم نكن على عجلة من الأمر، ظللت أنا وبير أكثر من ساعة متجاورين دون أن نتبادل أطراف الحديث، لا عن الرحلة ولا عن الناس أو التاريخ. أصبح كل منا يعيش في عالم منعزل عن الآخر، كنا نجلس متباعدين، لكن، لحسن الحظ، كانت الموسيقى جميلة، أما يحيى فكان يتحدث مع صاحب العشة، إنه قبطي مصري من أسيوط.

هيا بنا! قالها يحيى فجأة، كان مقلاً في كلامه، يرافقه ثلاثة من الشبان الذين يرتدون قميصاً وبنطلون جينز. نزلنا من فوق الشاطئ الطيني، واقتربنا من الشاطئ سيراً على الأرض الطينية الموحلة، هناك شيء ما يلمع تحت سطح المياه. إنها غويشة من الفضة لابد أن إحدى الفتيات فقدتها وهي تقفز. ركبنا لانشاً ضخماً من الكاوتش الأسود، وأوصونا بأن نمسك بمقاعدنا جيداً، كانت حوائط اللنش عبارة عن مواسير ضخمة من البلاستيك ولها حبل في الجزء

العلوي. أمسكت بالحبل جيداً وخرجنا طيراناً. ونهض من كان على الحافة وأخذ يتقدم بشكل موازي على صفحة النيل، كان الموتور من القوة بحيث ابتعدنا عن العوامة ووصلنا إلى وسط النهر، وشهدنا مصب النيل الأسود في عطبرة وهو يغزو النيل، إنه مصب مليء بالأشجار والنباتات الوارفة، والشواطئ العالية من الطين الخالص.

نزلنا في جزيرة وسط النيل حيث كان الفلاحون يزرعون الأرض بين كل فيضان وآخر، عندما يعلو منسوب المياه. كانت الجزيرة عبارة عن كيلو متر مربع من الطين، أخذنا نتزحلق فوقه؛ كانت هناك بعض النباتات النامية، في وضع مرتب، وكان هناك صيادون وهم يرمون شباكهم المتهالكة. عدنا إلى اللنش، فهو جزء من معدات فريق مراقبة النهر، وعدنا لنطير من جديد لكننا هذه المرة، عبرنا النيل كله لمسافة اثنين من الكيلو مترات، كل هذه الكتلة الكبيرة من المياه كانت تنساب هادئة. وعلى المعدية المقابلة كان الفلاحون ينتظرون في الظل، كانوا يراقبون تحركات ذلك القارب المطاطي بسرعاته وبطئه. كنا نشير عليهم لكنهم لا يردون التحية؛ فنحن في نهاية المطاف مجموعة من الخواجات كانت تزجي وقت فراغها في لنش يتبختر.

عدنا إلى جانب المعدية في عطبرة، عبرنا النيل في خط مستقيم، نزلنا من القارب في ثوان، ظل الكابتن ويحيى في المياه. تأخرت بسبب المايوه رغم أن الجلابية التي أرتديها ساعدت كثيراً في الأداء والمناورة. قذفت بنفسي في النيل وأنا شبه متكور، تلقفني تيار شديد دفع بي عدة أمتار، كان عليّ أن أقاوم وأعوم بشدة لأستعيد توازني، كان الجو حاراً وكانت المياه رائعة. وعند الخروج كان الكابتن ويحيى يرتدون الجينز فوق السراويل المبتلة. صعدنا المنحدر وودعنا حتى المساء.

في طريق العودة، رأينا باباً مفتوحاً عنده كشك حراسة خاو، دخلنا حديقة

مهجورة تماماً؛ كان التراب في كل مكان ومعه الأطلال، هناك شجرة ضخمة في الوسط، وحارس نائم؛ كانت هناك حوائط متهالكة، وفتحات ونباتات جافة وأقفاص متهالكة، كنا في حديقة الحيوان بعطبرة! أنظر! أشار يحيى. مجموعة من فكاك التماسيح ملقاة على الأرض، لم نتمكن من مغالبة الابتسامة كان كل شيء يبدو كوميدياً عن الآخر، وجدنا بقايا تمساح أعلى قضبان القفص الذي كان فيه، وسلحفاة عجوز جداً ذات عظاة ضخمة ملّت من كثرة الدوران، وجدنا غزلاناً حزينة وأقفاصاً خاوية، عليها بطاقات بالعربية والإنجليزية، وحمام سباحة صغير به فرس النهر رغم أنه كان لا يسعه. وقفصاً منعزلاً مأهولاً، غير مرتفع السقف، مليئاً بالقرود ذات الوجوه الحزينة والمائلة للزرقة. إنها آخر شواهد لهذا الانحطاط الذي لا يصدق، كانت تنظر إلينا وتتساءل عمّا الذي تفعله هنا في الأقفاص. فهمنا ما تقول ومع هذا لم نتمالك أنفسنا من الضحك.

يمكن رؤية النيل كاملاً من على مرقب خشبي، فوق المنطقة التي استحممنا فيها. لابد أن ذلك يرجع إلى العهد الاستعماري! وظللنا نضحك؛ في المساء مررنا مرة أخرى أمام ذلك الباب، سألنا الكابتن الشاب الذي جاء معنا. كانت حديقة الحيوان قد افتتحت منذ خمس سنوات فقط، مات فرس النهر وكذلك الطيور، كان هناك المزيد من السلاحف وإحدى الجواميس، وكان بالحديقة عدد ضخم من الثعابين والتماسيح، لكنها كلها فرّت صوب النهر. ضحكنا ثلاثتنا في لحظة واحدة، لقد فعلنا شيئاً حسناً حين قررنا!.

كان السوق خلال تلك الليلة غير مكتظ بالناس، ذهب بنا الكابتن صوب النواصي والحواري، وإلى المحلات التي يعرفها، ومن محل العطارة الخاصة بالنباتات العطرية اشترينا البخور الحضرمي والمرّ لعلاج العيون، وعنبر اليمن وقرنفل السودان الشهير على ضفاف النيل، إضافة إلى بعض المواد الأخرى وبعض النباتات العطرية، اشترينا بعض العطور الواردة من السعودية، كنا نفكر

في نسائنا وصديقاتنا؛ إنها سترطب بشرتهن بهذه الدهانات الشرقية، وتخلب ألباب الكثيرين، اشتريت لجيجي فستان للعيد، وهي الإبنة الكبرى ليحيى، ابنتي بالتبني، كان فستاناً مشجراً.

تأخر الوقت، وبعد أن جلسنا وقتاً ملائماً في المقهى في الهواء الطلق، قادنا الكابتن إلى مكان رائع لتناول العشاء، طبقاً لما قاله يحيى. كان المحل مغلقاً. لكن يا يحيى ألن نتناول العشاء في الفندق؟ لم نقل شيئاً، لكننا اشترينا من الطعام ما يكفي ليومين؛ لا، لا، من المؤكد أنهم لن ينتظرونا؛ سرنا أكثر من كيلو متر على الطريق الأسفلتي، حتى وصلنا إلى المكان الوحيد المفتوح الذي توجد به مقليات، كان في مفترق طرق، كانت هناك مجموعات من الناس تتناول الطعام، من سائقي تاكسي وجنود وسائقي شاحنات ومخبرين وأناس من السوق. أكلنا حتى الثمالة بطاطس مطبوخة وقطعاً من اللحم المشوي.

عندما وصلنا إلى الفندق، فغرت أفواهنا عندما وجدنا مائدة عليها مفارش بيضاء في انتظارنا وسط الحشائش؛ لا يمكن لنا أن نتذوق أي شيء ولو كانت هذه إرادتنا. الحمد لله! قالها البوابون، حيث أنكم تناولتم العشاء يمكن لنا أن نتناول عشاءكم الفاخر. إنه هدية رائعة! جلسنا في حلقة، لم ينقصنا الشاي والشيشة. كان يحيى يتحدث بصوت خفيف مع ذلك العجوز الذي تعرف به في السوق، الذي ظهر فجأة عند الباب. كان يكنس الحديقة مقابل بعض الطعام ومكان يؤويه، إنه ديو جنيس المتسول دون زاد أو مأوى، يرتدي فقط جلابية تكاد تغطي عراها، كان قد ترك قريته منذ عشرين عاماً، هي قرية من الجنوب، في منطقة كردفان، بعد أن هددت الحرب حياته، لم يعد إليها، لكنه كان يحلم بأرضه الواقعة بعيداً عن جبال النوبة، إنها ذلك الفردوس حسب قوله.

كان ذلك الحالم يعيش من لا شيء، يقوم ببعض الأعمال البسيطة كنوع من المساعدة لكنه لا يتسول أبداً. يقبل ما يُقدم له، سوف يعود يوماً ما ويبقى في

أرضه، في تلك الفردوس إلى الأبد. لكنه كان في تلك الآونة يعيش كعصفور يطير في الهواء وعلى ما يرزقه به أرحم الراحمين الذي يرزقه بكل ما يحتاجه. إنه فيلسوف، شخصية غير عادية، هادئ وعليم كان يحيى يتعجب من وضعه، إنه أحد النازحين من جرّاء الحرب، ليعيش تلك السنوات بعيداً عن منزله؛ إن هذا الفيلسوف تعبير كامل عن البقاء على قيد الحياة، لابد أنه يعاني كثيراً، فهو وحيد ولا مورد له، وهذا ما يعطيه قوة وجلداً.

كان الفيلسوف الهائم على وجهه يقص حكايات. كان يحيى يترجم لنا بعضها من حين لآخر، كان يتذكر مواقف في حياته. وأخذ يتحدث عن الأصلة، ربما كانت تلك هي الذكرى المريعة في صباه، كانت حيّات ضخمة الحجم تجول في أنحاء أقاليم أعالي النيل، حيث كانوا يعيشون؛ كان طول الواحدة يتراوح بين ثمانية أمتار وعشرة، أجسادها مستديرة كأنها جذوع أشجار، كانت تهاجم الأفراد والحيوانات تلتهمها كاملة. كانت ترى في النهار وهي تزحف مسرعة، لها رؤوس ضخمة وأعين لامعة وثابتة وظهور ملونة ومتموجة. كانت هذه الزواحف العملاقة تخرج بحثاً عن فرائسها في ظلام الليل عندما كان يُسمع فحيحها المريع وهي تزحف وسط السافانا الكثيفة، في المناطق الموحلة. كان الجميع يؤمّن على الكلام، فقد كانوا يعرفون الأصلة، إنه شكل رهيب لمشهد بعيد وغير معروف.

كان يقول بأن الفلاحين كانوا – عندما ينامون – يربطونَ أنفسهم بالأسّرة المرتجلة مع ترك أذرعهم وسيقانهم مفتوحة حتى يحولوا دون أن تبتلعهم الثعابين وهم نائمون؛ كل هذه الصور البشعة تقدم لنا عالماً بدائياً، أطل علينا بقوة من أعماق الزمن، ربما لازال هذا العالم قائماً حتى الآن؛ لكنه منو هنا في دهاليز أعالي النيل. غير أن هذه المشاهد الدائتية جرى تجاوزها على يد بعض سكان النيل الذين كانوا يقومون باصطيادها؛ كانوا رجالاً أشداء العزيمة،

يلقون بأنفسهم عرايا وراء الشجيرات، ويبقون على سيقانهم مفتوحة ويداً على مستوى الأفخاذ تمسك بسكين. كانوا يسمعون الثعبان وهو قادم بعد أن أصدر فحيحه المرعب وهو يدهس الحشائش بزحفه. وعندما يرى الفريسة فإنه يعمل على ابتلاعها بفمه الذي ليس به أسنان، يبدأ بالسابق التي تصادفه أولاً ويبتلعها حتى المستوى الذي توجد فيه اليد. وبمجرد الدخول في فم الثعبان يقلب الصيادون نصالهم ويفتحون بطن الثعبان الرهيب. وأحياناً أخرى كان الأطفال هم الذين يقومون بالصيد فكانت الثعابين تبتلعهم، ولكن عندما يبتلعون نصف أجسادهم يقوم الأطفال بفقأ عيون الزواحف.

خيم علينا الصمت، كان مثيراً ذلك الذي كان يقصه علينا ذلك الرجل الغريب، إنه النموذج الحي الأول على وجود هذه الثعابين الضخمة في وادي النيل. فهل لازالت حتى الآن في وادي النيل بينما انقرضت بعض الحيوانات المتوحشة الأخرى منذ خمسة آلاف عام، أي مع بداية عصر الأسرات الفرعونية؟ يضم كتاب الموتى عند الفراعنة العديد من الثعابين، وها نحن نرى أن لازال بعضها يعيش حتى الآن تفزّع مكان أعالي النيل. هذه الليلة ولد الغموض تحت ضوء النجوم.

رافقنا الكابتن في الصباح حتى محطة القطار. وأخيراً وصلنا، ها هو القطار الذي سوف يقلنا إلى وادي حلفا. مررنا بعدد كبير من عربات القطار، وفي النهاية ألقينا بأمتعتنا من النوافذ، وألقيت بجسدي على الكرسي إلى جوار الممشى، وظللت هناك طوال الساعات التي انقضت في انتظار رحيل القطار، وكأنني كنت أخشى أن يتبخر ذلك القطار الذي انتظرته على أحرّ من الجمر.

كان القطار متقادماً للغاية، فالنوافذ بلا زجاج ولها شبابيك خشبية منطوية، ومساند المقاعد تكاد تسقط من مكانها، بينما المقاعد كأنها خرق مهلهلة. كانت مقاعده عبارة عن كنب ممتد في ثلاثة في كل، لم يكن هناك إلا راكباً واحداً

من وادي حلفا، يجلس إلى جوار النافذة، وفي آخر دقيقة وصل اثنان من الفتية أحدهما طويل وجاد، بينما الآخر قصير وبدين تلوح على وجهه ابتسامة. كنا نسمع الأطفال في الطرقات وهم يجرون. يقال أنه كان هناك طفل أشقر، يبدو بريطانياً، ظل في الوضع الذي عليه مغمض العينين لمدة يوم ونصف منذ أن انطلق القطار من الخرطوم. لم يتحرك من مكانه بينما الجمهور مشدوه لما يحدث.

عندما تحرك القطار في منتصف النهار، نمت على وقع عجلاته، دائماً ما كنت أعشق القطارات وإيقاع سيرها والمشاهد التي أراها من الشباك والحرارة الإنسانية. كانت أشعة الشمس تدخل بقوة، بينما لا تعمل المراوح. كان بير ينهض من مكانه كثيراً ثم يختفي، كان يتأمل على طريقته، كان يبدو وكأنه حرٌ طليق، فلم يعد يرتبط بنا، لقد استقل وكان سعيداً. كان الأطفال يجرون في الممشى وتمر نساء بحثاً عن المياه في الحمام، بينما يجلس الرجال على الأرض وهم يدخنون. كان البعض ينام طوال الوقت، وكان القطار عن آخره، ماعدا عربات النوم؛ كانت خالية. توقف القطار في بربر لمزيد من الركاب وواصلنا سيرنا إلى جوار النيل صوب "أبو حامد".

في أرطولوي Artoli، بالقرب من الجندل الخامس توقف القطار بعض الوقت، لم تكن نرى إلا كتلاً من الأسمنت وسفحاً شديد الانحدار كثيف الأشجار يصل حتى النيل. نزل من القطار عدد كبير من الشبان الذين كانوا يهبطون المنحدر ببطء وهمْ يدردشون، كانوا يقتربون من مياه النيل ليتوضأوا، رأيت يحيى يجري فقد خلع ملابسه وألقى بنفسه في اليمّ؛ كان المشهد يبدو وكأننا في رحلة مدرسية؛ من جانبي قررت النزول على المحطة والقيام بجولة. نزلت على الطين، أتأمل النهر العريض للغاية حيث هناك منعطف صغير. كان المكان هادئاً به النخيل كخلفية للمشهد لدرجة أن المرء يشعر أنه في بحيرة. كان يحيى يشير إليّ وهو في الماء. لن أنزل إلى الماء، لم أكن واثقاً أن هذه فكرة سديدة.

في هذه الأثناء صفر القطار صفرة حادة. القطار يتحرك! رأيت الجميع يجرون صاعدين المنحدر، ورأيت يحيى وكأن شيئاً لم يحدث، وفجأة خرج من المياه، وارتدى ملابسه في لمح البصر وأخذ يصيح بشيء. أخذت عربات القطار تتحرك! كنت أفعل ما بوسعي لكني كنت آخر الركاب، الحمد لله أنني كنت أرتدي قميصاً وبنطلوناً، وأخذت أجري على الرصيف بقوة بينما القطار تزداد سرعته، وقبضت بأصابعي على الصندل حتى لا ينخلع كان الجميع يرمقونني من نوافذ القطار ويشجعونني وقد تكوّموا على الأبواب؛ وفي نهاية المطاف أصبحت موازياً للقطار في السرعة مددت ذراعي وأمسكت بمقبض على جانب الباب وقفزت.

عدت إلى مقعدي كأنني بطل تحوطه ابتسامات الرضا، كان قلبي يدق بقوة أكبر، حاولت الخلود إلى النوم؛ كان الجميع يروحون ويغدون في العربة، يغيرون من مقاعدهم، يريحون أقدامهم بلا نعال على الكرسي المقابل. كان السمين والطويل أبناء عمومة وصديقين حميمين، يتبادلان القفشات ويتسامران ويضحكان طوال الوقت. نام يحيى وكذلك الرجل الذي يجلس إلى جوار النافذة؛ ظل الأطفال يلعبون في طرقة القطار، يجرون وراء بعضهم؛ كان أكثرهم جرأة طفل أسمر اللون يبلغ خمسة أعوام، يرتدي زي اكسفورد بحذافيره بما في ذلك البرنيطة، كان يقف أمامنا ويراقبنا. كانت عيناه السمراوان لامعتين ومعبرتين. هل تحب القطار Yeahh؟، كان يجيب صارخاً وكانت نغمته تحمل لهجة أمريكية.

كانت الشمس تنفذ إلى القطار من خلال النوافذ نصف المفتوح شيشها، لكنها كانت واهنة، وكان النهر يتعرج ويمتد وقد غطت شطآنه النخيل، كان يتدفق بهدوء، وكأننا نشهد نتفاً من فردوس متخيل. كانت نهاية انحناءة "بربر". في هذه الأصقاع كان الفرعون تحتمس الثالث يصطاد وحيد القرن؛ لا تبدو هناك علامات على وجود قرى أو فلاحين، كان النيل يبسط جماله. الشاعري

بأريحية وهي التي يمكن تأملها مرتين في الأسبوع؛ أي هؤلاء المسافرون المتعبون في قطار الحدود هذا؛ لكن هذا الجمال كان يخفي وراءه نهراً مفعماً بالجزر ودوامات مياه سريعة ورمال متحركة في العمق. من المستحيل الإبحار فيه، ولهذا فابتداء من عطبرة حتى الكورو Kurru ظلت شطآنه غير مأهولة بشكل شبه مستمر.

ابتسم بير وأخرج كراسة الرسم، وكعادته أثار زوبعة حوله، هم أبناء العمومة والرجل النائم والكثير من الأطفال الذين سرعان ما تجمعوا، هم كل أطفال طرقة عربة القطار، كانوا يريدون أن يريهم الكراسة كاملة، هناك طفل ذو سبعة أعوام، ذو بروفيل إثيوبي وعذوبة غير معهودة كان يتكئ على بير، كانت نظراته ثابتة على الصفحات الملونة، ويشير بإصبعه ويطلب من بير أن يحكي له كل شيء عن اللوحات؛ كان الطفل ينهض ويرفع حاجبيه وجبهته ويسرح ببصره مع الأحلام، على وقع نبرات صوت بير.

قبل مغيب الشمس بقليل دلفنا بسرعة إلى عربة المطعم المجاورة للعربة التي كنا فيها، كانوا يقدمون الطعام قبل حلول موعد الإفطار للرجال الطاعنين في السنّ والنساء برفقة الأطفال والحاجوايات التائهين في هذا الجو، كان هناك صنفان من الموائد، كل واحدة لأربعة، لكل مقعد من الخشب. هناك صناديق الزجاجات وثلاجة، كلها تشغل عمق العربة. كل هذا عبارة عن شيء من الطراز الأول، فهناك الصمت والبعد عن التكتل البشري، جلست أنا وبير إلى جوار النافذة، كان الهواء والرمال يدخلان عبر الشيش الذي تقوضت أطرافه، ولم نتمكن أبداً من فتحه، ونظرا لاهتزاز العربة لم يكن هناك مناص إلا الإمساك بالزجاجات المفتوحة.

كان المسافرون يتبادلون أطراف الحديث بينما هم في انتظار مينو الطعام الوحيد، كانت هناك امرأة جميلة ذات بشرة سمراء تلبس حجاباً أسود،

وجهها واضح الملامح ويداها طويلتان ونحيفتان. كانت أم الطفل الذي يرتدي زي أكسفود؛ كان معها طفل آخر أصغر سناً تحمله بين ذراعيها، كنت أنظر إليها بطرف عيني، وأنا أمعجب بأبهتها، ورشاقة حركاتها. كانت هي الأخرى تنظر، وتتحدث مع جيرانها وتحاول أن تقدم الطعام للصغير بين يديها. أما والد الأطفال فكان رجلاً قوياً قصير القامة وجاداً، يبدو على شخصه أنه من العسكريين، كان يتجه إلى أمريكا الشمالية.

وفجأة كان هجوم الناس كاسحاً، كل من في القطار، كانوا يدخلون أفواجاً إلى المطعم؛ كان وقت إفطار رمضان؛ هناك أناس من مختلف السلالات في أفريقيا من أثيوبيين ونوبيين وعرب وبانتو، يتزاحمون في طرقة العربة وعلى المقاعد. كانوا يتحدثون، وهم سعداء، بصوت مرتفع، يرفعون أيديهم، ويشيرون إلى السُّقاة. وكان هؤلاء السقاة عبارة عن رجلين يرتديان الجلاليب ويوزعان كميات كبيرة من الخبز البلدي على كل مائدة، يروحون ويغدون وهم يرفعون الأطباق عالياً، ويوزعون المياه والمرطبات؛ كانت الملعقة هي "كقم المائدة" الوحيد، وما بقى فكانت تحل محله اليد اليمنى. كانوا يتناولون الطعام برشاقة غير معهودة، لا يقع من الطعام شيئاً فوق ملابسهم. عدنا إلى العربة، كان قد حل الظلام عندما أخذ المطعم يخلو من رواده؛ عدنا للبحث عن شاي وتناول قسط من الراحة. حسن انتهى الأمر! سوف يصل هذا القطار غداً إلى وادي حلفا، وسوف تكون المركب في انتظارنا، وسوف نصل إلى أسوان صباح اليوم التالي وهو يوم عيد الفطر. كنا غاية في السعادة، بدا أن كل شيء سار في فلكه المعهود. ولم نكن نضع في الحسبان ما قد يخبئه لنا القطار من مفاجأة!.

عدنا مرة أخرى إلى أماكننا، كان ابن وادي حلفا المسافر معنا قد صعد على المقاعد ليبحث وسط أمتعته عن راديو كاسيت ضخم، وضع شريطاً للموسيقى السودانية، أخذنا نهتز مع الإيقاع ونتابعه بأذرعنا. ظهرت في الطرقة

مجموعة من الشبان تغني خلف مجموعة من الموسيقيين الذين يعزفون الدف والعود الذي كان صغيراً ومتهالكاً. ذابوا وسط الصيحات، ظللنا نحن نرقص، انضم إلينا الأطفال، جلس إلى جانبي الطفل الذي يرتدي القبعة، أما الطفل الأثيوبي فقد ظل في الوسط وكأنه يقود تلك المجموعة التي هي في حركة دائمة. أخذت الحجارة تضعف، ولفظ صوت الموسيقى كأنه يحتضر. عاد الموسيقيون للظهور وجلسنا جميعاً في ديوان العربة، كنا أكثر من اثني عشر، كان عازف العود يدندن بأغاني من أغاني بلده وكان الجميع يتابعونه دفعة واحدة وتتناغم حركة أجسادهم مع الموسيقى.

وصلنا على هذا الحال إلى "أبو حامد" في وقت متأخر، ربما نتوقف ساعتين؛ من هنا تركنا النيل ورامنا حتى وادي حلفا، سوف نعبر أربعمائة كيلو متر في الصحراء الشرقية في خط مستقيم، بعيداً عن الجنادل وعن "بطن الحجارة" التي اتخذها التجار دوماً وهم قادمون من مصر ابتداء من أبو سمبل حتى قوش، وهم رجال المناجم الذين كانوا يستخلصون الذهب في الصحراء؛ والجيوش الغازية والمكتشفون القدامى.

ومن أمثال هؤلاء اثنان من بريتوريا أرسل بهم من روما الإمبراطور نيرون بحثاً عن منابع النيل، وبعد أن تجسسوا في مروى وصلوا إلى بحيرات "السُّدّ Sudd وعرفوا البحيرات التي ينبع منها النهر. كما جاء المكتشفون خلال القرن التاسع عشر إلى وسط السودان من خلال هذا الطريق الصحراوي، سيراً على الأقدام ثمانية أيام أو يمتطون سُنم الجمال. فكرت في الجنرال كيتشنر وفي مغامرته الحربية وهو يتقدم بجيش الكولونيالي من الشمال إلى الجنوب، من مصر، بينما يأمر بوضع قضبان خط السكك الحديدية في الصحراء. كان يتقدم نحو هدفه وكأنه على سجادة يسير فوقها القطار حتى استولى على الخرطوم من جديد وانتقم من الهزيمة الموجعة التي كالها المهدي للبريطانيين.

كانت بلدة "أبو حامد" كبيرة، منازلها من الطوب اللبن وبعض الحدائق إلى جوار القضبان، وهناك سوق صغير في ميدان وأربعة شوارع. كان الظلام مخيماً اللهم إلا من بعض اللمبات المضاءة، كان البعض يضع على الأرض مصابيح الكيروسين، هناك بعض الفُرش عليه بضائع، وأماكن لبيع التمر اللذيذ، والكثير من النساء وأمامهن سجاجيد مفروشة، يقمن بتقديم الشاي للمسافرين، كان كل ركاب القطار قد نزلوا وأخذوا يتجولون ويتنسمون الهواء المنعش خلال الليل. جلسنا على إحدى السجاجيد، اختفى يحيى وهو يبحث جاهداً عن آخر مشتروات العيد. دلفت أنا وبيير إلى الشوارع المظلمة، وجدنا أن نصف ركاب القطار جالسون تحت الأشجار في حلقات كبيرة يتناولون المرطبات ويتحادثون. كان بعض الركاب يشرب الشيشة إلى جوار بعض الأعيان.

وأخيراً صدرت إشارة الرحيل فتحركنا جميعاً نحو الرصيف؛ صعدت القطار ودخلت المرحاض ونسيت حذري القديم، كان المرحاض عبارة عن فتحة مثل الفتحات التي عندما تطل منها ترى القضبان وهي تمرّ بسرعة. وكانت النافذة المفتوحة تقوم بدور التهوية، إضافة إلى بركة مياه صغيرة في حالة حركة دائمة؛ كنا قد اشترينا حجارة وانتظرنا وصول الموسيقيين وصاحب الراديو كاسيت، كانت الليلة موحشة وكأن القطار قد دخل نفقاً مجهولاً، لا نرى شيئاً خارج القطار، فلا توجد قرى حتى وادي حلفا، لم يكد ينتصف الليل، لكن طرقة العربة كانت مليئة بالنيام، يتمددون فوق الكرتون تحت ضوء لمبات السقف، تم إنزال الشيش ماعدا شباكنا. أخذنا نغني جميعاً بصوت واحد، وقد جلس الأطفال على الأرض وتزاحم الباقون وأخذوا يصفقون تصفيقاً إيقاعياً. وبعد هنيهة، توقف القطار من جديد، وسط الظلام، والظلام، كنا عند النقطة عشرة على بعد عشرين كيلو متراً من "أبو حامد" رأينا فقط خزاناً مرتفعاً للمياه وكشكاً زجاجياً في الأعلى ومبنيين شبه

مهجورين، وما بقي في الصحراء، التي تاهت وسط الظلام الذي لا قرار له. قفزنا إلى الرمال، لم يكن هناك ضوء اللهم إلا ما ينفذ من النوافذ المغلقة، الأمر الذي ساعدنا على السير دون الاصطدام بشيء، إلى جوار العربات. كان هناك الكثير من الناس يمشون تلفحهم رياح باردة وشديدة.

أخذ الوقت يمضي، وشيئاً فشيئاً أخذت الأفواه تتأفف للتكهنات، القطار عطلان! القاطرة مطفأة، تاهت في عتمة الظلام؛ كانت مقدمة القطار قد تاهت في الظلام، كانت العربات وحدها مضاءة، هي عبارة عن دودة من الضوء، ومصباحاً وسط الظلام، كان الناس هادئين؛ نادت الأمهات على الصغار الذي هرولوا نحوهن، وأخذت الدواوين تنطفئ، وبعد عدة ساعات من الذهاب والمجئ لم يكن الأمر قد اتضح بعد؛ يبدو أن حساباتنا لن تتم ولا مناص، تلقى المسافرون الأمر وكأن شيئاً لم يكن، ولكن ربما في الصباح. لكننا سوف نكون قد فقدنا المركب؟ المركب عادة ما ينتظر قالها بعض المتفلسفين.

هذه القطارات ترجع إلى أيام الإنجليز - كانوا يقولون - وهي قديمة لدرجة أنه من المستحيل الحصول على قطع غيار، نقوم نحن بتصنيعها، ومن غير المعتاد أن تكون مثل الأصلية. وبالفعل فإن امتداد القضبان ملئ بالمسامير والقماطات الكبيرة، إضافة إلى قطع أخرى ضخمة تبدو أنها من ماكينات، كانت قطع الحديد هذه تبدو سوداء فوق الكثبان، إنها مقابر القطع الملقاة على الأرض. فكم من المئات منها مطمورة في الرمال؟

ابتعدت عدة أمتار في العتمة، جلست علي الأرض، وأنا أموت من البرد، تاهت نظراتي في ضوء النجوم التي تبلغ الآلاف وتضيئ القبة السماوية، كان هذا المشهد ينشر سحره الغامض منذ فجر الزمان، إنه سحر يكاد يحلق بي في الفضاء. موجود منذ ملايين السنين ولازلنا قادرين على رؤيته في هذه اللحظة الوجيزة التي أتيحت لنا لنستمتع بالحياة. إنها مصادر ضوء تتلألأ

وتخترق العيون بشعاعها. ما الذي تريد أن تقوله لي في هذه الصحراء؟ كنت أطلب منها دائماً شيئاً ما وكأنني أتحاور معها وأن تنقل لي شيئاً من عوالمها.

كانت الليلة طويلة، انتقلنا إلى الجانب الآخر من القطار نتقي سرعة الرياح لكنه كان جانباً أكثر عتمة. انطفأ الضوء في كافة الدواوين. وضعنا الراديو كاسيت على الأرض وجلسنا في حلقة، أتى بعضهم بالشاي واقترب منا جندي الشيشة، رفعنا صوت الكاسيت الذي أخذ يلف الجو بالإيقاع الشرقي، أمام هذا الإيقاع رأيت ذلك الرجل القوي البنية ينهض وهو يحمل طفله على ذراعيه ويطل من النافذة، ثم يخرج إلى الطرقة. لم يتفوه بشيء ولا حتى بصيحة صمت! كان كل شيء من الإيقاعات مسموحاً. كنا وسط اللاشيء وكان الزمن مختلفاً. نهضنا ورقصنا على وقع الموسيقى النوبية، وأخذنا نتمايل على وقعها، نرفع أكتافنا ونتحرك في دائرة، كانت الأغاني تملأ الليل بالأمل وعودة اللقاء. كلنا في مركب واحد في مكان لا يراه أحد وسط الصحراء الشاسعة.

انقضى وقت بينما كنت أرقص أنا ويحيى، وبعد ذلك ظللت وحدي، كانت الموسيقى قد نفذت إلى جسدي، واصلت الرقص على الإيقاع النوبي العذب مثلما فعلت ذلك كثيراً في أسوان والقاهرة بينما بعض الرجال يراقبونني وهم جالسون على الأرض. واصلت الرقص، وفي النهاية توقفت الموسيقى وذهب الكثيرون، جلست بالقرب من الجندي الذي قدّم لي الشيشة بابتسامة عريضة، براڤو! قال لي، كأنك نوبيّ!.

جلس آخرون وصلوا للتو، كان أحدهم سودانياً بشرته قمحية، ذا حيوية وقوة، ربما كان من العسكر، باغتني بغيظ قائلاً: خواجة! أين أسرتك؟، فأجبت بهدوء: في أسبانيا. كنت أشعر بنوع من الاحتقار الذي من الصعب أن يداريه هذا الغريب؛ كان يتحدث بسرعة وكان يرفضني دون أن يمرّر الشيشة عند دوري؛ أما الجندي فكان على العكس، إذ كانت نظراته إليّ كأنها تقول صبراً!،

من أي مكان خرج علينا هذا المخلوق؟ لم يكن نوبياً، ويبدو أنه لم يكن يروقه أن يرى أجنبياً يستطيع التجاوب مع أنغام موسيقى تلك الشعوب. ومن المؤكد أنه لم يرقص أبداً على هذه الأنغام؛ خولجة! قالها من جديد، ماذا، هل أنت بخير؟ تجاهلته تماماً وواصلت تدخين الشيشة.

كان الناس نياماً، رأيت البابا (الأب) وهو يحمل الصغير على صدره وقد ناما في الممشى الذي كان ممتلئاً عن آخره، كذلك الأمر بالنسبة لإبن العمومة الطويل الجاد ممداً بكل هذه القامة الطويلة، أما الإنجليزي، الأشقر الشاحب اللون، فقد خرج مسرعاً في طريق المرحاض، ابتسم قليلاً، كان وجهه مألوفاً، فتحت الديوان ولمحت في الظلمة مشهداً غير محبب. كان ابن حلفا ممداً على الأرض أما يحيى وبير فكانا يتقاسمان المقعد للكنبة في الجهة اليمنى إلى جوار الحائط، كان يحيى نائماً كأنه أمير، بينما بير يتزلق بين الحين والآخر فوق ابن حلفا. أما بالنسبة لي فكان الأمر أكثر صعوبة، إذ كان ابن العم السمين يشغل الكنبة الأخرى بالكامل.

جلست في الركن الخاص بي، كان يبحث عن مخدة وعندما جلست وضع رأسه على فخذي. كانت تنتظرني ليلة قضيتها جالساً دون نوم؛ وكما كنت مستعداً لهذا الموقف حاولت اتخاذ وضع أكروباتي وأرحت ذراعي ورأسي على كرشه، هذا الوضع كان أفضل من السابق، ومن حين لآخر كان الوضع غير المريح يجبرني على تغيير الوضع، وفي إحدى هذه المرات، لمحني البدين وهو يكاد يفتح عينيه، فشعر بالمفاجأة وولى الأدبار، نمت وحدي على الكنبة وأنا أشعر بالراحة للمهمة التي قمت بها. أعتقد أن بير كان يرمقني بينما كان يتماسك في موضعه، معجباً بدهائي.

أشرقت شمس اليوم التالي علينا ونحن في موضعنا، لكننا أكثر عزلة عن ذي قبل، ففي الرابعة فجراً وصلت قاطرة تسير ببطء وسحبت قاطرتنا.

قصّ علينا بير هذا عندما وقع من على الكنبة فأفاق وخرج يتمشى خارج القطار ورأى القاطرتين وهما تبتعدان، لم تتبق إلا العربات وسط هذا السهل الصحراوي؛ الحمد لله أن المطعم لازال به بعض الاحتياطي من الطعام، كان الناس يسيرون ويجلسون في مجموعات، ويبحثون عن الظل أينما وجدوه، بينما كان الأطفال يجرون هنا وهناك. انتشرت الشائعات، أغلبها تتحدث عن تأخير يمتد لأربع أو خمس ساعات، أي منتصف النهار، بينما تقول الشائعات الأخرى إننا لن نغادر المكان قبل الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ويرى المتشائمون أننا سنقضي اليوم بطوله. لم يحتج أحد، ولا حتى صيحة غضب، إنه قانون الحياة، كان قطار كيتشنر عطلاناً ومع هذا فقد كان أفضل قطار موجود.

في البداية أخذنا نتمشى سوياً، وبعد ذلك كل حسب هواه، جلسنا في المطعم، وتحدثنا مع الناس، ولم يكن هناك طريق لسداد ثمن المرطبات، كانوا يدعوننا دائماً، كنا نبحث عن نتفة من الظل تقينا من وهج الشمس الحارق، انتهى بي الأمر على القضبان الساخنة في المقدمة تحت أول عربة في المقدمة، كانوا هناك يلعبون السيجة ذات الحفر والخطوط الثلاثة. كان الانتظار طويلاً جداً. يا له من موقفٍ عرفنا كل شيء في المكان بما في ذلك حبات الرمال، لكن لم تظهر القاهرة بعد، وبعد فترة جلست تحت ظل شجيرة، كان إلى جانبي اثنان من الخواجات يبدو شكلهم مألوفاً عندي؛ كنا قد رأيناهم في الخرطوم، في السوق، كانا من الكنديين، وقد استمرت رحلتهم شهوراً، كانوا يقومون بجولة حول العالم، في كل بلد ثلاثة أيام.

جلس إلى جواري أحد المهاجرين المصريين، كان قادماً من السعودية. هل لازال أصحاب الأعمال السعوديين يسيئون معاملة المصريين؟ نعم، لكن لنا أسر ونحتاج أن نرسل لها بالمال، ليس هناك بديل. فأوربا مغلقة أمام وجوهنا بالضبة والمفتاح، أما أمريكا فهي بعيدة جداً لا يصل إلا القليل إلى تلك الأماكن

رغم الفيزات المضروبة وبعض الحيل الأخرى، أما الذين يلقون بأنفسهم في طريق آخر فهم الشبان، الذين يقامرون بكل شيء حتى الموت، فهو عندهم أفضل من حياة بلا مستقبل أو أمل. ففي السعودية لا نعاني من العداء للإسلام ولا نتعرض للموت عندما نحاول السفر.

ظل الأفق صافياً؛ وإلى جوار الشجرة رسمت خطوطاً هندسية فوق الرمال، إنه نوع من الأشكال التي تعطي الطاقة، تعلمته في Rei-ki ويرجع الرسم في أصوله إلى ممارسات المريدين القديمة للغاية. نعم، هذا الرسم كان مفيداً في الشفاء عن بعد، ويمكن أن يكون مفيداً الآن؛ رسمت إلى جواره – على الرمل – ساعة، محدداً ساعة افتراضية للوصول، وهي ساعة أو وقت مثالي في مثل هذه اللحظة من اليوم، الثالثة والرابعة، أي خلال ساعتين، ركزت طاقتي الذهنية على تلك الصورة؛ وفي الوقت ذاته، كان الوقت وكأنه مصر على عدم الفوات في هذا الأفق الحار الذي لا نهاية له، مثله مثل انتظار. نعرف أن الصدفة كثيراً ما تتدخل حياتنا، وقد جعلت القاطرة تظهر في الثالثة وخمس دقائق بعد الظهر، مرت تختال أمامنا. ذهبنا جميعاً لنرى كيف تشبك الخطاف في العربات. كان هناك رجل طاعن في السن، استند إلى مقدمة العربة الأمامية بين الإكصدامات، كانت القاطرة واقفة على بعد مائة متر، أخذت تتحرك وتتلوى، وتكبر ثم عشّقت في العربة محدثة صوتاً عالياً ناجماً عن وقع الصدمة التي انتقلت إلى باقي العربات. قفز الرجل في الهواء وهو عازم على أن تفتته هذه الصدمة بينما قام بعملية شبك الخطاف. يمكننا أن نرحل، ها هو القطار أصبح له قاطرة! صعدنا ونحن سعداء وسار القطار من جديد، وها نحن وقفنا ثماني عشرة ساعة طويلة.

جلسنا في الديوان ونحن نشعر بالحيوية، كان أبناء العمومة يضحكون ويتبادلون القفشات، ويتحدثون إلينا، إنني أحبه كثيراً فهو أفضل أصدقائي – كان

السمين يقول – لكنه جاد بشكل يزيد عن الحدّ كان يحيى يتحدث إلى ابن وادي حلفا، كان عائداً إلى المنزل لقضاء أجازة عيد الفطر. ذهب بير ليتحدث إلى ذلك الفتى الإنجليزي الذي كان يفيد من أجازة لعام كامل للقيام بجولة في أحشاء الإمبراطورية " من كاب تاون إلى القاهرة"، لقد رحل بدأ رحلته من مدينة كيب تاون التي لا تنسى، وعبر جنوب أفريقيا ومر بزيمبابوي وزامبيا وتنزانيا وكينيا وإثيوبيا؛ يا لها من رحلة، وحيداً ودون أن يتحدث مع أحد، يبدو منهكاً وكانت معنوياته منخفضة بعض الشيء.

في حوالي الخامسة، ذهبت أنا وبير نحو المطعم؛ الوجوه نفسها إضافة إلى عدد من الأطفال، كان قليلاً، يكاد يكفي بالكاد، كانت الصحراء تمضي من النافذة على وقع عجلات القطار على القضبان كانت هناك بعض الطرق تسير موازية لنا في الرمال، وتوقفنا من جديد بعد فترة، كانت أمام نواظرنا بقايا رصيف والكثير من الحديد المتناثر وبعض الأعمدة وغيرها من القباب، كانت العلامة رقم "6" وساعة الإفطار في آخر يوم من رمضان. فغداً عيد الفطر. كنا قد شهدنا هذا الصنف من القباب في كل من الخرطوم وعطبرة، كانت عبارة عن منازل صغيرة متلاصقة، لها أحواش لموظفي السكك الحديدية، يطلقون عليها Catieh "قاطع"، هذا شاهد جميل تركه الإنجليز والمصريون. نزل الناس جميعاً، عند الباب كان والد الطفلين يحاول أن يساعدهما للسير وسط الناس والسلالم، كنت قد نزلت فمددت له ذراعي فأعطاني الرضيع، فوضعته على صدري وأنا أهدهده بينما يتعرف عليّ بنظراته، كان يبدو سعيداً وكان يضحك. اختفى الأب وبقيت وحدي أتمشى بالطفل بينما الآخرون يأخذون المياه من الأزيار، لابد أن نبع تينبة Teniba قريب من هنا، إنه منعزل تحت الصخرة، وهو نبع مشهور بمياهه العذبة والباردة، وهو النبع الوحيد في هذه الصحراء اللامتناهية. الحمد لله على أن الجمال تشرب دوماً من المياه العكرة والمالحة في ينابيع مورات Muratt المعروفة.

إلى جوار العربات كان كل ركاب القطار يفترشون الحصائر في حلقات، حيث الأسر والأصدقاء يتناولون الإفطار. وبعد هنيهة وجدت بعض الرجال يحملون زجاجات، كانوا يختفون وراء الأطلال، فأخذت أنا أيضاً زجاجتي واتجهت نحو الجدران البعيدة، وبعد الوضوء والتطهّر جففت يدي بالرمال؛ سرت في سهل واسع، هناك آثار نعاج، وصمت وحجارة. فكرت في الذئاب التي يقلق وجودها البدو في الصحراء عندما يحل الظلام. هناك أعمدة التليفون الممتدة إلى جوار الطريق، كانت القباب تبدو كأنها مزخرفة من الأرابيسك الجميل فوق الشمس التي توشك على المغيب. هناك قرص أحمر، وسماء صافية وهواء نقي ورياح، رسمت بأصابعي ذلك الشكل الهندسي السحري ووضعت يدي، وتركت بصمتها على الرمل، ضغطت من جديد، رأيت السماء برتقالية وبنفسجية، وتبتعد الأعمدة والصحراء لا حدود لها، كنت أريد أن أشعر بتلك الأرض، وألا أنساها أبداً وأحملها معي.

عدت صوب القطار مرة أخرى؛ أثارت إحدى عربات النصف نقل التراب وراءها وهي تمضي في الصحراء، كانت هي الأخرى تحاول الوصول إلى حلفا. إلى جوار القطار أخذ الرجال يصلون، عندما انتهى كل من تناول إفطاره؛ أما أبناء الإمبراطورية فكانت مجموعة وحدها دون أن تكون معنا أو مع الآخرين. جلست مع بير ويحيى حيث كانا مع مجموعة من الشبان اللطفاء، كان هناك أحد أبناء الكونغو القوي البنية، كان متجهاً إلى شيكاغو. كان ملاكماً سابقاً، وكان له ابن عم هناك وكان يريد أن يكسب مالاً من خلال الملاكمة. أما الباقون فسوف يبقون في حلفا. تحرك القطار عندما أظلم الليل، جلسنا كل في مقعده، وأخذنا نصفق على إيقاع موسيقى الراديو كاسيت، عاد الموسيقيون إلى الديوان، لكن يقودهم – هذه المرة – شاب عربي، يرتدي جلابية سعودية جميلة. أفسحنا لبعضنا في الجلسة وواصلنا الغناء، رقصنا على الأرض على إيقاع الدف

والأصوات، كان الجو يزداد سخونة وحرارة، وفي لحظة رأيت نفسي خارج المكان، أسير وسط النوم على الأرض، كان الأب مع الصغير، تزحزح ليترك لنا فسحة للمرور. تقدمنا مهرولين بينما ندخل الدواوين المضاءة. كنا نرقص أمام المسافرين على إيقاع الموسيقى. النساء يضحكن ويصفقن.

وصلنا إلى مقدمة القطار، دخلنا ديواناً خالياً، مع الموسيقيين، بينما بقى الآخرون في الطرقة وهم يرقصون. كنا أكثر من عشرين فرداً، لم أكن أرى أصدقائي، لابد نكصوا. أما ذاك فهو لي، العريس! العريس! كان الفتى العربي يصيح بينما يحفزني للرقص على هذه الأنغام الإيقاعية؛ كنت أفعل ما في استطاعتي، بين السير على إيقاع الموسيقى واهتزاز عربة القطار أثناء السير، كانت الطرقة كلها تنظر إليّ نظرات فرحة وأكف تصفق وابتسامات وصيحات. كنت أتحرك متمايلاً حتى مد الفتى العربي يده إلى وسطي وبذلك استعدت التوازن والإحساس بوجود صديق. العريس، كان يصيح بهذه الكلمة، تحولت تلك الاحتفالية وكأنها كتلك الخاصة بوداع حياة العزوبية، والليلة السابقة على الزفافَ رافقني أصدقائي في هذا الصخب حتى يعلم القطار ومن فيه بتغير الوضع.

خرجنا جميعاً عبر الطرقة نرقص رقصة "الأراغيد" aragid، كان حامل الدف في المقدمة، مررنا بالدرجة الأولى، أخذنا نتجاوز العقبات في الممرات وندخل بعض الدواوين الأخرى، وكانت الدواوين التي بها النساء الأكثر مرحاً، كنت في الوسط، أرقص. كان الإحساس يواتيني من خلال صورة الغجر وهم يرتدون ملابسهم الاحتفالية. كنت قد تمثلت دوري وهو دور العريس ولن أخذلهم، كنت أرقص لكل من في القطار رقصة الوداع. مررنا بالديوان الذي نحن فيه، فتحته يحدوني بعض الأمل. لكن خاب ظني فكلا الاثنين نائمان، مررنا بعربة المطعم، ثم انتقلنا إلى الدرجة الثانية، وهنا أوقفني الفتى قائد

المجموعة أمام ديوان رجال الشرطة. حاولت جاهداً لأن الحركات كانت على الإيقاع النوبي؛ ومن بداية القطار حتى نهايته، ننتقل من عربة إلى أخرى نرقص في طابور عبر الطرقات، كنا نتخطى هؤلاء الذين كانوا ينامون على الأرض ونحاول إيقاظهم وإيقاظ من في داخل الدواوين.

وصلنا على عربات تكاد تكون خربة ليس فيها إلى القليل من الضوء؛ هناك عشرات من الركاب نائمين على كراسي ممتدة من الخشب؛ كنا في الدرجة الثالثة. العريس، العريس، كان يصيح قائد الأوركسترا؛ كنا نخطو بين السيقان المتعددة في الطرقة الرئيسية، ونواصل الطريق حتى نهاية القطار. كان الركاب يفسحون المكان، وينهض بعضهم بعض الشيء؛ يضحكون. قمت بأداء رقصة نوبية في هذا المشهد البسيط الذي يقع في نهاية القطار النائمة ركابه وتحت ضوء لمبة واحدة. كنت أهتز على إيقاع الدف. كان كل من في العربة يغنون ويتمايلون يصفقون تصفيقاً إيقاعياً؛ لم أستطع التفكير. كنت أتحرك، كأن بي مسّ، على إيقاع الموسيقى، والعود والأغاني، وبعد بعض الوقت أخذنا نعود أدراجنا، أي إلى مقدمة القطار. ودعت ذلك الجمهور الرفيق الذي يغالبه النعاس، انتقلنا من الدرجة الثالثة إلى الثانية ثم المطعم ثم الدرجة الأولى. وصلت من جديد إلى نقطة الانطلاق، رافقوني حتى الديوان؛ ووسط التصفيق والغناء أهدوني باقة من زهور البلاستيك بها لمبة، معلنين أنني "عريس النيل".

استيقظ يحيى وبير، وهما مفزوعان. كنت أحاول إعادة الشريط في ذاكرتي وأشرح لهم ما حدث معي، لكني أدركت أن محاولتي غير مجدية من خلال نظراتهما غير المجيرة؛ لم يكونا يعرفان شيئاً عن تحولي إلى عريس؛ هذا القطار مسلٍ للغاية! أريد ألا تنتهي الرحلة! كنت أصيح فيهما. كان بير ويحيى ينظران إليّ في صمت، وهما شبه نائمين. لم يدركا شيئاً. كم الساعة؟ كانا يسألان. كنت أريد البقاء والنوم لبعض الوقت. هذا مستحيل، اختفيت مرة أخرى

وقد جذبتني المجموعة، كان المطعم عن آخره بالناس، انكث عُرا المجموعة كان الجميع يدعوني للجلوس معه. العريس لا يمكن أن ينام في الليلة الأخيرة – كانوا يقولون لي.

لم يتم تقديم أي شيء، كنت على وشك السقوط من العطش والنعاس، لكن العريس له التزامات، جلست مع ذلك الظريف من أبناء الكونغو ومع اريتري واثنين من النوبيين. كانوا يريدون أن يتعلموا لعبة "الثلاثة بشرطة El tres en raya" (السيجة الثلاثية) حيث شهدوا بير ويحيى يلعبانها. بحثنا عن أغطية زجاجات المثلجات على الأرض وأخذوا يرسمون خطوطاً على المائدة؛ أغطية البيبسي ضد أغطية البرتقال، لعبت معهم بعض المباريات، ثم لعبوها هم وحدهم، كانت سعادتهم تنبع من القلب؛ مهتمون بالأغطية التي في حوزة للاعب الضد؛ كنت أتأمل أيديهم وأصابعهم الطويلة ورسغ الأيدي الناعم وحركاتهم الرشيقة وهم يلتقطون الأغطية وأصواتهم العذبة. كانوا كائنات شديدة الرقة وغير عادية.

كان الوصول إلى وادي حلفا نزولاً إلى الهاوية؛ وواقع الأمر هو العودة. الشنط والأمتعة والأطفال النائمون على الأذرع وآباء يسرعون الخطا، كان الوقت متأخراً، الظلام مخيم والجو بارد. وصل بنا أتوبيس إلى القرية، كان فندق "النيل" خاوياً من النزلاء وفي فندق "الكارافانسيول" كانت الغرف مفتوحة، وصحون المبنى مقفرة من النزلاء، والأسرة مرتبة على الرمال، وصلنا إلى عشة بيع الأسماك، أما الباقي فكان مغلقاً. كانت ليلة العيد. لم يكن هناك أحد، كل ذهب إلى منزله، إنه سكون رائع، نمنا دون أن ندري.

لم يكن هناك أحد في الصباح، والقطار خاوٍ على عروشه والمركب كذلك. برافو، المركب في انتظارنا! لم يعرف أحد كيفية إنهاء الإجراءات هل في المخفر أو على ظهر المركب، تجولنا كثيراً في تلك البلدة الموحشة، تلفحنا

حرارة الشمس؛ انتظرنا لساعات أمام شباك عليه الكثير من الناس؛ كل من بقي، ذهبنا إلى مخفر الشرطة، وجدنا محلين في السوق لكن محل البخور الذي تفوح منه الروائح، حيث كنا نود الشراء، كان مغلقاً.

في الفندق لم يكن مع يحيى نقود تكفي لدفع حساب الفندق، كم معك؟ خذ، كل ما معي من الدنانير، قمنا بتحميل الأمتعة وخاصة ما ثقل وزنه في سيارة نصف نقل، ركبت أنا وبيير، يا لنا من سُذّج، لن نتعلم أبداً، ظهر الخولجات الثلاثة الذين كانوا في القطار. سألوا عن السعر وقرروا السير على الأقدام صوب المركب. هؤلاء مجانين، يا لهم من بخلاء! في هذا الحرّ! ولتوفير بعض الدنانير قرروا السير مسافة خمسة كيلو مترات! وصل يحيى. سأل: هل معك المزيد من النقود؟ لكني أعطيتك كل ما معي! نعم لكني غيرته إلى جنيهات مصرية ويقول السائق إنه لا يريد إلا دنانير. مرة أخرى يعود شبح المال ليطاردنا حتى آخر لحظة، حسبت أنا وبيير المسافة الفاصلة بين البلدة والمركب، وفكرنا في المشي ونحن نحمل أمتعتنا. هذا مستحيل، وقبل أن نحتج انطلق يحيى كالسهم، وبعد هنيهة ظهر من جديد مبتسماً وهو يدفع للسائق وكأنه أمير، خرجت السيارة وهي تتقافز على الأرض.

وصلنا إلى مبنى الجمارك، كان هناك العديد من سيارات نصف النقل والمسافرين .والأمتعة، عند الباب ألقوا علينا التحية. إنه سائق وادي حلفا وأحد الميكانيكيين الشبان، كانوا في انتظارنا. يا لها من مفاجأة! بدا الأمر وكأنه حلقة اكتملت أركانها وأصبحنا في بداية الرحلة ونهايتها. إنها نقطة الالتقاء. جلسنا في الداخل وقتاً طويلاً هناك عشرات من الشنط المتناثرة، وأناس ذاهبون هنا وهناك؛ جرت الإجراءات بسرعة بفضل جهود يحيى. ثم فتح كافة الأمتعة، كانوا قد خففوا الإجراءات واتسم رجال البوليس بالرقة، وعندما أدرك أبناء الإمبراطورية أننا أنهينا إجراءاتنا التصقوا بنا، رغم أنهم لم يعيرونا اهتماماً قبل

ذلك. يبدون وكأنهم عجينة واحدة، أي أنهم يفيدون من الغرباء دون أن يكون هناك تبادل أو مقابل.

جررت أنا ويحيى الحديد من الأمتعة خارج السيارة؛ الحمد لله أن كانت هناك عربة تذهب بنا إلى المركب، وماذا عن بير؟ لقد ذهب دون أن ينتظرنا، دخلنا كيفما اتفق وصعدنا إلى الكبائن. كان يحيى متعباً، ترك جوالاً في الممر، لم يتمكن من ذلك بسبب السلالم، وبقي الجوال هناك حتى اليوم التالي. كان بير في غاية السعادة، حسن، وأخيراً سوف أكون وحدي! كنت مع يحيى في الكبينة، صعدت إلى السرير العلوي ونظرت إلى البحيرة.

كان الدخول إلى المركب بداية جديدة، فهناك واقع جديد فُرِضَ علينا، لدرجة أن المركب المصري بدا حديثاً ونظيفاً للغاية، في الطابق العلوي لم يكن هناك أحد إلا نحن و "الحاجوايات" haguayat الآخرين، والباقي خلاء، وكذلك سطح المركب، كان العدد قليل جداً، وكان أغلب المسافرين في الدرجة الثالثة. هناك بعض الأسر التي كانت تريد مواصلة الرحلة إلى مصر، هؤلاء الذين يريدون الوصول إلى أمريكا، من أصدقائنا في القطار، كلهم انحشروا في الطابق السفلي، في الكبائن الجماعية؛ لقد انتقلنا نقلة كبيرة دون سابق إنذار، كاد فيها أن يذوب كل ما تراكم من خبرات على مدى الأيام السابقة.

صعد الميكانيكي لوداعنا بابتسامته العذبة ونظراته المستسلمة؛ قال لنا بأن البروفيسور في الخارج لكن لم يسمحوا له بالوصول إلى المركب بسبب رجال الجمارك. شعرنا بالأسى، كم كنا نود أن نودعه ونشكره على اهتمامه ونسأله عما حدث في رحلة العودة من دنقلة، تحركت المركب بعد أن انتصف اليوم تحت وهج الشمس. كانت الرحلة رحلة عودة ووصول، وشيئاً فشيئاً أخذت ملامح وادي حلفا تبتعد الجبال بنية اللون وكذلك السهول، كان ما يبتعد هو السودان، وخلفت المياه الزرقاء لبحيرة ناصر المياه الرائعة للبحيرة النوبية.

وبعد ساعات طويلة، شهدنا عن بعد معابد أبو سمبل، تبدو صغيرة، كانت الليلة ذات سماء مليئة بالنجوم الساطعة، كانت المركب تتقدم وتنساب صامتة في هذه الكتلة المعتمة، كنا نرى بعض الضوء من بعيد، إنها توشكا، كان المطعم مرتباً ونظيفاً، العشاء ممتاز، جلس إلى جوارنا الوالد الجاد وأسرته، كانت الأم الجميلة تتحدث على يحيى، كانت تعرف أننا أوربيون وأن الرجل الطويل القمحي كان قد احتضن صغيرها بين ذراعيه، أما الإبن الأكبر الذي يضع القبعة فقد كان يداعبنا وكنا نعنى به، كانت تشعر بالامتنان.

انتقلنا إلى داخل المركب، وفي الطابق السفلي رأينا أصدقاءنا، أصدقاء القطار، وهم متعبون وصامتون، هناك مقاعد متهالكة من الخشب ولمبات والكثير من البرد؛ شعرت برعشة عندما رأيت نفسي بعيداً عن هؤلاء الناس، دون أن أتمكن من فعل أي شيء للحيلولة دون ذلك، مررت متباعداً، لم أرد النظر، حتى لا أهتز من الداخل؛ يا كم أنا غبي، ولم ألق بالتحية. لم أفهم بعد هذا المسلك الغبي من جانبي، وفي اليوم التالي كانت وجوههم لا تحمل أي تعبير وكأنها تذكرني بمسلكي الفظ، فقد رأوا ذلك على أنه إهانة، أو أنه نوع من السلوك غير المهذب، الذي لا يليق بأي مسلم أو بأي إنسان لا يفهم فحوى ثقافتهم. فأنا في البداية والنهاية حاجوايا haguaya. شعرت بالحزن، وأنني فقدت في ذلك المركب تلك الصلة الحيوية التي أقمتها مع هذا البلد الفريد. شعرت أن لقب "عريس النيل" قد زال عني بهذه الزلّة وذلك عندما تركت السودان. شعرت أن عليّ أن أتعلم الكثير بعد.

كان بير يبدو مفعماً بالحيوية في الكبائن. أشعر بأنني تحررت! كان كأنه كابوس، كان ميتاً من الخوف فقد قرأ الكثير عن المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها المرء في السودان، فقد كان خائفاً من أن يحدث له شيء! علينا أن نتحدث للعمل على إيضاح بعض ما حدث أثناء الرحلة! لم يكن يحيى في وضع يسمح

له بذلك، يبدو وكأنه أرهقه الملل، فعندما وصل إلى مصر "فَصَل". كنت أشعر أن بير يختار اللحظة غير المناسبة. ليس الوقت متأخراً، وربما كان من المفروض أن يتم ذلك قبل هذه اللحظة بوقت كاف. فالخوف المفترض لا يبرر أي شيء، فلم يكن هناك أي خوف طوال الرحلة. لكنني كنت أريد أن أستمع لما يقول؛ لقد رأيتك متوتراً طوال الرحلة – قلت له – وأنا أنطق بكلماته هو. ظل صامتاً، وخرج للطرقة، واختفى.

وفي صباح اليوم التالي، تبدت شطآن النوبة السفلى تحت الضوء الأبيض؛ وفي منتصف النهار وصلنا إلى الميناء، وصلنا إلى أسوان؛ لكن المركب لم تفتح أبوابها، كان الناس يتزاحمون في الطرقات، وقفوا في طوابير لاسترداد جوازات السفر، كانوا متجمعين في المطعم، كان السودانيون يتزاحمون وهم عصبيون ويحتجون؛ نحن في السودان نعاملكم كآدميين وأنتم هنا تعاملوننا كحيوانات! كانوا يقولون ذلك ليحيى. والحق معهم. كان الفرق شاسعاً؛ كان يحيى يحتج هو الآخر على تصرفات بوليس الحدود. هناك القليل من الحاجوايات haguayat دون مشاكل في التأشيرات، ليس من العدل أن ينتظروا حتى يمر الجميع. مررنا، كان أصدقاؤنا ينتظرون إلينا في صمت؛ فنحن من أهل الحظوة. ودعت صديقي ومرشدي في تلك الليلة التي رقصنا فيها وتمنيت له حظاً سعيداً، وودعت ذلك الطفل ذي القبعة الذي كان يقول: Yeahh ! غانياً. فقد انتهت بالنسبة له مرحلة سحرية من مراحل الرحلة.

أتى أبناء أخوات يحيى بابنته جيجي في السيارة، احتضنها والدها بشوق، بابا! بابا! انتقلنا إلى الشاطئ الغربي ووصلنا إلى غرب سهيل من خلال الصحراء، كان هناك ضوء آخر أقل ميلاً إلى اللون الذهبي مما كان في السودان، هناك الكثير من الجلبة والناس والمرح وكأننا أمام عالم مختلف مجتمع الوفرة، الناس في الشوارع، مجموعات من البشر، الإثارة والمقاهي والموسيقى

والرجال الذين يلعبون؛ تركنا وراء ظهورنا تلك العادات البسيطة التي عليها أبناء النيل الأوسط، وهذا الصمت الذي يلف كل شيء وكأنه حجاب سحري، نحن من جديد في قلب النوبة، لكنها النوبة المصرية التي تفيض حياة، مررنا عدة كيلو مترات بمحاذاة النهر، مررنا بالجبانة، وملعب كرة القدم والمسجد والصخور والجمال ونزلنا في الميدان الذي به دار يحيى على شاطيء النيل، لون منزله هو اللون الأبيض، لها شرفة تطل على النيل مباشرة. جلسنا في صالة ذات سقف مقبى عند الصحن الثاني. لون الحوائط من الداخل نيلي مائل للبنفسجية، أما الأرض فهي من الرمال الصفراء الناعمة.

زوجته جميلة وشابة ترتدي سايال Sayal أسود مطرزة أطرافه؛ أعدت لنا طعاماً رائعاً قبل أن يخرج زوجها الهدايا التي أتى بها. أكلنا في الداخل، ففي الخارج كان الجو حاراً وكان هناك الكثيرون ممن يرتدون أقنعة السباح، لم نرهم منذ فترة. وعندما حل المساء، تمددنا على البُسُط في الشرفة، في صمت. أمامنا تنساب مياه النيل صامتة وملغزة، وكأنها تجر معها كل التاريخ، الكثبان والصخور السوداء والجزر والعزبات والنخيل والنساء الجالسات في الهواء المنعش في مجموعات وأطفال يجرون هنا وهناك فوق الرمال، ورجال يعبرون وقوارب تقطع النيل من شاطئ الآخر. كان هذا المشهد النوبي من المشاهد التي تضفي السكينة على النفس. وكأنه به حياة خاصة ورعشة تدبّ في الهواء. وتنفذ إلى أعماق المرء.

كنت أعرف تلك القرية منذ زمن طويل، منذ أن تعرفت بيحيى، كنت أذهب إلى هناك كثيراً، أعبر النيل في القارب ليلاً وأعبر جزيرة سهيل وأنا أسير على ضوء النجوم، حتى أصل إلى غيط عبد الله حيث نسمع من هناك صوت المياه وهي تمر بالجندل الأول، وكنا نرقص تحت ضوء القمر. أصرّ بير على الذهاب إلى أسوان في تلك الليلة. إنها الليلة الأخيرة. بقيت أنا مع يحيى

أنعم بسلام هذه البلدة، وأتنسم هواء النهر العذب ومياهه الداكنة والسحر الذي يشع من ذلك الركن من النوبة السفلى، التي هي مرآة النوبة العليا التي تركناها وراءنا. أخذت أتمشى مع يحيى على الكثبان على الشاطئ، حتى وصلنا إلى ذلك البلاج الذي يقع في منعطف صغير في طريق "بربر" كانت الصخور السوداء تبرز بقوة والمياه عميقة وصافية؛ يقولون بأنها مسكونة بالجان، جن النهر. جلسنا على الرمال بينما القرية نائمة يلفها الصمت.

أخذنا أمتعتنا في الصباح، وقبل التوجه للمطار، مررنا بأسوان؛ لازال بير صامتاً ومتوتراً، كان يوم تصفية الحسابات، كان بير مدين لنا جميعاً وأنا مَدين ليحيى، راجعنا المصاريف؛ لابد من أن نقدم هدية ليحيى – قلت له – فقد ساعدنا كثيراً وقضى شهراً كاملاً دون أن يقبض مرتبه. كم! حسبنا. كانت المدينة هادئة بسبب عطلة العيد؛ بدون سياح والمتاجر مغلقة. وأخيراً استطاع بير أن يستخدم الكروت الائتمانية (الثان) في أحد البنوك. خرجنا ومعنا رزمة كبيرة من الجنيهات. اجتمعنا في الشارع: انتظر يا يحيى يجب أن نصفي حسابنا. خذ! قال له بير وهو يعطيه "باكو" الأوراق المالية، هذا ما ندين لك به، إضافة إلى أجرك لمرافقتك لنا في الرحلة. تجمدت في مكاني، طفرت على ذهني الصورة نفسها التي وقعت في الخرطوم. مرتب؟ إننا لم نتحدث في هذا أبداً. لا يا يحيى! هذا ليس أجرك، إنه هدية نقدمها لك ونحن شاكرين.

واصلنا، كان بير يريد شراء خلخالاً قديماً، اختار ما أراد وذهبوا بها لتلميعها، اختفوا، مر وقت، نظرت في ساعة يحيى، بقيت ساعة وربع على إقلاع الطائرة، دخلت لإبلاغه، لم يتبق لدينا إلا وقت قليل، فقال لي: لقد انتظرتك كثيراً أثناء الرحلة! انتظر؟ فكرت، إنه لأمر غريب فلم يكن هناك برنامج أو توقيت يجب الالتزام به، كان الأمر عرضاً مستمراً بلا توقف...

عدنا من عالم ليس به إلا ما هو جوهري، مفعم بالتاريخ، عدنا من أحضان سكينة لا يتخيلها إنسان، حيث الاستسلام والعوز لم ينسيا ذلك الشعب جذوره. هناك الكرم والابتسامة في مواجهة الزمن الصعب. عدنا من رحلة صعبة، لكنها رحلة تركب في أعماق المرء جذوة من العذوبة، من الإيقاع البطيء والسلام، والتناغم الذي نجهله. كانت رحلتنا واحدة لكن أحلامنا مختلفة، كنت أشعر بأنني حققت حلمي، فقد كان عبارة عن التطواف، في حلقة، في المجهول، تمكنت من لمس حلمي، ذلك الشيء الذي يطفو بين الحين والآخر، ذهبت إلى مروى ... وفي الطريق ... وجدت السودان.



"Charlò alegre con Yiagia"

شكل رقم ٩

معجم

Abbay (آباي) النيل الأزرق

Acropole: أكروبوليس بالفرنسية Acropolis

Aethiopia تعني باليونانية "الوجه المحروق" أو "الأسود" هكذا كانوا يطلقون هذه التسمية، خلال العصر اليوناني الروماني، على أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الشرقية، أي جنوب الجندل الأول للنيل في مصر. وكانت النصوص القديمة تعرف بوجود صنفين من هؤلاء البشر يرتبطان بكل من النوبة والسودان، الأول هو الأريتري والثاني هو أثيوبيا الحالية.

Akin (أكين) جزء من النوبة السفلى على زمن مروى

Alpha هي تسمية تطلق على بعض الموجات العقلية التي يصدرها المخ.

Aragid (أراغيد): الرقص النوبي أثناء حفلات الزواج، وهو في الأصل رقصة "قاديشا"، واتخذتها اليوم "كنوز Kunus ورغم ذلك فهؤلاء يجعلونها ذات إيقاع فيه تقليدية وبطء وكأن الرقصة عبارة عن موجات تنتقل بين الرجال والنساء حيث يتمايل الجميع وهم في صف على الإيقاع. ويعتبر الرقص والموسيقى من أهم الوسائل التعبيرية للثقافة النوبية.

Aushek (أوشك): هي قبائل تسكن الصحراء الشرقية – وقد شكلت مع قبائل Medja القوة الضاربة في الجيوش المصرية. تظهر هذه القبائل تحمل في "بردية بولاق".

باب: الجندل

العصيّ السحرية bastoncillos magicos: هي صغيرة من العاج عليها نقوش غريبة لحيوانات ضخمة وأشخاص عملاقة. كانت هذه العصي تستخدم خلال الدولة الوسطى في مصر على يد الشامانيين أو المبطّنين.

بطن الحجر: هي تلك المنطقة الصحراوية التي تمتد بين الجندلين الثالث والرابع، ابتداء من وادي حلفا حتى سمنة وتصل إلى ما بعد ذلك. ونظرًا

لوجود كميات كبيرة من الصخور وتجمعات الرمال والرياح المعاكسة فإن الإبحار فيها بالنسبة للمراكب الكبرى كان أمرًا مستحيلاً، وبالتالي لم يكن هناك مناص إلا استخدام قوافل الصحراء.

Baobab: الباوباب شجرة شرقية

Beja: هي قبائل بدوية في منطقة البحر الأحمر. وربما كانت من قبائل ميدجاي Medjay. وخلال القرن الثالث الميلادي ظهر خلفاء هذه القبائل وهم بلميس Blemm yes حيث كانت تتفق مع قبائل نوبة Noba في تقديس إيزيس فيله، وكانت من الأعداء الألداء للرومان.

بلاد السودان: كان السودان بالنسبة لمصر "البلد الأسود" أو "بلد السود" ويشمل وادي النيل الممتد جنوبًا وراء الجندل الثاني.

Caravanserai: إنها مساكن إيواء قديمة شرقية مخصصة للرحّالة والإبل. أي أنها "الخان" و"الوكالة" العربية

Catieh: هي مباني صغيرة ذات قباب، وتوجد في محطات السكك الحديدية في السودان.

Chakras: دوامة من الطاقة، وطبقًا للتقاليد الهندوسية توجد هذه في جسم الإنسان.

Clik: طقطقة تصدر من اللسان. وهناك لغات تسمى "لغات كليك" وهي أقدر لغات في العالم، أي لغة "سان" أو رجل الغابة في أفريقيا.

Cornack-i: مروضو الفيلة.

Dal: الجندل الثالث

Deffufa: "أطلال من الأجر" في النوبة، كانت الجبال الاصطناعية، وهي ذات طابع ديني، ترجع إلى مملكة قوش في كرمة.

Dinkas: قبائل في جنوب السودان

الجن: هو عفريت مكان، يتكون من مادة أثيرية غير مرئية ويمكن أن يتخذ أشكالاً مختلفة.

Dodecaschoenus: هو الإقليم الحدودي الذي أقرّه الرومان في النوبة السفلى في المحرّمة، وهو متاخم لإمبراطورية مروى. تركه دقلديانوس خلال القرن الثالث الميلادي ليفيد به أهل Noba أومكان نوباديا الذين استطاعوا أن يمدوا سلطانهم حتى حدود أسوان.

دنقلاوي: لهجة نوبية تنتشر عند "منعطف دنقلة" وهي لهجة شديدة الشبه بلهجة "كنوز" التي تنتشر في النوبة السفلى.

الدنقليون: هم النوبيون السودانيون الذين يقطنون "المنعطف الدنقلي" ابتداء من كرمة حتى دنقلة.

أثيرية: طب، طريقة علاج قديمة تقوم على الاعتقاد بأن الجسد محاط بطبقات من الطاقة غير المرئية؛ وفي الطبقة الأكثر كثافة وقربًا من الجسم تدور هناك الصراعات بين حقول القوة التي تؤدي إلى الآلام الجسدية، وبعودة التوازن إلى هذه الطبقة تُعالج عمليات الخلل في الطاقات أو الأمراض.

فاديشا: هي واحدة من لهجتين رئيسيتين تتوزع بينها اللغة النوبية. تنتشر هذه اللهجة في كوم أومبو وفي النوبة العليا في إقليم وادي حلفا والدال.

فالوكة: قارب بمجاديف، ويندرج الاسم أيضًا على المراكب، ذوات الأشرعة اللاتينية المستخدمة في النيل المصري.

فول: هو أحد أشهر الأطباق الشعبية في مصر والسودان.

From cape to cairo: من الكاب حتى القاهرة. كانت هذه العبارة تشير إلى مشروع شهير يربط القارة الأفريقية ببعضها عن طريق خط السكك الحديدية تحت الهيمنة الاستعمارية الإنجليزية.

جلابية: عبارة عن لباس فضفاض تستخدم في مصر والسودان وترجع أصولها إلى مصر الفرعونية.

Gem-Aten: "أي من يعثر على الأسطوانة" هكذا كانوا يطلقون هذا الاسم على كاواء أي إشارة إلى أنها ربما أعيد تأسيسها على يد الفرعون أمنوفيس الرابع – أخناتون – من تعيد إلى الإله أتون.

Giacometti: نحات إيطالي (ق 20)

Graffiti: نقوش شعبية على الحوائط.

Ghezira: جزيرة.

Cuba al-Fakir: المكان الذي يقطن فيه الصوفي.

Haguaya حاجواية – جمع جاجوايات: هم الأغراب من ذوي البشرة الشاحبة. هذا هو الاسم الذي كانوا يطلقونه في النوبة على المسيحيين الأقباط، وعم هذا الاسم ليشمل كل الأجانب. والغريب أنه في مصر نجد لفظة Haguaga خواجة بينما "حاجوابة" ظل محتفظًا بمعنى "العزيز، المحبوب".

حلفاويون: هم النوبة السودانيون الذي يقطنون وادي حلفا.

Iftar: هو إفطار رمضان، أو الإفطار.

إمام: من يؤم الصلاة في المساجد. أو عند صلاة الجماعة.

In extemis: في آخر لحظة (باللاتينية).

Iuch Allah: إن شاء الله (لعل الله يريد).

Irens: هي مملكة نوبية في صحراء بيوضة أو جزيرة مروى، عند منعطف بربر – شندي.

Irtjt: إحدى أوائل الممالك في النوبة، ويرى بعض الدارسين أنها كانت تقع في النوبة السفلى، بينما يرى آخرون أنها في العليا، وبعد ذلك انضمت لواوات.

جزيرة مروى: هكذا كان اليونانيون القدامى يطلقون هذا الاسم على مملكة

مروى، فقد كانت عبارة عن شبه جزيرة متهربة، اليونانيـا، بـين نهـر عطبرة والنيل الكبير والنيل الأزرق. والكلمة اليونانية nesos كانت تعني جزيرة وشبه جزيرة، وفي كتاب "الجغرافيا" الكلاوديـو البطلمـي (ق 2) نجد الاسم "جزيرة مروى".

جعالين: ملوك شندي.

جيب : سيارة دفع رباعي.

Comino: كمون.

Kandake أو Condace: أي الملكات أو الملكات الأم، وهو لقب يطلق علـى العاهلات المرويات حسب الإغريق، وبالفعل فهن أمهات الملوك، وربمـا شكلن جزءًا من الحريم الملكي.

كف: التصفيق الإيقاعي.

Kidintu: أي بطن الحجارة، في الصحراء النوبية بين الجندلين الثالث والرابع.

Kraal: قرى بانتو عبارة عن أقصاص مستديرة لها أسقف من القش.

Kunus: كنوز، أحدى اللهجات المهمة في اللغة النوبية، تنتشـر فـي النوبـة السفلى، وفي إقليم أسوان ومنعطف دنقلة.

Mabruk: مبروك.

Mahas: قبائل البحر الأحمر.

المهدي: هو محمد أحمد بن عبدالله (1845 – 1885) بطل سوداني أعلن نفسه خليفة للرسول محمد ووقف ضد الاستعمار المصري الإنجليـزي عـام 1881م واستولى على الخرطوم 1885م وتوفى في أم درمان بعد ذلـك بقليل.

Makuria: هي واحدة من الممالك المسيحية التي ظهرت في النوبـة السـفلى ابتداء من عام 543م عندما تحول ملوك نوباديا إلى المـذهب القبطـي. وابتداء من تلك الأونة ظهرت ثلاثة ممالك مسيحية في النوبة حتى القرن

14م. النوبارية القبطية (بين الجندلين الأول والثالث) وعاصمتها بلانسة وفاراس. ومملكة ماكوريا أوماكورا بين الجندلين الثالث والرابع، في إقليم دنقلة، العاصمة والتي تحولت إلى الأرثوذكسية الشرقية عام 569م. ومملكة أولوديا، بين كريمة والخرطوم. وخلال القرن الثامن م. اتحدت كل من مملكة نوباديا وماكورسيا ولكن تحت مسمى جديد هو موكورا وكانت العاصمة دنقلة؛ كانت مملكة النوبيين طبقًا للكتاب للحوليات العرب؛ كان ملوكها يرتدون العمامة ويصغون قرنين يرجعان للإله آمون.

مقام: هو المكان المدفون به أحد الأولياء.

مركب: فلوكة.

مكتوب: أمر مكتوب، قدري.

ماريس: معناها بالقبطية "الجنوب" في نوباديا القديمة. وكانت الجزء الشمالي للمملكة المسيحية موكورا أو ماكوريا (ق 10م) طبقًا للمسعودي، قام سلاطين المماليك في مصر بإقصاء ملوكها وساهم في ذلك سيد قبائل كنوز في إقليم أسوان المدعو "كنز الدولة" الذي استولى على عرش دنقلة.

ماتوكي: هكذا تسمى لهجة كنوز في كريمة.

M"bongo فيل، طبقًا لإحدى اللغات في سوط أفريقيا.

ميدجاي: عبارة عن قرى بدوية تطل على البحر الأحمر، وربما ترجع أصول أهل هذه القرى إلى شبه الجزيرة العربية وكانت لها ممالك قوية في الصحراء الشرقية، ساعدت المصريين القدماء على غزو النوبة العليا أثناء عصر الدولة الوسطى. وتظهر هذه القبائل ومعها قبائل أوشك Aushek في بردية بولاق. كانت تقوم بدور الشرطي وأحفاد هذه القبائل هم البجا.

Mek: ملك

Menhir هي عبارة عن حجر رأسي للثقافات السابقة على عصر ما قبل التاريخ، مثبت فوق دورات الطاقة الأرضية.

Meroeia civilization of the Sudan: مروى: حضارة من الســودان. ب.ل. شين 1967م.

Miam: واحدة من ممالك النوبة السفلى في عصر الرعامســة. كانــت توجــد بالقرب من توشكا.

Miu: مملكة في صحراء بيوضة أو جزيرة مروى، توجد في منعطف بربيــر شندي.

Mograen : ملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق عند الخرطوم. وهــي لفظــة تطلق على ملتقى مجريين من المياه.

Mezzin: المؤذن.

Mufti: المفتي

Mulid: المولد

Nehesi: هو الاسم الذي يطلقه المصريون على الشعوب السوداء التي كانت تسكن المنطقة التالية للجندل الأول، ومعنى لفظة Ta Nehesi أرض أهل الجنوب.

Nest: العش

Nobas: نوباتاس، نوبادس، أي النوبيون، هناك نقش كتابي يرجع إلى عصــر الملك أكسوميتا إيزانا (ق 4م) يوضع الفرق بين Nobas السود من مروى – من المؤكد أنهم البانتو – وبين Nobas الحمر من النوبة السفلى، وربما كان هؤلاء من السكان الأوائل للنيل، وهناك رأي يقول بأنهم عبارة عــن خليط من القبائل المسماة San وقبائل أخرى أفريقية وأريترية أو أثيوبية.

Nobadia أو Nobatia: مملكة عاشت في النوبة السفلى بعد زوال مــروى (ق 4م) وكان يعيش على أرض هذه المملكة شعوب النوبة؛ ويبدو أنه كــان يعيش هناك النوبة الحمر، ويعتبر هؤلاء استمرار للمملكة المروية. وكان دقلديانوس هو الذي جعل أسوان الحد الفاصل بينهم وبين مصــر. كــانوا يعبدون إيزيس في فيله وكانوا محاربين أشداء.

Nubti: "سيد بلاد الجنوب"، كان هذا هو لقب أوكنية الفرعون طهارقة الذي يطلقه عليه أمراء سايس. وبالتالي فإن "بلاد الجنوب" هي النوبة التي ترجع صرفيًا إلى لفظة نوب Nub بمعنى الذهب.

Nympheo: آثار عظيمة تتعلق بعبادة الينابيع وآلهة المياه خلال العصر الروماني.

عين حورس: عبارة عن رقية مصرية شعبية تظهر فيها إحدى عينا حورس. وتتسم بأنها تقوم بدور الحماية.

Okupios Giorgos: عبارة يونانية تعني "السيد جورج".

Omphalos: مركز أوصُرّه باليونانية و هي تعني تلك الحجارة التي كان ينظر إليها قديمًا على أنها مركز الكون.

L. Oriental: واحدة من المكتبات الشهيرة في القاهرة.

Out of Africa: خارج أفريقيا؛ هذه هي التسمية التي تطلق على نظرية النشوء والارتقاء التي تقول إننا معشر البشر نرجع إلى أصول أفريقية.

Pnubs: اسم المدينة الدينية الجديدة المكرّسة للإله آمون، أقامها المصريون إلى جوار قوش القديمة وعاشت حتى نهاية العصر المروي. وتعني "شجرة جوجوبا" وهي شجرة طبية معروفة في أمريكا أيضًا.

"بوابة الجنوب": كان هذا هو الاسم الذي أطلقه المصريون على الجندل الأول.

قبة الفقير: المكان-الذين يدفن فيه أحد أولياء الله.

Reiki: تقنيات يونية قديمة للتداوي بالأيدي وعن بعد.

Sancta sancorum: قدس الأقداس.

Satju واحدة من أوليات المملك النوبية تقع إما في النوبة السفلى، أو النوبة العليا. ثم اندمجت بعد ذلك مع واوات.

Siga: السيجة هي لعبة الفلاحين في السودان ومصر.

سكة المحيلة:— هي الصحراء الواقعة بين الجندلين الثالث والرابع.

Sukkot: "سكوت" هم النوبيون السودانيون الذين يقطنون مساحة كبيرة في وادي حلفا والدال، أي الجندل الثالث، وهم إحدى بطون قبائل الفاديكا. والمصطلح بالنوبية يعني "التمر" إي إشارة إلى صنف من الأصناف الممتازة في هذا المكان.

Ta-seti: "أرض القوس" وهي النوبة السفلى عند المصريين وأول إقليم في مصر العليا.

The-khet: مملكة في النوبة السفلى على زمن الرعامسة، تمتد من "أبو سمبل" حتى بوهن.

Tholos: عبارة عن بناء جنذي في الثقافة الميثنية micemica على شكل قرص الشمل (الخلية).

Typhonium: مركز لعبادة الإله ست، الذي تمثله اليونانيون على أنه تيفون. وفي جبل البرقل نجد المعبد الذي يحمل رقم B300 كان مكرسًا للإلهة موت.

Voyoge a Meroe et au Fleuve Blanc: رحلة إلى مروى والنيل الأبيض. ف. كيلو د. (1827م).

واوات: "أرض الذهب" هكذا كان المصريون القدماء يطلقون هذا الاسم على النوبة السفلى التي تبدأ عند "أبو" (جزيرة الفيلنتين) أي الجندل الأول وحتى الثاني، أي في منطقة وادي حلفا وجزيرة ساي Sai. وكانت خلال حكم الأسرة السادسة ذات غابات كبيرة، حيث كان المصريون يستغلون أخشابها في بناء المراكب. وأطلق هذا الاسم على أولى الممالك النوبية، التي اندمجت بعد ذلك مع مملكتي Irtjet وساتجو على زمن الدولة القديمة في مصر. وفي عصر الرعامسة نجد مملكة واوات التي كانوا يستخرجون منها 248 كيلو جرامًا في العام تمتد من كلابشة حتى سيالة تحميها قلعة باكي Baki عند مدخل وادي العلاقي، أي الطريق العظيم المؤدي إلى مناجم الذهب.

يم:- كان هذا هو الاسم الذي يطلقه المصريون الأوائل علـــي مملكـــة قـــوش. وابتداء من الأسرة السادسة جرى تنظيم قوافل تجارية من اليفنتين حتـــى "أرض اليم" عن "طريق اليفنتين"، واستغرقت الرحلة من سبعة إلى ثمانية أشهر؛ تعود حاملة البخور والعاج والكاوب Caoba وريش النعام وجلود الفهود والذهب والعبيد، وأحد الأقزام كهدية للفرعون بيبي الثاني.

Yeahh: نعم، عبارة تعجب ينطقها أهل أمريكا الشمالية.

عجالة تاريخية:

ما قبل التاريـخ:

السودان بلد عتيق تقع في منطقة النيل الأوسط، بين أثيوبيا وأوغندا ومصر، وتضم هذه المنطقة خمسة جنادل في النيـل، كمـا شـهدت هجـرات Homos erectus y Homos Sapies الأوائل عبر وادي النيل، في اتجاهها خارج أفريقيا. وكان على هؤلاء المهاجرين أن يجتازوا السهول السـودانية، أي إقليم النوبة ويواصلون على مسارات الأنهار الكبـرى وهـي النيـل الأبـيض والأزرق وعطبرة حتى يصلوا إلى النيل المصري وإلى برزخ السويس، الطريق البري الوحيد للوصول إلى آسيا وأوربا؛ ويفترض أنهم عاشوا ما لا يقـل عـن مليون عام في السودان، وهناك أدلة على تواجدهم منذ 800 ألف عـام نعثـر عليها في كرمة، الأمر الذي يتوافق مع وصول قبائل هوموس إلى مصر لاحقًا أي عام 700 ألف قبل الميلاد. وفي عام 300 ألف ق.م نجدهم يعيشون في كثير من الأماكن على ضفاف النهر مثل "خور أبو أنجا" القريـب مـن أم درمـان، والخرطوم وشندي ومروى ودنقلة ووادي حلفا.

وعبر السودان انتقلت أيضًا قبائل Homos Spiens Sapiens، وهـم البشـر الحديث في خروجه من أفريقيا، وكان ذلك إما عام 110 ألف (ق.م)، أو عـام 60 ألف (ق.م). وبعد العصر الحجري القديم أخذت تظهر مجموعة من الثقافات الـ mesaliticas و (العصر الوسيط) neoliticas (العصر الحجري الحديث) في منطقة النيل الأبيض والنيل الأزرق، وكانت واحدة من أبرزها تتمركز فـي الخرطوم (8600 – 5500 ق.م). وخلال تلك الفترة مرت بالسودان قبائل مـن أريتريا وأثيوبيا سارت في وادي النيل، واتجهت مباشرة صـوب وادي النيـل المصري هربًا من العوامل المناخية، وكانت هذه القبائل تتحدث "اللغة السـابقة

على اللغة المصرية القديمة"، ثم اختلطت هذه القبائل بمن بقى من القبائل في وادي حلفا والنوبة العليا وسكنوا جميعًا مصر.

الثقافات الأولى:

هناك من يقولون بأن مصر حالة فريدة وظهرت من العدم، وهذه مقولة تخلو من الصدق إذ تتجاهل النمو الموازي الذي عاشته الثقافات الأخرى على ضفاف النيل السوداني وخاصة في النوبة العليا ابتداء من الخرطوم وحتى مصر؛ ففي نهاية العصر الحجري الحديث ثقافات الرعاة النوبيين والمعروفة باسم "النوبية الأولية" أو ما يسمى "بالمجموعة أ"، وبلغت هذه أوج ازدهارها خلال 3100 – 3000 ق.م، بشكل فيه توازي مع توحيد مصر الذي ضم الأوية السفلى اعتبارًا من أبو (اليفنتين) حتى ساي Sai عند الجندل الثاني. جرت اتصالات كثيرة عبر النيل بين هذه النوبة ومصر ما قبل عصر الأسرات، ولم يقتصر الأمر على التجارة بل تمثل أيضًا في إرسال النوبيين كجنود لشهرتهم كمحاربين أشداء؛ كما أبدعوا في صناعة الفخار وتوصلوا إلي منتجات تعتبر من أرفع ما في العصور القديمة. ظهر الممالك النوبية الأولى في العصر الكلاسيكي الأول للمجموعة أ.

قام فراعنة مصر – خلال الدولة القديمة – بغزو النوبة التي تمتلئ رمالها بالذهب، وظهرت أسماء كل من خوفو وخفرع ومنكاورع في بعض النقوش الكتابية الأمر الذي أنهم استطاعوا أن يجلبوا من هناك كميات وفيرة من الذهب التي استخدموها في تمويل بناء أهراماتهم العظيمة؛ وفي نهاية الدولة القديمة ظهرت في النوبة ثقافة جديدة هي استمرار لسابقتها، وهي ثقافة "المجموعة ج"، وجرت عدة حملات تجارية عبر الصحراء رواها سكان "أبو" وسين (أسوان) ترجع إلى الأسرة السادسة، وتحدثت هذه الحملات عن ممالك نوبية في واوات وإيرجت وساتجو، التي اتحدت في واوات، أرض الذهب.

قوش: أو مملكة أفريقية كبرى

تكتلت تلك الثقافات النوبية في إطار ما عرف قديمًا في بداية الأمر باسم "يَم" ثم بعد ذلك "مملكة قوش" التي امتدت من الجندل الثاني حتى الرابع وكانت كرمه هي أبرز مراكزها التي استمرت من 2500ق.م حتى 1500 ق.م. وبشكل موازي للثقافات المصرية خلال عصر الدولة الوسطى في السودان أهم وأبرز الحضارات السوداء في أفريقيا والمسماة قوش في النصوص المصرية، وهناك صدى لشهرتها حسبما ورد ذلك في نصوص التوراه.

كانت كرمة عاصمة النيل الأوسط، تحيط بها الأسوار، وتضم منشآت دينية ضخمة وقصورًا ومنازل وخزائن، أي أنها كانت حاضرة يلتقي فيها الناس والتجار من أفريقيا السوداء مع الإمبراطوريات الفرعونية وكانت في مأمن طبيعي حيث تقع وراء الأراضي التي يصعب اختراقها وهي الصحراوات النوبية. وحوالي 1500 ق.م وتوافقًا مع غزو الهكسوس لمصر، بلغت مملكة قوش أوجها حيث امتد نفوذها حتى الجندل الأول في أسوان حتى الجندل الخامس بالقرب من شندي، أي السيطرة على كافة أقاليم النوبة، وجرت الألسنة باللغة النوبية القديمة في الإقليم وكان ذلك مع القرن الثاني ق.م.

الغزوات الفرعونية:

هاجم فراعين الدولة الوسطى – ربما كانوا من أصول قوشية – روات، وذلك لينتزعوا الذهب والتجارة الأفريقية والهندية من النوبيين. ثم جاء بعدهم فراعنة الدولة الحديثة الذي واجهوا مملكة قوش القوية، وتمكن تحتمس الأول (1504 – 1492 ق.م) من غزو المملكة الأفريقية حوالي عام 1560 ق.م ووصلت قواته إلى ما بعد جبل برقل المقدس، واستمر الاحتلال أربعمائة عام، أي حتى القرن الحادي عشر ق.م وكان له تأثير عميق في الثقافة السودانية في

النوبة، فقد كان الإقليم كله يطلق عليه واوات، أي بلاد الذهب نظرًا لكثرة مناجم الذهب فيه.

وإلى جوار كرمة ظهرت مدينة جديدة هي بنوبس Pnubs مكرّسة للإله آمون، وإلى الجنوب أيضًا، ظهرت مدينة أخرى هي "جـيم أتـون" أو "كـادا"، وجعل تحتمس الثالث العاصمة الإقليمية في نباته.

أنشئت معابد كثيرة في عصر فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسـعة عشرة، ومن أمثلة ذلك معبد سولب Soleb ومعبد سيدنجا Sedeinga وتحـول جبل البرقل إلى مركز كبير من مراكز النبوءة، وتم تكريسه للإله آمون نباتـه وهو متصل بآمون طيبة، وأنشئت العديد من المعابد المكرّسة للآلهة المصـرية؛ ورغم أن الفرعون "الملحد" أخناتون قضى على الكثير منها باسم عبـادة الإلـه آتون فإنه احترم الجبل المقدس (جبل برقل) وتقديس الإله آمون هناك؛ وعمومًا، فإن الحضارة المصرية القوية لم يتوقف تأثيرها على عادات وتقاليـد وديانـات وعمارة الثقافات الخاصة بالممالك النوبية في السودان، ورغم هذا فإن منعطـف نتقلة كانت له استقلالية كبيرة، حيث كان يحكمه نبلاء قوشيون استطاعوا الحفاظ على الثقافة النوبية.

مملكة قوش الثانية: نباته والفراعين السود (الأسرة 25)

ظهر خلال القرن الحادي عشر ق.م بعض الملـوك المحليـين الـذين استطاعوا أن يقيموا مملكة مهمة في النيل الأوسط، وخلال الألفية الثامنة تمكـن الملوك القوشيون الجدد وهم آلارا Alara وكاشتا Kashta من إقامة عاصمتهم نباتًا التي تقع أمام "الجبل الخالص" "جبل البرقل"، وأسسا مملكة قوشية جديدة هي نباته، وجاء خلفاؤهم ليتولوا القيام بحملات لغزو مصر، وكان بيانكي أو Piye أو الفراعين السود في الأسرة 25 المصرية (775 – 653 ق.م) وطبقًا لرواية مانيتون كان هناك خمسة ملوك هم جماع هذه الأسـرة وهـم Piye وشـاباكو

وشبتيكو وطهارقة وتانوت آمون. كان هؤلاء أوائل الملوك السود الذين أقاموا مجموعات هرمية في كورو. وكان طهارقة أبرز هؤلاء الملوك، حيث استطاع إقامة ملك امتد من فلسطين حتى الخرطوم وكرّس جهوده لترميم المعابد القديمة والنقوش والطقوس وإقامة العديد من المنشآت في مصر وخاصة في طيبة والنوبة، وكوّن إضافة إلى ذلك جبانة نوري Nuri الجديدة إلى جوار نباته وكذا نموذج الأهرامات المروية. أسس أبسماتيك الأول الأسرة السادسة والعشرين وتمكن من هزيمة تانت آمون وطرده من الأراضي المصرية.

أسرة نباته:

بعد أن فقد النوبيون الأراضي المصرية، واصل الملوك إقامتهم في العاصمة نباته، وبذلوا كل جهودهم الضرورية حتى تستمر الأسرات الفرعونية السوداء اعتمادًا على صلة القرابة وكذلك استخدام الألقاب الفرعونية حيث ظل يطلق عليهم "سيد الأرضين" أو "سيد مصر العليا والسفلى" واستخدموا كذلك رموز الملوك مثل للتيجان الفرعونية. وحقيقة الأمر هي أن الشعوب النيلية في كل من قوش ومصر كانت تعتبر نفسها قريبة من بعضها البعض وبالتالي استمرت العلاقات السياسية والثقافية بين الطرفين. والأمر الغريب هو أن فرعون سايس الجديد – أبسماتيك الأول – نصّب نفسه على عهد الاستمرار على خط ملوك القوش في مصر، ويشير هيرودت إلى أن آلاف الجنود الذين كانوا في أبو (اليفانتين) هربوا إلى قوش وأقاموا هناك دون مشاكل وبذلك أسهموا في عصر جديد لازدهار العادات المصرية في النوبة.

كان لطهارقة ابن هو أتلانيرسا Atlanersa أصبح ملكًا وكان أول الأسرة الجديدة في نباته، وخلفه على العرش (643 ق.م) الملك سند أمانيسكين Senkamanisken حيث ظل تحمل التاج المزدوج (مصر العليا والسفلى)

وكان أحد مؤسسي معبد آمون في مروى، وسهر على الحفاظ علـــى الـــروابط الوثيقة التي بين ملوك نباته ومروى منذ القرن السابع ق.م، وامتد ملكـــه مـــن Pnubs في الشمال حتى بوتانه في الجنوب. ثم خلفه أنلاماني Anlamani الذي كان تاجه يتضمن قرني آمون، بذلك – عدة قرون– تلك الزينة المقدســـة التـــي سار عليها الملوك المسيحيين في دنقلة. ثم جاء من بعده أخوه أســـبلتا Aspelta عام 591 ق.م. لكن تدهورت العلاقة بين مصر والنوبة بسبب قيـــام القوشـــيين بإحدى الرزايا على مصر. وعلى هذا تم إزالة النقوش القوشـــية فـــي مصـــر وتشويه وجوه تماثيل الفراعنة السود، وبدأ أبسماتيك الثاني عملية حربية كانـــت نتائجها مدمرة على النوبة العليا، حيث دمر نباته ومعابد جبل البرقل وبنـــوبس عام 591 ق.م.

هرب الملك أسبلتا نحو الجنوب، صوب مروى العاصمة المزدهرة التي كانت ترجع لقرون سبقت؛ وابتداء من تلك الفترة أسس مقر إقامته، ومـــع هـــذا فعند إجراء طقوس التتويج كان ملوك نباته – مروى يعودون إلى جبل برقـــل، وكذا عند الوفاة ليدفنوا في نورى، الجبانة التي أسسها طهارقة. واصل أســـبلما حكمه الذي دام لسنوات طويلة وأسس "معبد الشمس" في مروى، ثم خلفه ابنـــه أراماتلكو Aramatelqo، واستمرت هذه الأسرة بين مـــروى ونباتـــه. وكـــان ناستاسن Nastasen آخر من دفن في نورى مع نهاية القرن الرابع ق.م.

مملكة مروى الأسطورية :

حدث الانتقال النهائي إلى مروى عام 300 ق.م وأصـــبحت العاصـــمة الأسطورية للمملكة النوبية التي استمرت على مدى ألف عام أي حتـــى القـــرن الرابع الميلادي، وعاشت حياة مستقلة وسيطرت على الأراضي التـــي تشـــمل النوبة العليا وإقليم بنوبس في الشمال، سيطرة هذه المملكة على النيل الأوســـط

ابتداء من بوتانا التي أطلق عليها اليونان "جزيرة مروى" وكـان بهـا الـذهب وصناعة الحديد والبرونز والتجارة والزراعة؛ كان لهذه المملكة اتصالاتها الدولية بمصر البطلمية، حيث كانتا تزود ملوكها بالفيلة وكانت لها صـلاتها بأفريقيـا السوداء وأثيوبيا والهند. وظلت ثقافتها متأثرة بالرموز الفرعونية؛ حيث أقامـت مجموعات هرمية ضخمة ومعابد ذات طراز معماري وفني فرعوني. ومع هذا فإن ابتعادها زمنيًا وجغرافيًا عن المراكز الفرعونية وعلاقاتها الحميمة بثقافـات أخرى مثل الهندية كان إيذانًا بظهور مفاهيم دينية جديدة تعتبر الفريدة من نوعها في تاريخ وادي النيل. وإذا ما تأملنا تاريخها وجدنا أن أفضل فترات ازدهارهـا كانت خلال القرن الأول قبل الميلاد حيث كان في سدة الحكم الملك ناتاكامـاني والملكة أمانيتوري.

ربما كانت مروى هي نقطة الانطلاق إلى وسط وشرق أفريقيـا فيمـا يتعلق بتقنية صناعة الحديد والبرونز، وربما وصلت إلى نيجيريا، أضف إلـى ذلك بعض المظاهر الثقافية والنظام الاجتماعي. كان هذه الثقافة ذات لغة خاصة بها هي المروية، وكان الكاتب اليوناني إيراتوستنس Eratostenes أول من ذكر – عام 200 ق.م. – أهل نوباي أو النوبيين الذين يعيشون على الشاطئ الغربي للنيل حتى جنوب دنقلة. وخلال العصر الروماني والبيزنطي نجـد أن النوبـة السفلى قد تحولت إلـى منطقـة حـدود وشـكلت بـذلك مـا يعـرف بـ Dodecaschoenus (إقليم الحدود). اتسمت العلاقات أحيانًا بالتوتر، ووصـل الأمر بالرومان للحرب ضد ملكة نباته هي كنداك حيث دمروا مدينتها؛ وكانـت هناك فترات سلام بإرسال البعثات الدبلوماسية من مروى حتى عاصمة "فراعين الغرب" أي أباطرة روما خلال القرن الثاني الميلادي، وبالتحديـد أثنـاء حكـم أدريان.

وخلال القرن الرابع الميلادي يبدو أن مروى تعرضت لغـزو ملـوك

Axum في أثيوبيا. وبعد ذلك عاشت مملكة مروى مرحلة أفــول لا تتوقــف، وتوقفت عن بناء الأهرامات الجنائزية، لكنها مع ذلك واصلت إنشاء المقابر في صورة أكوام ضخمة، وهذا يعني أنها كانت تعيش حياة اقتصادية مزدهرة ولهــا وزنها السياسي. وعلى أية حال فإن اسم قوش ومروى زالا بشــكل تــدريجي ومعها المملكة القديمة، وهُجرت المدن القوشية القديمة. وتروى بعض الأساطير أن الارستقراطية المروية انتهى بها الأمر للجوء إلى جبال النوبة فــي وســط السودان.

الممالك المسيحية:

من المفترض أن النوبة السفلى قد انفصلت خلال الفتــرة بــين القــرن الخامس والرابع وأقامت ما يطلق عليه نوباتيا، في المنطقة الواقعة بين الجندلين الأول والثالث، وجعلت من بلانا Ballanas العاصمة، كما ظهــرت مملكتــان أخريان لاحقتان في النوبة العليا على أطلال مروى وهي ناكوريا Nakuria بين الجندلين الثالث والرابع وعاصمتها دنقلة، ومملكة ألوى Alwa إلى الجنوب على ضفاف النيل الأزرق وعاصمتها سوبا Soba.

وبعد التوقف عن عبادة الآلهة إيزيس فــي فيلــة – 533م – انتقلــت عاصمة نوباتيا إلى مدينة فاراس، وتحولت إلى المسيحية القبطيــة عــام 543م مثلها مثل ألو Alwa وكذا ألوديا Alodia، بين كريمة والخرطوم، وكانت كلها تتبع بطريركية الإسكندرية. أما ناكوريا فقد أصبحت تابعة للكنيســة المناوئــة Melquita أو الأرثوذكسية عام 569م. وحلت اللغة القبطية واليونانيــة محــل اللغة المروية في تلك الفترة. وعلى أية حال فإن ملوك هذه الممالك في نوباتيــا تمثلت الديانة الجديدة ومع هذا استمرت في استخدام الطقوس القديمة.

انعزل ملوك النوبة المسيحيون عن مراكز البحر المتوسط بعــد غــزو العرب لمصر (ق 7م) وبالتالي فإن الحدود الفاصلة كانت متمثلة فــي الجنــدل

الأول (الباب) أو الشلال) وازدهرت اللغة النوبية القديمة كلغة لسكان الإقليم ودخلت العربية إلى المنطقة من مصر. وفي القرن الثامن تم توحيد هذه الممالك تحت ظل القبطية، وهي مملكة نوباتيا وناكوريا، وكان لهذه الأخيرة اليد الطولى وأصبح اسمها موكورّا وعاصمتها دنقلة التي امتلأت بالكنائس البازيليكية والكنائس الصغرى. تغير اسم نوباتيا القديمة ليصبح مارس Maris أي الجنوب بالقبطية، وسيطرت على إقليم وادي حلفا وعلى المعبد إلى الجندل الثاني حيث أطلق على أحد ملوكها – ملك موكورّا – "سيد الجبل".

الممالك العربية خلال العصور الوسطى:

بعد قرون عديدة من العلاقات السلمية نجد أن القرن الثاني عشر الميلادي يشهد تطورات مثيرة خلال الغزوات الصليبية، حيث شهد مواجهات بين مصر والممالك السودانية في النوبة العليا والسفلى وانتهى الأمر باحتلال مصر لموكورّا في نهاية القرن الثاني عشر على زمن صلاح الدين الأيوبي، وجاء ذلك بعد عدة هجمات – غير متوقعة – على يد الملك المسيحي ضد الموانئ الإسلامية المطلة على البحر الأحمر وفي أسوان. وربما كان ذلك عبارة عن محاولة فاشلة شجع عليها الفرنجة لغزو مصر من جهتين. ومع هذا يرى البعض أن ذلك ربما كان مساعدة مقدمة للأسر الفاطمية. وعلى أية حال فهناك براهين تؤكد على تعاون المعماريين الفرنجة في بناء الحصون التي أقيمت في موكورّا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

استمرت فترة الانحطاط مائة عام، حتى القرن الرابع عشر حيث نصّب المماليك أول ملك مسلم في دنقلة، وأخذت تظهر ممالك إسلامية في النوبة العليا. استمرت مملكة ألوا Alwa حتى نهاية القرن الخامس عشر، ومن تلك الممالك المسيحية ظل هناك عدد كبير من السكان في النوبة العليا الذين تمسكوا بديانتهم القبطية مثل جيرانهم الأثيوبيين. أما في مصر – في النوبة السفلى – فإن

الصراعات بين الأيوبيين والفاطميين أدت إلى تشرذم الشعوب النوبية، وسيطرة سياسية لقبيلة "بنوكنز" أي الكنوز في المنطقة المحيطة بأسوان. وابتداء من ذلك الحين أخذنا نشهد تشتتًا متزايدًا للإقليم على حساب القبائل المحلية التي تقاسمت فيما بينها النوبة العليا والسفلى وجعلتها مناطق لغوية ومناطق نفوذ.

العصر الاستعماري والاستقلال:

قامت القوات المصرية بغزو السودان عام 1820م وكان ذلك على يد إسماعيل باشا الابن الثالث لمحمد علي، واستمرت انتصاراته في الأراضي النوبية لكن جيشه قوبل بمقاومة شديدة في شندى حيث تمكنت القوات المحلية من إيقاف زحفه والقضاء على جيشه. وفي نهاية القرن التاسع عشر تمكن المهدي البطل السوداني وزعيم حركة دينية وطنية من الاستيلاء على الخرطوم التي دافع عنها جور دون عام 1885م وتمكن من الجيش المصري الإنجليزي، وجعل من أم درمان عاصمة له. لكنه مات في العام نفسه وخلفه الخليفة عبدالله. ثم هُزم هذا الأخير بعد ذلك وتعرضت دنقلة القديمة للدمار بسبب المواجهات الحربية وأخذ كيتشنر يتقدم بجيشه من مصر ويشيد خط السكك الحديدية بين وادي حلفا وأبو حامد لتأمين خطوط المواصلات، وفي عام 1898م أعاد احتلال الخرطوم. وفي العام الثاني بدأت الحماية المشتركة المصرية البريطانية على السودان التي انتهت عام 1950م عندما تم تنصيب الملك فاروق ملكًا لمصر والسودان. ومن المعروف أن السودان استرد استقلاله في 1956/1/1م.

ميثولوجيا

- آمون: "الإله الخفي"، الإله الأعلى لمصر، ابتداء من الدولة الوسطى، لكن أصوله غير معروفة، كان إله البنوءة للسماوات والنماء وتجسد أيضًا في الإله مين. ونراه في طيبة في شكل بشري أو برأس كبش، وهو الحيوان المقدس لذلك الإله، غير أن أشكاله الأكثر قدمًا تربطه بالثعبان والأسد، كان يتزين بريشتين مرتفعتين ربما ترجع أصولهما إلى المحاربين الليبيين والأفارقة. وعندما غزا المصريين النوبة في عصر الدولة الحديثة وكرّسوا جبل برقل للإله آمون جعلوه كإله "خفي"في الجبل.

- آمون نباتة أو آمون الجبل المحض: هو من خلف الإله الطوطمي النوبي، ويُقدسّ في شكل كبش، وكان الإله العلي لجبل البرقل والذي يبارك ملوك مروى ويقرر المدى الذي تصل إليه المملكة جغرافيًا وهو الذي يصدر الأمر بالقيام بالأضحيات كل فترة زمنية معينة، وهي عادة أفريقية أصيلة، كان أيضًا إله النبوءة وإله الخصوبة وتقدم إليه القرابين من الحبوب في أواني فخارية على شكل أقماع. كان يبجلّ على أنه "آمون رع سيد تيجان الأرضين الذي يقيم في الجبل الخالص، وذلك كما يظهر في لوحة "أسبلت" أو في "الاختيار". كما ظهر في لوحة أخرى على أنه "آمون – رع حار أختى – أتون" ومعبده الواسع هو الذي يحمل رقم B500 في جبل البرقل.

- آمون، سيد ينوبس: كان الميجل في مدينة بنوبس التي خلفت قوش وأقيمت إلى جوار كرمة في "دقى جبل"، كان معبده من أكبر معابد النوبة، وقد عثر هناك على مخبأ تحت الأرض به العديد من تماثيل ملوك القوش التي عثر عليها أيضًا في معبد آمون في جبل البرقل، وبذلك تزداد الروابط بين هذين المركزين النوبيين المقدسين، تمثل آمون بنوبس في

العصر القوشي في صورة أبي الهول، أي جسد أسد ورأس كبش، وبذلك يتم التوفيق بين الأنماط القديمة للآلهة النوبيين على شكل أسد وتـأثيرات أفريقية والآلهة الفرعونية.

- **آمون جيم – أتون:** كان يحمل الاسم المذكور ويقدس في المدينـة التـي تحمل اسمه والتي تعرف أيضًا باسم كاوا.
- **آمون الثور – سيد النوبة:** هو من سمنا، بالقرب من نوري، التي تقع في ملتقى الطرق التي تربط بين نباته ومروى عبـر الصـحراء البيوضـة Bayuda، وكان الشكل الرابع لآمون في النوبة.
- **أبيد ماك Apedemek الإله الأسد الأعلى المروي:** هو سـيد الحـرب وحامي أراضي الجنوب، وربما ترجع أصوله إلى الطوطمية الأفريقيـة، يظهر على شكل حيوان أو جسد إنسان ورأس سـبع Antropomorfo. وقد ظهر في نقا Naqa مرتبطاً بالثعبان وزهرة اللوتس، كما ظهر فـي شكل غريب آخر على شكل ثلاثة رؤوس أسدية وأربعـة أذرع، وربمـا يرتبط بالإله تفنوت المفترسة والآلهة سخمت، وقد تسبب في تصحّر النوبة بلهاثه الناري والطاعون Pestilencias أو الأوبئة. وفي الطقوس المروية يظهر كراعي لإيزيس ووالد لحورس.
- **أبيد ماك نقا:** ربما كانت من آلهة النبوءة، وهي الوحيدة من نوعهـا فـي مروى ووادي النيل، تظهر ذات وجوه ثلاثة أسدية وأربع أذرع وترسـم بأذرعها بعض الطقوس الدينية. كان مقرها "معبد الأسد" في نقا. وخـلال العصر البطلمي والروماني ظهرت في مصر تعاويذ عنوصية وسـحرية بها بعض الآلهة أو الشياطين من ذوات الوجوه والأذرع المتعددة رغم أنها لم تكن أشكالاً متنوعة لأبيد ماك.

كانت الهند هي المكان الذي نجد فيه هذه النمطية الميثولوجيـة المتعلقـة

بالوجوه والأذرع المتعددة للآلهة سواء كان ذلك في المرحلة المسماة شيفا Shiva التي تضم مراحل إسكاندا Skanda وجانيًا أو درجا Durga، أو المرحلة الأخرى المسماة فيستو Visnu ومعها لكمي Lakmi أو الأباتاري Avatares العشرة التي تتجسد لفيستو والتي نجد من بينها الرجل الأسد Narasimha.

- أبيس: هو ثور ممفيس المقدس مكرس لبتاح، كان واحدًا من الطواطم الأكثر قدمًا في مصر، أصوله غير معروفة، يظهر كثور أسود له أجنحة ملتصقة بجسده، وهو يذكرنا ببعض الآلهة المجنحة Grifones والأشكال التي يتم تبجيلها في معابد مروى. هو ابن بتاح وابن بقرة عذراء، وكان رمز للخصوبة الذكورية وبذلك فإنه على صلة بالذكورة والشباب الدائم الذي يتعلق بالفرعون. ويرتبط جنسيًا بأمه. وكان واحدًا من الآلهة المصريين المهمين، وهو يرتبط في العالم الآخر بأوزوريس وآتون.
- أتف **Atef**: هو التاج الذي تحمله بعض الآلهة المصرية والمروية، ويضم ريشات ثلاث وقرون كبش في وضع أفقي مثل الإله خنوم وكذا ثعبانين.
- أتون **Atun**: إله الشمس الذي تم تقديسه في عصر أمنوفيس الرابع، باسم آخت آتون.
- أتوم **Atum**: هو أول آلهة هليوبوليس الذي بزغ من النون وهي الفوضى الأولية مع بداية الأزمنة وهو الذي أنجب نفسه بنفسه وخلق أول اثنين من الآلهة شو وتفنوت، وربما كانت أقدم تجلياته عبارة عن حية تخرج من الفوضى المائية، المليئة بالتماسيح والثعابين. ومعه ظهرت الهضبة الأولية وزهرة اللوتس ذات العطر والشمس، ظهر أيضًا في شكل رموز الأبراج مثل الأسد والثور والسلحفاة والمانجوستا أو الجعران الشمسي. ويظهر في العالم الآخر كإله الطقوس الجنائزية له رأس كبش. وربما جرى النظر

إليه على أساس أنه "الجد" الأول للفرعون، أو والده الأسطورة الذي يتوجه بالتاج الملكي.

- بس Bes: هو إله مصري قزمي، شكله أفريقي، ظهر خلال الدولة الحديثة، معتنى بالرقص وحامي الحوامل أثناء المخاض والمواليد ويعتقد أن أصوله سودانية، وكان أيضًا إله الخصوبة وإله الحرب في بعض الأحيان. وافق مع آلهة أخرى أكثر قدمًا وخاصة الإله ست- أسد، واتباعه الذين رآهم اليونانيون على أنهم قريبون من آلهة Satiros.
- ديونيوس: هو إله قديم، يرجع إلى ما قبل العصر الهلنستي، وربما إلى ما قبل التاريخ، أي إلى عصر التيتان Titanes طبقًا للكتاب الكلاسيكيين. كان مولعًا بالموسيقى والرقص والجنس والخمر، وكان إلهًا يموت ويبعث، وربما ترجع أصوله إلى جبل على شاطئ النيل طبقًا لبعض الأساطير. وابتداء من القرن السابع ق.م. ظهر في اليونان، ثم أحيط بعد ذلك بمجموعة من Satiros وباكانتس Bacanles أي النساء المهوسات بالمرح واللهو الديونيسي. ارتبط بالإله أوزوريس.
- جانيسا أوجاناباتي Ganesa, Ganapati: هو الإله الفيل، من الهند وقد ظهر متأخرًا كأحد آلهة ذلك البلد، وكان ابن شيبا واللبوءة بارفاتي، إله للقوة الروحية والدقة والحكمة؛ كان سيد الحملات الحربية الخاصة بـ شيبا، وهو الذي كان يتغلب على الصعوبات ويساعد على تجاوز العقبات على الأرض. وهو أحد أبرز الآلهة في الهند، ويتم تصويره في شكل آدمي كأنه شخص حالم وممتلئ وهذا رمز للثراء والرفاهية وله رأس فيل. كان يساعد على نجاح القوافل التجارية وكان حامي التجار؛ وقبل القيام بأي رحلة أو مغامرة كان من الضروري تقديم القرابين له للتمتع بحمايته. أما بالنسبة للجانب السلبي فيه فقد كان Kirttimukka أي سيد الغابات

والطبيعة البرية وكان أيضًا مناوئًا لكافة أنماء السوء والحامي وقت الكوارث. وكان الكاراكول البحري الأداة الموسيقية التي يستخدمها.

ظهرت الأفيال بشكل متسارع في الميثولوجيا الهندية، فمن المحيط الأساسي من اللبن سوف تولد اللوتس الأساسية، Sri- Laksmi وكذا Airavata أي الفيل الأبيض الذي سيمتطيه إندرا Indra إله المطر. ومن البيض الرئيسي سوف يظهر ثمانية أزواج من الآلهة التي سوف تجتذب أخواتها السحابات، وأفيال السماوات، وكانوا سادة الأعاصير. وبذلك نرى أن الفيل مهم للغاية في الميثولوجيا البوذية، وسيد الخصوبة.

أثناء الاحتفالات الخاصة بـ فيسنو Visnu، كان الفيل المقدس في معابدها، على أساس أنه مطية إلهية، يتم غسله في احتفالية كبيرة لأنه كان في حياة أخرى سابقة الأمين الورع لهاري فيسنو. وفي الدرجة نفسها التي عليها جانيسا نجد أيا نار Auiya Nar، الذي يرتبط ارتباطًا جميعًا بالأفيال. وهو ابن شيفا وفسنو، وكان يعبد في بلد تمول في دكان Dekkau الجنوبية. كان حامي الحقول، ويهب الأبناء والمحاصيل ويداوي الأمراض، وكان أثناء الليل يمتطي فيلا ويحارب الأرواح الشريرة، وتضم مداخل معابده نقوش للفيلة.

وطبقا د. زمير Zimmer، كان وضع الفيلة في الهند سابقًا على أوعية الملوك؛ كان يتم اصطيادها في الغابة ويتم وضعها في محميات لاستخدامها لأغراض حربية أو احتفالية أو سحرية. كان تبجيلها مهمًا لإنقاذ الأفيال نفسها وكذلك الملك والمملكة والجيش. وأثناء احتفالية الخصوبة كان الـ Hastyayur veda مبجلا عند العاهل وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين ورجال الدين والشعب.

كان الفيل في أفريقيا مرتبطًا أيضًا بالمطر وبكل ما يساعد على هطول

الأمطار، وكان الملكة – الأم، التي يتم تكريمها بإطلاق لقب "الفيل العظيم" عليها أو "السيدة الفيل"، وكانت التي تحتفظ بالأشياء التقليدية السحرية ومن خلالها يتم الدعاء بالاستسقاء؛ وكانت الفيلة مرتبطة أيضًا بالألوهية، فقد كل أدوات الساحر الذي يتكلم عن ظهر الغيب من العاج.

- **Grifones**: هو حيوان خرافي من ذوات الأربع له مخالب أسد وأجنحة ومنقار يبجله شعب Escitas (جنوب روسيا) عندما يرون أشلاء الديناصورات Protoceratops, Psittacosurus التي توجد في صحراوات أسيا الوسطى. وقد ورثت شعوب كثيرة من الشعوب القديمة صورته ومنها المصريون القدماء وما وراء النهرين والميثويكس واليونانيون والهندوس والمرويين.
- **حتحور**: آلهة مصرية قديمة، ذات طابع قمري، لا نعرف أصولها. ومن بين أشكالها القديمة نجد الثعبان واللبؤة وروح الأشجار وسيدة شجرة الجميز. وتم تقديسها كجاموس بزي في البحيرات الأولية، ومن أبرز صورها الجاموس والبقرة أو المرأة ذات الآذان البقرية، أما تاجها فكان على شكل قرون. وكانت "سيدة المهبل" على أساس أنها آلهة الحفلات الجنسية الصاخبة والاحتفالات والموسيقى واللهو، وكانت ترتبط بعمود أو منهير Menhir منتصب وعضو ذكري يتم حمله أثناء الاحتفالات بها. كانت عند اليونان بمثابة أفروديت.

كانت أيضًا سيدة المناجم والأراضي البعيدة مثل النوبة وبونت وسيدة التجارة مع تلك الأقاليم. أيضًا هي الآلهة السماوية زوجة رع وابنته وأمًا وزوجة لحورس، وحامية الأمومة والفرعون الطفل؛ ولم تكن أمًا فقط بل زوجة للفرعون، وتحتفظ بتقاليد أمومة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. ويبلغ تفرّدها أن جعلت من الأم ذات أهمية كبيرة وتعكس السلطة التي

كانت عليها الملكات الأمهات الأفريقيات خلال عصر الإمبراطورية المروية.

- هرقل: هو بطل يوناني ذو قامة وقوة خارقة، أطلق عليه الروماني مسمى "Hercules". أصوله غير معروفة، ورغم ذلك فإن المصريين كانوا يؤكدون أنه ولد في وادي النيل؛ وربما كان يمثل ذكرى سلالات إنسانية سابقة على سلالتنا. وقد أشار ديودور بالتفصيل إلى وجود هرقل مصري كان يعيش في العصر الحجري القديم، سابقًا زمنيًا على هرقل اليوناني الذي ربما كان على صورته. وكان ينظر إليه في مصر على أنه قريب الشبه من خونسو الذي كان أحد الثالوث المقدس للكرنك (آمون – موت – خونسو).

- حورس: الصقر المقدس، الإله الشمس المصري، سيد الشمس والصباح والسماء الشرقية. كان مبجلا في النوبة السفلى وكانت له أشكال مختلفة وربما كان مشتقًا من إله نوبي قديم ديدوين Dedwen على شكل طائر. هو إله سماوي في المقام الأول أو "الذي يوجد بعيدًا". كان عدوًا لعمه ست سيد الصحراوات الغربية، واحتدم الصراع بينهما على السيطرة على مصر. وكان يتم الربط بينه وبين سوبك، التمساح المقدس حيث يظهر هذا الأخير برأس صقر، وبذلك يعطي الطابع السماوي لسوبك القديم، وربما يرمز أيضًا للتحالف بين الشعوب المتوسطية والشعوب المحلية المطلة على النيل في صراعها ضد الشعوب الصحراوية السودانية في الواحات عند غزو مصر مع بداية العصر الحجري الحديث. وكان الملوك الأوائل خلال عصر ما قبل الأسرات هم "أتباع حورس".

وحقيقة الأمر كان حورس إبنًا لحورس سابق هو حارو إيرس أو حورس العجوز، وابن حتحور وموحد القطرين، والشيء الغريب أنه يظهر كأنه حورس الذهبي وهو يطير على الحرف الهيروغليفي "ذهب" الأمر الذي

يذكرنا بأن النوبة كانت تسمى واوات أي "بلد الذهب". وانتهى به الأمر على أنه ابن إيزيس وأوزوريس، والحامي السماوي لمصر وملوكها مع بداية عصر الأسرات، ويمنح الفرعون الخلود وحق اعتلاء عرش مصر. يظهر أيضًا على أنه حور أرماخيس أو حورس في الأفق في صورة أسد يرتبط بأبي الهول في الجيزة ابتداء من الدولة الحديثة.

- **إيمحوتب**: هو عالم ومهندس معماري ومعالج ظهر خلال الدولة القديمة، وأصبح إلهًا وسيد الطب، وربطه اليونانيون بالإله Asclepios .

- **إيزيس**: الآلهة العليا لمصر، زوجة وشقيقة أوزوريس وأم حورس. أصولها غير معروفة، ومع هذا يؤكد الكتّاب القدماء أنها جاءت أثيوبيا وكانت آلهة سوداء، ويعني اسمها "المقعد" وهو عرش من الحجر.

كانت آلهة كونية متميزة وهي الأم الكبرى الخالدة، يتم تبجيلها في مصر والأثيوبيتين على أنها "الملكة إيزيس" وهذا طبقًا لنص طقسي قديم. تم ربطها بقوة بالآلهة حتحور، وكانت في آن معًا الأم الأسطورية للفرعون بمعنى أنها الجدة القديمة، التي تنقل السيادة على الأرض مثلما هو الحال في المجتمعات الأفريقية.

- **خنوم**: هو إله جزيرة الفنتين، له رأس كبش، كان يرتبط بالنيل بقوة وكان "سيد التماسيح" إشارة إلى أصوله النيلية، ويقيم عند الشلال الأول وكان الفخّاري المقدس الذي يخلق البشر والحيوانات من الطين. وكانت قرونه مستوية وتاجه هو Atdf. وكان يُعبد على أنه "الروح" أوْ با رع، وجسب إله الأرض وأوزوريس. ثم ربطه باللبؤة منهيت ويأم التماسيح نيت. كانت الضفدعة زوجة القديمة وهي حقت وتعرف بأنها شديدة الخصوبة، وبعد ذلك كانت ساتيس رمز الفيضان وكانت ابنته الصيادة النوبية أموكيس سيدة الشلالات في النوبة السفلى.

- خونو: ارتبط بهرقل اليوناني، وكان إلهًا بريًا وقديمًا جمسد إنسان ورأس حيوان وكان من الآلهة الرّحل "أي الذي يطارد أو يجري" و "الذي يقطع أوصال الآلهة ويلتهمها" ثم تحول بعد ذلك إلى الإله القمري وابن آمون وموت مشكلاً الثالوث المقدس. ارتبط أيضًا بالشفاء، وكان مقدسًا في نباته ومروى.
- **موت:** هي راعية آمون الكرنك في الدولة الحديثة، وكان اسمها يوحي بالآلهة الأم الكونية وخالقة كل أشكال الحياة وأم الآلهة. ارتبطت أيضًا ببعض الآلهات القديمات ومن بينهن إيزيس وسخمت وحتحور، وهي إلهة العالم الآخر؛ تم ربطها بآلهات الأوليات ويقال إنها نشأت مع النون، أي الفوضى أو الهُوّة المائية الأساسية وكانت في الوقت ذاته "ملكة السماء" ومنزل الإله بتاح.
- **ناجاس Nagas:** هي ثعبان مقدس في الهند وكانت ترتبط بالطاقات الروحية التي كانت تنبع من المياه الأولية، كما كانت ترتبط بالخصوبة. وتظهر في الميثولوجيا الهندوسية والبوذية. وكانت سيسا أم كافة الثعابين وروح الجسم الإنساني وتظهر كحية قوية على طول العمود الفقاري.
- نفرتوم: هو ابن بتاح وسخمت وكان "اللوتس المعطر" الذي ظهر من الفوضى المائية "النون" عندما ظهر أتوم على الهضبة الرئيسية. وارتبط دومًا بالعطور، رغم أنه ربما كان في الأصل يمثل الروائح الكريهة التي توجد في البحيرات الأولية. وفي هذا المقام كان شكله مخيفًا وهو الأسد. وبعد ذلك ارتبط بالشمس الشابة التي ولدت من النون وأصبح اللوتس رمزًا شمسيًا.
- **نخبت:** الإلهة النسر، إلهة الكاب في مصر العليا وحامية الملك والأم الأسطورية له، ترتدي دائمًا "التاج الأبيض" الخاص بمصر العليا وكانت

ثنائيا مع وادجيت في بوتو، في مصر السفلى، وتمثل كلتاهما الأرضين. كانت أيضًا إلهة المواليد وارتبطت بحتحور، وتظهر على هذا في صورة النسر الحامي والبقرة أو الحية المجنحة حاملة التاج الأبيض.

- **عين حورس:** هي تعويذة كانت تمثل العين اليمنى أو اليسرى للإله، وهما (العينان) رمز للشمس والقمر، وكانت توضع على المومياوات كحماية.
- **أنوريس Onuris:** كان الرسول الذي بعث به رع إلى النوبة وكان على شكل أسد "شو" وذلك للسيطرة على الطابع الشرس للآلهة سخمت التي كانت تقوم بتدمير النوبة بالحر والجفاف والطاعون – طبقًا لأسطورة الآلهة المتباعدة" كانت الـ Paredro لتفنوت، وتقبض بيدها اليمنى على حبل ينزل من السماء، وهذه رابطة قديمة على صلة بما يسمى "محور العالم" Axismundi و "السلم الصاعد إلى السماء". شو وتفنوت هما أبناء أتوم وكان يشكلان الجيل الإلهي الثاني وأول زوجين في الميثولوجيا المصرية، كان يطلق مسمى "تاج أونوريس" على ما يشبه القبعة على مقاس الرأس ولها أربعة ريش رأسية واثنان من الأورايوس Uraeus في الجبهة وهذا يعني سلطان الإله على الأرضين أي قوش ومصر، وهو ما استخدمه ملوك القوش.
- **أوزوريس:** هو الإله الأكثر أهمية في الميثولوجيا المصرية ابتداء من الأسرة الخامسة. وكان في أصوله إلهًا غامضًا للنماء والزرع، وكان يموت ويحيا كل عام مع دورات الزراعة، وطبقًا للكتّاب القدامى ترجع أصول أوزوريس إلى أثيوبيا وكان على شكل آدمي، كما كان أبرز آلهة التحضر، وربما جاءت به إلى النيل الشعوب المتوسطية الأثيوبية والأريترية التي قامت بغزو مصر وإبداعها في فجر العصر الحجري الحديث. كان أسود اللون كأنه الطمي، وكان مثل الشعوب التي يسودها. كانت إيزيس السوداء ترافقه في رحلته عبر النيل.

تحول مع مرور الزمن إلى الإله الجنائزي الأكثر أهميـة، وعـاني الآلام والموت وكان يبعث من جديد كل شهر ديسمبر، أثناء الانتقال الخريفـي. هو ابن جب الأرض، ونوت، السماء، وشـقيق وزوج لإيـزيس ووالـد حورس. كان يضع التاج الأبيض الخاص بمصر العليا وكذا التاج "أتـف" الشديد الانتشار بين الآلهة المرويين. وكان على صلة بمنهيـر المُركَـب والعمود Djed.

- **بتاح:** إله من الأولين، ارتبط بالهضبة الرئيسية، ظهر في ممفيس عاصمة مصر ومقر الملكية، وكان الساحر الذي خلق العالم المرئي بقـوة الكلمـة والفكر الخالق، أصوله غير معروفة وكان على شكل آدمي وكـان تاجـه بونيه (قلنسوة) أما باقي الجسد فهو كالمحنط، أي هيئة إله مدفون؛ وربمـا كان مرتبطاً في جذوره الأولى بالطقوس التي كان يؤديها الأقدمون فـي كافة الثقافات الأفريقية، وبالتالي فهو يُبجل على أساس أنه "الأقدم"، وكانت له روابط حميمة بالآلهة السابقة على قصة الخلق، أي النون ونونـت، أي الفوضى والهوّة المائية.

كان في آن معاً قناة الطاقة للاتصال بالآلهة "السمع الذي ينصت" للتفرعات ويقوم بعمليات العلاج والأثيري باستخدام اليد وأحياناً ما تراه وهو يضـع على رأسه ريشتين، كما ارتبط بالأقزام الحرفيين الذين كـانت بوسـعهم استلهام شعوب من قلب أفريقيا. ربط اليونانيون بينه وبين الإله هيفاستوس Hefaistos الحداد الإلهي وكان عميد الحرفيين. كان من الآلهة المعبودة في النوبة، ورفيقته كانت الآلهة سخمت الشديدة الارتباط بالنوبة، والابـن نفرتوم "اللوتس العطر".

- **ساتيروس:** إنها كائنات ميثولوجية مكرّسة للموسيقى والرقص والشـراب والجنس ظهرت لأول مرة في مصر أثناء الدولة الوسطى، وهـي تابعـة

للإله ست الأسدي الشكل، وبعد ذلك ارتبطت تلك الآلهة بالإله بس. ثم ظهرت بعد ذلك في الأساطير الفينيقية واليونانية والرومانية ترافق الإله ديونيسوس.

- إتباع حورس: هم الملوك المحاربون وجيوشهم، أي هؤلاء الذين تمكنوا من غزو مصر خلال القرون السابقة على عصر الأسرات وأدخلوا عبادتهم إلى مصر (كانون تورين Canon de Turin).

- سرابيس: إله سكندري ابتدعه بطليموس الأول في نهاية القرن الرابع ق.م. وظهر كإله يوناني يجلس على عرشه له لحية ويضع قصعة الوفرة على رأسه، ويرتبط بأوزورو – أبيس Osoro – Apis إله المصريين مع زيوس وهاوس وديونسيوسي. كان اليونانيون هم الذين يقدمونه في الأساس وانتشرت عبادته أيضًا إلى جوار عبادة إيزيس في الإمبراطورية الرومانية.

- ست: إله مصري قديم. كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة آلهة تحمل الاسم نفسه كلنها مختلفة، أقدمها هو من حكم مصر العليا برفقة أخيه حورس. أما الثاني فهو عدو رع؛ والثالث هو عدو شقيقه أوزوريس وقاتله، وهناء جاء حورس ابن هذا الأخير وانتقم لوالده بأن هزم عمّه. كان منذ الأسرات الأولى إله الخصوبة، وارتبط بالحمار الـ Itifalico. كان ينظر إليه أثناء الأسرات المصرية الأولى على أنه إله عادل وعالم يساعد البشر، لكن ابتداء من الدولة الوسطى نجده في سياقات أسطورية على شكل أسد عملاق وعدو شديد العداء للإنسان، وأطلق عليه في كتاب الموتى "الإله الأسد" ومع هذا هناك عبارة موازية تقول بأنه غير عدواني يهتم بالرقص والشراب والموسيقى والجنس وتحيط به مجموعة من الأتباع الـItifalico أي ساتيرو. وابتداء من الدولة الحديثة نجد مرتبطًا بالشر

في الأساس وبالأراضي الحمراء وهي الصحراء وتغير شكله ليكون في النهاية على شكل إنسان له رأس كلب، وقد تمثل اليونانيون هذا الشكل الأخير ورأوه شبيهًا لـ Tifon.

- **تفنوت:** هي إبنة أتوم وكانت على شكل حية في البداية، وكانت حية برأس أسد، أو على شكل لبؤة. وبشكلها البشري كانت عبارة عن امرأة جالسة لها رأس لبؤة فوق رأسها الحية Uraeus. كانت تمثل الرطوبة تحت الأرض وكذلك إفرازات المهبل والمَنيُ والريق بينما كان شقيقتها وزوجها الأسد شو يمثل الهواء. يشكلان معًا الزوجين الألهيين الأولين في الميثولوجيا المصرية، وأبنائهما هما جب إله الأرض ونوت إلهة السماء.
- **تيفون:** عملاق يوناني جرى ربطه بست.
- **تيتانس Titanes أو العمالقة:** هي كائنات ميثولوجية يراها اليونانيون على أنها أوائل سكان الأرض قبل وجود البشر الذين هم من نسلها، وبعد أن حكموا على الأرض حاربوا آلهة الأوليمب الذين تمكنوا من هزيمتهم بمساعدة هرقل وقضوا عليهم. وربما تمثلهم المصريون على أنهم من عينة ست العملاق الأسدي الشكل وصاحب العضو الذكري العملاق والذي يحيط به أتباعه.
- **تريمورتي أو إسفارا:** هو إله هندي يظهر في ثلاثة وجوه لرأس واحد وهي الآلهة الهندوسية فيسنو وبراهما وشيفا، وهي الجوانب الحامية والإبداعية والتدميرية للإله الواحد "براهمان" كان الآلهة الثلاثة لخم أربعة أذرع، حيث كان فيسنو الذي لم يخلق وهو الكون في غفواته وكان يجلس على زهرة لوتس هي Sri- Laksmi، وهناك حية ذات ألف رأس تدعى أنانتا Ananta أي الخلود، كانت تطفو فوق مياه المحيط الأزلي، وقد نمت زهرة لوتس في سُرتها، وهي القوة الحيوية التي جلس عليها براهما الساحر الخالق.

كان ذلك الإله "قديمًا" هو رب الكلمة والكتب المقدسة، وهو Vedas السابقة على الخلق؛ ومن خلال التأمل والتضحية خلق السماء والأرض والغلاف الجوي والفراغ و Pwrusa أي الكائن الأولي الذي تجزأ وخلق منه الكون الملموس والعالم الروحي. وبالنسبة لشيفا فهو الجانب التدميري في الطبيعة، كان زاهدًا وسيد الرقص الصوفي والإيقاع الكوني والحرب والسلام والشفاء. وبصفته إله الخصوبة كان يظهر فوق العضو الذكري Lingam العمود الذي يرجع إلى المنهريس Menhires القدامى.

Uraeus: الآلهة الحية على شكل كوبرا ثائرة ومهددة وهي عين رع الذي تُعمى. كانت توضع فوق التيجان الملكية لحماية الفرعون وكان ذلك بفضل طاقاتها السلبية الأثيرية، تحفر لنفسها مكانًا في المعابد والجبانات الملكية.

استغرقت الرحلة التي قمنا بها، يحيى وبيو وأنا، للسودان الفترة من 3 إلى 28 نوفمبر لعام 2003.

كتب الدار العربية للنشر والتوزيع

Evaluating the Teaching of the four Language Skills in the Third Level of the Sudanese Secondary School	Pr. Ghada Ahmed
Men in Northern Sudan Their Knowledge of and Attitudes	Dr. Manal A.LDiab
Public Health Hazards Associated with Fruits of Gongleiz	Pr. Elzaeim Alazn.
– أسواق أم درمان	أ.د. سيد أحمد العقيد
– التطور التاريخى لمشكلات الحدود السودانية	د.شوقى عطاالله
– الدور السياسي للزعيم إسماعيل الازهرى	عبدالفتاح محمد
– السلطان الشهيد على دينار	أ.د. سيد أحمد العقيد
– العلاقات السوداني المكية عبر التاريخ	د. سيد احمد عثمان
– العلاقات بين الرزيقات ودينكاملوال	د. محمد عيسى عليوة
– الهوية السودانية عبر التاريخ	ب. احمد إبراهيم
– أوراق يومية	أ.د. محمد سعيد
– دارفور الحق المر	د. سيد احمد عثمان
– دور الطوائف الدينية فى العمل السياسى فى السودان	عفاف محمد
– دور المرأة السودانية فى الحراك الإجتماعى والسياسى (1900م – 1969م)	منى أحمد
– دور المرأة السودانية فى الحراك الإجتماعى والسياسى (750 ق م – 50م)	د. دولت يوسف أحمد
– دور برامج التليفزيون غير السودانية فى تغير القيم الاجتماعية للمجتمع السودانى	إلهام ع[illegible]
– علاقات دولة الفونج ببلاد العرب	جوليت[illegible]
– مصر والقرن الأفريقي في القرن التاسع عشر الميلادي	د. سيد[illegible]
– معهد بحوث ودراسات العالم الثالث دورية رقم (4)	ب.احـ[illegible]
– موسوعة الرموز والشخصيات الوطنية السودانية	د. عفا[illegible]
– موسوعة الرموز والشخصيات الوطنية السودانية 1900–1969	ب.احـ[illegible]
– نسق الأسرة السودانية	د. إيه[illegible]

للدار إصدارات أخرى فى مجالات علوم التربة والأراضى والحشرات والميكروبيولوجى والوراثة وعلوم وتكنولوجيا الأغذية والعلوم الهندسية والبيئيى والعلوم البحتة الأخرى